



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

مصحف ابن كثير
التفسير

مُرْهُ عَلَى الْقُرْآنِ

الجزء العاشر

سورة التلحة - سورة البقرة - سورة الكهف

دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٥	من هدى القرآن المجلد ١٠
١٥	اشاره
١٦	اشاره
٢٠	سوره الروم
٢٠	اشاره
٢٠	فضل السوره:
٢٢	الإطار العام
٢٢	الاسم:
٢٦	[سوره الروم (٣٠): الآيات ١ الى ١٠]
٢٦	اشاره
٢٦	اللغه
٢٨	لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ
٢٨	هدى من الآيات:
٢٩	بينات من الآيات:
٣٧	[سوره الروم (٣٠): الآيات ١١ الى ١٨]
٣٧	اشاره
٣٧	اللغه
٣٨	فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ
٣٨	هدى من الآيات:
٣٩	بينات من الآيات:
٤٨	[سوره الروم (٣٠): الآيات ١٩ الى ٢٤]
٤٨	اشاره
٤٩	وَ تَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

٤٩ هدى من الآيات:

٥٠ بينات من الآيات:

٥٩ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٥ الى ٣٤]

٥٩ اشاره

٥٩ اللغه

٦١ فأقم وجهك للدين حنيفا

٦١ هدى من الآيات:

٦٣ بينات من الآيات:

٧٧ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٣٥ الى ٣٩]

٧٧ اشاره

٧٧ اللغه

٧٨ الشرك بين التبرير التقافى

٧٨ اشاره

٧٨ هدى من الآيات:

٧٩ بينات من الآيات:

٨٩ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٠ الى ٤٦]

٨٩ اشاره

٨٩ اللغه

٩٠ ظهر الفساد بما كسبت أيدي الناس

٩٠ هدى من الآيات:

٩١ بينات من الآيات:

١٠٥ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٧ الى ٥٣]

١٠٥ اشاره

١٠٥ اللغه

١٠٦ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا

١٠٦ هدى من الآيات:

- ١٠٨ بينات من الآيات:
- ١١٦ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٥٤ الى ٦٠]
- ١١٦ اشاره
- ١١٦ اللغه
- ١١٧ هذا يوم البعث
- ١١٧ هدى من الآيات:
- ١١٨ بينات من الآيات:
- ١٢٦ سوره لقمان
- ١٢٦ اشاره
- ١٢٨ فضل السوره:
- ١٣٠ الإطار العام
- ١٣٠ الاسم:
- ١٣٤ [سوره لقمان (٣١): الآيات ١ الى ١١]
- ١٣٤ اشاره
- ١٣٤ اللغه
- ١٣٦ الإحسان تكامل و هدايه
- ١٣٦ هدى من الآيات:
- ١٣٩ بينات من الآيات:
- ١٥١ [سوره لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]
- ١٥١ اشاره
- ١٥١ اللغه
- ١٥٢ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ
- ١٥٢ هدى من الآيات:
- ١٥٤ بينات من الآيات:
- ١٥٤ لقمان الحكيم الالهى:
- ١٧١ [سوره لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٢٧]

١٧١ اشارة

١٧١ اللغة

١٧٣ لماذا سخر الله الخليفة للإنسان

١٧٣ هدى من الآيات:

١٧٤ بينات من الآيات:

١٨٩ [سوره لقمان (٣١): الآيات ٢٨ الى ٣٤]

١٨٩ اشارة

١٨٩ اللغة

١٩١ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

١٩١ هدى من الآيات:

١٩٢ بينات من الآيات:

١٩٢ اشارة

١٩٦ الايمان صبر و شكر:

٢٠١ كيف نشكر الله على النعم

٢٠٤ الصبر هدى و ظفر:

٢١٤ سوره التجدده

٢١٤ اشارة

٢١٦ الإطار العام

٢١٦ اشارة

٢١٦ الاسم:

٢١٩ [سوره السجدده (٣٢): الآيات ١ الى ١١]

٢١٩ اشارة

٢١٩ اللغة

٢٢١ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

٢٢١ هدى من الآيات:

٢٢٣ بينات من الآيات:

٢٣١ [سوره السجده (٣٢): الآيات ١٢ الى ٢١]

٢٣١ اشاره

٢٣١ اللغة

٢٣٣ تتجافى جنوبهم عن المضاجع -

٢٣٣ هدى من الآيات:

٢٣٥ بينات من الآيات:

٢٣٨ الاولى: التسليم و الخضوع للحق:

٢٣٩ الثانيه: التبتل الى ربهم فى الأسحار:

٢٣٩ الثالثه: الإنفاق فى سبيل الله:

٢٤٤ [سوره السجده (٣٢): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

٢٤٤ اشاره

٢٤٤ اللغة

٢٤٤ و كانوا بآياتنا يوقنون -

٢٤٤ هدى من الآيات:

٢٤٨ بينات من الآيات:

٢٤٨ اشاره

٢٥٠ شروط الامام:

٢٥٨ سوره الأحزاب:

٢٥٨ اشاره

٢٦٠ فضل السوره:

٢٦٢ الإطار العام:

٢٦٢ الاسم:

٢٦٨ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١ الى ٦]

٢٦٨ اشاره

٢٦٨ اللغة

٢٧٠ وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ مِنْ رَبِّكَ

٢٧٠ هدى من الآيات:

٢٧٣ بينات من الآيات:

٢٨١ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٧ الى ١٥]

٢٨١ اشاره

٢٨٢ اللغه

٢٨٣ و كان عهد الله مسئولاً

٢٨٣ هدى من الآيات:

٢٨٦ بينات من الآيات:

٢٩٤ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١٦ الى ٢٠]

٢٩٤ اشاره

٢٩٤ اللغه

٢٩٦ و لا يأتون البأس الا قليلاً

٢٩٦ هدى من الآيات:

٢٩٧ بينات من الآيات:

٣٠٠ قصه غزوه الخندق:

٣٠٩ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢١ الى ٢٤]

٣٠٩ اشاره

٣٠٩ اللغه

٣١٠ و ما بدلوا تبديلاً

٣١٠ هدى من الآيات:

٣١١ بينات من الآيات:

٣١٧ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٥ الى ٣٢]

٣١٧ اشاره

٣١٧ اللغه

٣١٩ موقف القيادة الرساليه من الأحداث و الأشخاص

٣١٩ هدى من الآيات:

بينات من الآيات: ٣٢٢

غزوه بنى قريظته: ٣٢٥

تعليق: ٣٢٧

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٣ الى ٣٥] ٣٣٥

اشاره ٣٣٥

اللغه ٣٣٥

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ٣٣٧

اشاره ٣٣٧

بينات من الآيات: ٣٣٧

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٣٩] ٣٤٩

اشاره ٣٤٩

اللغه ٣٤٩

محوريه القيادة الرساليه فى المجتمع ٣٥١

هدى من الآيات: ٣٥١

بينات من الآيات: ٣٥٢

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٠ الى ٤٨] ٣٦٠

اشاره ٣٦٠

وَدَاعِباً إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَّاجاً مُنِيراً ٣٦١

هدى من الآيات: ٣٦١

بينات من الآيات: ٣٦٣

اشاره ٣٦٣

ما هى صلاه الرب؟ ٣٦٧

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٩ الى ٥٤] ٣٧٤

اشاره ٣٧٤

اللغه ٣٧٤

وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ٣٧٧

٣٧٧ هدى من الآيات:

٣٧٨ بينات من الآيات:

٣٨٩ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٥ الى ٦٢]

٣٨٩ اشاره

٣٨٩ اللغه

٣٩١ صَلَّوْا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا

٣٩١ هدى من الآيات:

٣٩٢ بينات من الآيات:

٣٩٥ الصلاة على النبي:

٤٠٦ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٧٣]

٤٠٦ اشاره

٤٠٦ اللغه

٤٠٨ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ

٤٠٨ اشاره

٤٠٨ هدى من الآيات:

٤١٠ بينات من الآيات:

٤١٠ اشاره

٤١٨ الامانه في الأحاديث:

٤٢٢ سوره سبأ

٤٢٢ اشاره

٤٢٤ فضل السوره:

٤٢٤ الإطار العام:

٤٢٤ الاسم:

٤٣١ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١ الى ٦]

٤٣١ اشاره

٤٣١ اللغه

و له الحمد و هو الحكيم الخبير ٤٣٣

هدى من الآيات: ٤٣٣

بينات من الآيات: ٤٣٥

[سوره سبأ (٣٤): الآيات ٧ الى ١٣] ٤٤١

اشاره ٤٤١

اللغه ٤٤١

اعملوا آل داود شكرا ٤٤٤

هدى من الآيات: ٤٤٤

بينات من الآيات: ٤٤٥

[سوره سبأ (٣٤): الآيات ١٤ الى ١٩] ٤٥٤

اشاره ٤٥٤

اللغه ٤٥٤

صورتان لحضارتين ٤٥٦

هدى من الآيات: ٤٥٦

بينات من الآيات: ٤٥٨

[سوره سبأ (٣٤): الآيات ٢٠ الى ٢٧] ٤٦٨

اشاره ٤٦٨

اللغه ٤٦٩

بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤٧٠

هدى من الآيات: ٤٧٠

بينات من الآيات: ٤٧١

[سوره سبأ (٣٤): الآيات ٢٨ الى ٣٣] ٤٨١

اشاره ٤٨١

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٤٨٢

هدى من الآيات: ٤٨٢

بينات من الآيات: ٤٨٤

٤٩١ ----- [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٣٤ الى ٤٢] -----

٤٩١ ----- اشاره -----

٤٩١ ----- اللغة -----

٤٩٣ ----- وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ -----

٤٩٣ ----- هدى من الآيات: -----

٤٩٤ ----- بينات من الآيات: -----

٥٠٥ ----- [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٤٣ الى ٥٤] -----

٥٠٥ ----- اشاره -----

٥٠٦ ----- اللغة -----

٥٠٧ ----- قل جاء الحق -----

٥٠٧ ----- اشاره -----

٥٠٧ ----- هدى من الآيات: -----

٥٠٨ ----- بينات من الآيات: -----

٥١٨ ----- تعريف مركز -----

سرشناسه: مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور: من هدی القرآن / محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر: تهران: دار مجبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری: ج ۱۸

شابک: ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-۱۸؛ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: عربی

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۴م ۱۳۷۷۸

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص: ۱

اشاره

سوره الروم

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

فضل السوره:

فی کتاب ثواب الأعمال للشیخ الصدوق یاسناده إلى أبی عبد الله علیه السلام قال:

«من قرأ سوره العنكبوت و الروم فی شهر رمضان ليله ثلاث و عشرين فهو- و اللّٰه یا أبا محمد-من أهل الجنة لا استثنى فيه أبدا، و لا أخاف أن یكتب اللّٰه علی یمینی إثما، و إنّ لهاتین السورتین من اللّٰه مکانا» تفسیر نور الثقلین/ج(۴)/ص(۱۶۹)

ص: ۵

استوحى اسم السوره من واقعه تاريخيه هامه جرت بين الروم الذين كانوا على هدى المسيح بن مريم عليها السلام ظاهرا، و بين الفرس، فى عصر الرسول صلى الله عليه و آله .

تدور آيات هذه السوره حول عده محاور، أبرزها:

أ-تبصير الإنسان بهيمنه الربّ على السموات و الأرض، و أنّ هناك تقديرا ظاهرا، و قضاء خفيا، و يضرب القرآن مثلا من هذه الحقيقه بغلبه الفرس على الروم فى أدنى الأرض، كيف أنّها جرت ضمن تقديرات الخلقه، إلاّ أنّه ينبئنا بقضاء الله الذى لا يردّ بنصر الله، و هذا وعد إلهى لا يخلف، بيد أنّ أكثر الناس لا يعلمون سوى الظاهر من الحياه الدنيا.

و أعظم ما يجهله أغلب الناس من الحياه: أنّ الله خلقها بالحق و أجل مسمّى،

و لذلك ترى الظالمين قد دمّروا حين خالفوا الحق، و لكن عند ما حان أجلهم، بالرغم من شدة قوّتهم و عظيم عمرانهم.

ب- و يتّصل هذا المحور بالمحور الثانى، ألا و هو مسئوليته الإنسان عن أفعاله دون أن يقدر الشركاء المزعومون على نجاته من جزاء السيئات.

و يطول الحديث حول هذا المحور (١٦/١٢) و (٤٥/٢٨) حيث يبيّن القرآن أنّ المجرمين يلبسون عند قيام الساعة، و أنّ الناس يومئذ يتفرّقون بين صالحين يجزون و كافرين يحضرون فى العذاب.

و يحتجّ الذكر وجدائياً لوحداً لله الربّ و ضروره إخلاص الدين له و تطهيره من دنس الشرك، و يحذّر من الشرك فى السياسة باتباع القاده الذين لم يأمر الله باتّباعهم، و من الشرك فى الاجتماع بالتحزّب و التوسل بغير الله، و من الشرك فى الاقتصاد بالاستثمار بالثروه و عدم إنفاقها فى سبيل الله، و كذلك بالربا الذى لا يربو عند الله.

و يبيّن القرآن أنّ ما يظهر من الفساد فى البر و البحر إنّما هو بما كسبت أيدي الناس، و أنّ الحكمة منه: تحسيس الناس بنتائج بعض أعمالهم السيئه، لعلّهم يرجعون عن غيرهم.

و هذا دليل واضح على المسئوليه، و هناك دليل آخر يتمثّل فى عاقبه المشركين من قبل الذين يأمر الله بالسير فى الأرض للنظر فى نهايتهم.

ج- و لكى يعى البشر مسئوليته أكثر فأكثر، لا- بدّ أن يؤمن بالساعه، حين يبعث للجزاء. و هذا هو المحور الثالث و الأهم فى السوره. و لكن كيف يؤمن البشر بالبعث، و هوى نفسه، و شيطان قلبه يزّين له سوء عمله، و يطوّلان أمله، و يلقيان

فى روعه الشبهات؟ و الجواب: بمعرفه الله. أليس الله بقادر على أن يعيد الإنسان بعد هلاكه؟ بلى. أو ليس حكيمه، و من حكمته أن يجزى الصالحين بالحسنى و الكفار بالنار؟ بلى. إذا فالساعه آتیه لا ريب فيها.

و ليزداد المؤمن معرفه بخالقه، فيزداد إيماناً و تصديقاً بالنشور، و وعياً للساعه، يذكّرنا الربّ بآياته المبثوثه فى الآفاق و المحسوسه فى النفس مساءً و صباحاً و عشياً و عند الظهيره، و التى يتجلّى بها أنّ حقّ التسييح و الحمد لله وحده.

و يهدينا إلى روعه الحياه، و كيف يخرج الحى من الميت و الميت من الحى، و يأمر بالتفكر فى أنفسنا: كيف خلقنا من التراب، ثم جعل لنا أزواجاً نسكن إليها، و يأمرنا بتعلّم آياته فى السماء و الأرض، و فى اختلاف ألسنه الناس، و كيف ننام ليلاً ثم يبعثنا نهاراً لاكتساب المعاش، و يذكّرنا بنعمه الغيث الذى يحيى به الأرض بعد موتها، و يلفت نظرنا إلى عظمه السموات و الأرض.. و يستدل بذلك كلّ على أنّه عزيز حكيم (٢٧/١٧).

و مره أخرى يبيّن لنا نعمه الرياح التى تبشّر ببركات الغيث، كما تحمل الفلك، و توجب الشكر، و يصف لنا سبحانه نزول الغيث بأروح و صف، و يأمرنا بأن ننظر الى آثار رحمته، و كيف يحيى الأرض بعد موتها.. ثم يذكّرنا بأنّه سبحانه على كلّ شىء قدير.

و يبيّن لنا آياته فى أنفسنا: كيف تتقلّب بين ضعف و قوه، ثم ضعف و شيبه، و يذكّرنا- مره أخرى- بأنّه العليم القدير (٥١/٤٤).

و يصوّر لنا بعض مشاهد القيامة حيث يعالج طول الأمل عند الإنسان، و أنّه لا

ينفعه يومئذ عذر ولا هو يستتاب.

و بالإضافة إلى هذه المحاور نجد في السوره حديثا مبنوثا بين أرجائه عن شروط المعرفه، و عن أهميتها، و أنّ في القرآن من كلّ مثل.

كما أنّ السوره فذكرنا بالزمن، و موقف المؤمنين منه، و ضروره الصبر حتى يأتي وعد الله.

ص: ١٠

[سوره الزوم (٣٠): الآيات ١ الى ١٠]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الم (١) غَلَبَتِ الزُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَ عَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَشَاءُوا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ (١٠)

اللغة

٤[بضع]:البضع القطعه من العدد ما بين الثلاثة الى العشره، و هو من بضعته أى قطعته.

٩]و آثاروا]:من الآثار بمعنى التقلب، لأجل الزرع و الإنبات.

١٠]السوآى]:العقوبه المتناهيه فى السوء.

ص:١٢

هدى من الآيات:

تبين آيات هذا الدرس الأول من سورة الروم، العوامل الخفية التي تغرب عن بال كثير من الناس، و يضرب الله سبحانه مثلين على ذلك:

الأول: الهزيمة التي لم تلبث أن تحوّلت إلى انتصار للروم، الذين كانوا يعتبرون أصحاب رساله مقارنه مع الفرس الذين كانوا مجوسا.

و قد كان الكفار-الذين يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا-قد تفاءلوا بانكسار الروم، بيد أنّ الله سبحانه أكد نصر عباده، و هكذا كان حيث فرح المؤمنون بنصر الله.

الثاني: يضرب الله مثلا لأولئك الذين امتلكوا حضاره كانوا أشدّ قوه، و أثاروا الأرض و عمروها أكثر مما عمروها، و كذبوا برساله الله لما جاءتهم.

إنّ الناظر البسيط الساذج سيظن أنّ تلك الحضاره لن تبيد أبدا، و لكن من ينظر

إلى عواقب الأمور، ويستدلّ بالظواهر عمّا وراءها من السنن الخفيّة، فيرى في الحضاره مثلا جرائم التخلف، و الظلم، و البغى، و سحق الكرامات، يعرف أنّها حضاره هالكه فى سنوات تطول أو تقصر حسب حجم الانحراف فيها، الا أن يغيروا ما بأنفسهم.

بينات من الآيات:

(١) الم - كما سبق القول - ربما تكون هذه الحروف المقطّعه إشاره إلى القرآن الحكيم، و تهدينا هنا إلى عظمه كشف القرآن لأسرار الخليقه، و ربما تكون رموزا لا يهتدى إليها سوى أولياء الله.

(٢) غُلِبَتِ الرُّومُ انتصرت الفرس على الروم، و كان المسلمون يأملون انتصار الروم، لأنهم مثلهم أصحاب رساله، بعكس الفرس.

(٣) فى أَدْنَى الْأَرْضِ فى الشرق الأدنى. و قد روى التاريخ أنّ حربا طاحنه دارت رحاها خلال (٢٤) عاما بين الفرس و الروم بين السنين (٦٠٤/٦٢٨) و هاجم القائدان الفارسيان (شهر براز) و (شاهين) الأراضى المستعمره للروم، و احتلت القوات الفارسيه الشامات و مصر و آسيا الصغرى، و كان ذلك حوالى السنه السابعه من بعثه الرسول. (١)

ص: ١٤

و لقد سجّل القرآن أعظم الحوادث التاريخيه، و بيّن عبرها و البصائر التي نستوحىها منها، و هكذا اختصر هنا الإشاره إلى تلك الحادته، ثم أشار إلى نهايه الحرب فقال:

وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ إِنَّهُمْ سَوْفَ يَنْتَصِرُونَ بَعْدَ أَنْ غَلَبُوا وَ انْهَزَمُوا. وَ هَذِهِ نَبُوءَةٌ قَرَأْنِيهِ بِدَأِ اللّهِ بِهَا سُورَةُ الرُّومِ، لَكِي لَا نَنْخُدَّ بِظَاهِرِ الْأُمُورِ، بَلْ نَرَى الْقُوَى الْخَفِيَّةَ الَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَهَا.

فبالرغم ممّا حَقَّقَ الفرس من انتصار، إلّا- أنّ هذا الانتصار كان مقدمه لانتكاستهم، لأنّ هذا الانتصار كان سببا لترهّلهم، و استرخائهم، و كان من أسباب انتكاستهم انتشار الطبقيه المقيته.

و في عام (٦٢٢) قاد الإمبراطور الروماني (هرقل) حملته مضاده، و ألحق هزائم متتاليه بجيش الملك الإيراني (خسرو)، و استمرت حملاته لعام (٦٢٨) حيث صادف العام الخامس أو السادس للهجره، حيث كانت الجزيره العربيه تشهد ولاده حضاره إلهيه، و تتوالى انتصارات المسلمين، و لعلّ أعظمها عسكريًا تمثّلت في هزيمة الأحزاب في حرب الخندق، و اعتراف قريش بقوّه المسلمين في صلح الحديبيه.

(٤) و بعد بضع سنين إذا بالروم ينتصرون على الفرس، و تتحقّق نبوءه القرآن فيهم.

فِي بَضْعِ سِنِينَ وَ هَذَا التَّعْبِيرُ يَدُلُّ عَلَى تَأْثِيرِ عَامِلِ الزَّمَنِ عَلَى جَرِيَانِ سَنَنِ اللّهِ، فبَعْضُ النَّاسِ يَرِيدُونَ أَنْ تَجْرِيَ سَنَنِ اللّهِ بِلَا أَجَلٍ، وَ هَذَا لَا يَكُونُ، لِأَنَّهُ يَتَنَافَى وَ حَكْمَهُ الْإِبْتِلَاءُ،

و قد جاء فى الأثر: أَنَّ الفتره بين دعوه موسى و استجابه الله له كانت أربعين سنه.

فقد روى عن زراره عن أبى جعفر عليه السلام قال:

أملى الله تعالى لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنه ثم أخذه الله نكال الآخره و الأولى، و كان بين أن قال الله عز و جل لموسى و هارون: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا» و بين أن عرّفه الإجابة أربعون (١) ثم يؤكد القرآن أنّ هذه السنه إنّما هى سنّه ظاهره، و أنّ السنّه الخفيه، و الاسم الأعظم بيد الله، الذى يشاء أن ينتصر الفرس أو ينهزموا، أو ينهزم الروم أو ينتصروا، إذا ما غير أى طرف ما بأنفسهم - سلبا أو إيجابا -.

□
لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَعْبِيرٌ عَنْ كَلِمَةِ «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فَإِذَا شَاءَ اللَّهُ سَيَنْتَصِرُ الرُّومَ عَلَى الْفَرَسِ، وَ إِنْ لَمْ يَشَأْ لَا يَنْتَصِرُونَ، قَالَ تَعَالَى: «وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (٢)» كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَهْدِينًا إِلَى سَنَةِ الْحَرَبِ الَّتِي ضَمَّنَهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ لِيَتْلِيَهُ فِي الدُّنْيَا، إِذْ جَعَلَ رَبَّنَا لِنَفْسِهِ الْبَدَاءَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَ لَا يَكُونُ لَأَيِّ شَيْءٍ فَرَضَ حَتْمٌ عَلَيْهِ، إِلَّا مَا حَتَّمَ عَلَى نَفْسِهِ وَ وَعَدَ بِهِ فَلَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ سُبْحَانَهُ.

وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَاذَا يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ؟

ص: ١٤

١- ٢) تفسير نور الثقلين/ج(٢)/ص(٣١٥).

٢- ٣) الكهف/(٢٣).

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فَبِعَزَّتِهِ يَأْخُذُ الْكَافِرِينَ، وَبِرَحْمَتِهِ يَفْتَحُ لِلْمُؤْمِنِينَ.

(٦) لا شيء يحدّد أو يعجز إرادته الربّ العزيز المقتدر، وكل شيء مستجيب طوعاً أو كرها لمشيئته التي لا ترد، ولكن ذلك لا يعنى أنّه سبحانه يريد شيئاً بلا حكمه أو يخلف وعداً أو ينقض عهداً، كلا.. لقد وعد عباده الصالحين النصر، وهو لا يخلف وعده أبداً.

وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّمَا يَخْلِفُ الْعَاجِزُ أَوْ الْجَاهِلُ، وَ رَبَّنَا عَزِيزٌ عَلِيمٌ.

وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ فَتَرَاهُمْ يَرْكَنُونَ إِلَى الظَّالِمِينَ خَشِيَهُ بِطَشِهِمْ، وَ لَا يَأْوُونَ إِلَى رُكْنِ الْحَقِّ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ بِنَصْرِهِ.

(٧) أكثر الناس لا يعلمون طبيعة الدنيا، لأنهم:

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ فَهَمْ غَافِلُونَ عَنِ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَ إِنَّمَا يَرَوْنَ ظَاهِرَ الْأُمُورِ، وَ مِنَ الْعَوَاقِبِ الَّتِي يَغْفَلُونَ عَنْهَا النَّشُورُ.

إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ غَيْبُ الدُّنْيَا، وَ الدُّنْيَا مَنْطُويَةٌ عَلَيْهَا، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الظَّاهِرِ الْمَشْهُودِ دُونَ ذَلِكَ الْغَيْبِ. إِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى سُلْطَةِ الْجَبَابِرَةِ وَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ (الَّتِي يَسْمُونَهَا بَلْغَتَهُمُ الْمَادِيَةَ قَانُونَ الطَّبِيعَةِ) تَقْتَضِي زَوَالَ

الظلم، لأنه باطل، ولأنّ المظلوم يثور ضده. ولأنّ صراع الظالمين كفيل بالقضاء عليهم و..و.

و إنّ سنن الله تجرى و لكن عبر مسيره الزمن، فكما أنّ من يزرع القمح سوف يحصده بعد مده، كذلك من يزرع الظلم سوف يحصد الانقلاب، و لكن بعد مده أيضا.

و هذه هي حقيقه الجزاء التي تتجلى جزئيا في عواقب الأمور في الدنيا، بينما تتجلى في الآخرة بصورة تامه، حيث يجرى المرء على أعماله هنا لك الجزاء الأوفى.

و لعلّ كلمه الآخرة هنا تدلّ على عاقبه الأمر سواء قبل الموت أو بعده، حيث فسرها البعض بالعاقبه في الدنيا، بينما الكلمه تطلق عادة على ما بعد الموت، و إنّما نستوحى من الكلمه هذا المعنى الشامل لأنّ الدنيا و الآخرة في منطق القرآن - حسبما يبدو لى - لا تنفصلان، إنّما هما حقيقه واحده تنكشف لذوى الأبصار في الدنيا، و لا تنكشف لغيرهم إلا بعد الموت.

(٨) أو لا ينظرون إلى أنّ تركيبه الحياه قائمه على أساس الحق، و الأجل؟ فالزمن جزء من الكون، لأنّ الكون متغير، و التغير جزء من الكون، و الزمن جزء من التغير.

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالْأَجَلِ الْمُسَمًّى يَدُلُّ عَلَى:

أولا: أنّ الله إنّما خلق الكون بحكمه و لهدف محدد سلفا، و كذلك الإنسان

فما هو الهدف من خلقه الإنسان؟ الهدف ليس إلا البعث بعد الموت.

ثانيا: هذه الآيه تدلّ على أنّ الكون ينتهى لأنه لأجل مسمى.

و جاء فى الحديث القدسى:

«يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك» إنّ النظره الجامده إلى الخليقه مسئوله عن أخطاء منهجيّه عديده، و من لم يحسب للزمن حسابه فإنّه ليس فقط لا ينجح فى حياته، و يأوى إلى ظلّ الكسل و الترهّل، بل و أيضا لا يعى حقيقه الدنيا التى جعل الأجل جزء هامًا فيها.

من جهه ثانيه: إنّ الحق الذى يعنى جملة السنن الإلهيه أساس الخليقه، فما من شىء إلا و تحيط به أنظمه إلهيه تحدّد مسيرته.

و إذا تعمق الإنسان فى هاتين الحقيقتين الحق و الأجل اهتدى إلى الإيمان بالبعث و النشور، لأنه يعرف أنّ الأساس الذى خلق عليه الخلق هو ذاته الأساس الذى خلق به الإنسان.

وَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ لَكَافِرُونَ (٩) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ لِيَنْظُرُوا بِأَعْيُنِهِمْ تَجْسِيدَ تِلْكَ الْحَقَائِقِ الَّتِي سَبَقَتْ.

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا

فلا يخذع البشر بما صنعه، من أسلحه تدميريّه، و من إثارته للأرض و استخراج خيراتها، و استنبات و تحسين نوعيّه المزروعات، و لا يخذع بما عمّر من ناطحات السحب و المحطّات و..و..

يجب أن نفكر حقًا في العاقبه، بالرغم من أننا نراهم أشدّ قوّه، و إثاره للأرض، و عماره لها.

وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ لَقَدْ أَكْمَلُ اللَّهُ لَهُمُ الْحُجَّةَ، فَأَرْسَلَ الرَّسُلَ يَنْذِرُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ عَذَابِهِ، فَلَمَّا كَذَّبُوا بِرُسُلِهِ: فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ حِينَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُ الْوَبِيلَ.

وَ لَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسِيَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٠) بعد ذلك يذكّرنا الربّ بأحد سننه و تقاديره في الحياه و التي قد لا يراها البعض، و هي: إنّ عاقبه الذين أساؤا ستكون السوأى، بأن يكذبوا بآيات الله، و من ثمّ الاستهزاء بها، و هذه الآيه- في الواقع- تهزّ الإنسان من الأعماق، ذلك أنّ الشيطان حين يخذع البشر يهوّن عليه السيئات إلى أن يستدرجه من الذنب الصغير إلى أكبر منه، حتى تغطّي الذنوب كلّ أعماله، و من ثمّ يأتي إلى عقيدته و يسلبها منه، و يتركه في جهنّم، و إنّ السيئات تشبه منحدرًا، كلما هوى أكثر كلما ازدادت جاذبيه الأرض و ضعفت مقاومته.

و لكنّ السؤال: كيف يصل البشر إلى هذه المرحله من الضلال، فيكذب بآيات

اللّٰه و يستهزأ بها؟ و الجواب: إنّ للإنسان فى داخله قوه تبريره، تبرّر لضميره فعل السيئات، فقد يرى-مثلا-يتيما يمسك قطعه خبز يأكلها، فيسلبها منه، و يأخذها عنوه، ثم يشعر بوخز الضمير، و عتاب الوجدان، فيعمل على تبرير عمله، بمجموعه من الأعذار المعلّبه، فيقول مثلا: أولا: أنا جائع و اليتيم ليس بجائع، ثانيا: الناس يعطون اليتيم و لا- يعطوننى، و من الذى يقول بأن اليتيم ليس بسارق للخبزه، و إلا لما أكلها بعيدا عن الأنظار؟! و أخيرا: من الذى يدعى بوجود العطف على اليتيم؟! و شيئا فشيئا تتبدل قيم هذا الإنسان حتى يصدّق قناعاته الجديده، فهذا الذى عمل الذنب بدافع الغريزه-الجنس، الجوع، الخوف....-يفعل الذنب بعدئذ بدافع التعوّد على الذنب نفسه، فيصبح مجرما محترفا.

و هكذا كان نمرود و فرعون و سائر المستكبرين، فهم لم يدعوا الالوهيه من أول يوم، بل استدرجهم الشيطان حتى أنساهم ذكر اللّٰه، و أصبحوا كذلك يكذبون بآياته، و يستهزءون بها.. من هنا يجب على الإنسان أن يحسب حساب الخطوه الأخيره حينما يقرر اتباع الشيطان فى الخطوه الأولى، يقول اللّٰه تعالى:

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ السُّوأى: مؤنث الأسوء، أى كانت عاقبتهم أسوء عاقبه.

و نعوذ باللّٰه فهذا البشر الضعيف الحقير المستكين المحتاج ليس فقط يكذب بآيات اللّٰه، بل و يستهزأ بها.

اشاره

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضِهِ يُحِبُّونَ (١٥) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسَبِّحْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)

اللغه

١٢ يُبْلِسُ: الإِبلاس الياس من الخير، وقيل: هو التحير عند لزوم الحججه.

هدى من الآيات:

المجرمون لا- يعرفون الحقيقة إذ تحتجب عنهم فلا- يرونها، أو لا- يرونها بوضوح كاف، لأن قدره الإنسان التسويئته-حسب تعبير القرآن-تظلّ تزين له أفعاله السيئه حتى تسلب عقله و لا- يكتشف الحقيقة إلاّ بعد فوات الأوان، و عند ما يموتون أو ينزل بهم عذاب حينها يستيقظون من غفلتهم، و يعرفون أنه كان بإمكانهم أن يصبحوا من أهل الجنة فصاروا من أهل النار.

و فى ذلك اليوم يتفرّقون، و يتميّز المؤمنون عن المجرمين، أمّا المؤمنون فهم فى روضات يحبرون، بينما يلقى المجرمون فى النار، و نتساءل: كيف يمكن للإنسان الخروج من دائره الجريمه التى يرتكبها، إما بسبب ضغط شهواته و أهوائه، أو بضغط الآخرين كالمجتمع و الطاغوت، و يتخلّص من الآثار التى تتحوّل بمرور الوقت إلى حجاب غليظ يحجبه عن الحقيقة.

الجواب نجده فى

الحديث المروى عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال و هو يوصى

أصحابه بالصلاه:

«أرأيتم إلى الحمّه تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم و الليله خمس مرّات،فما عسى أن يبقى عليه من الدرّن؟!»
(١)فالصلاه تغسل ذنوب البشر،و لهذا السبب يذكّرنا ربّنا سبحانه في آخر هذا الدرس بأوقات الصلاه.

بينات من الآيات:

(١١)لكى لا يسترسل الإنسان في ارتكاب السيئات فتنتهى به إلى العاقبه السوءى يذكّره الربّ سبحانه بالساعه،حين يقدم الناس للحساب بين يدى الله العليم القدير.

و بإيجاز بليغ يبيّن السياق الحجّج على الساعه:أو ليس الله قد بدأ الخلق؟فهو إذا يعيده كما بدأه،و هنا لك يرجع الناس اليه للحساب.

□
اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أَى يعيد الخلق بعد الفناء.

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يعنى حين تعودون فإنكم تعودون إليه.

و يحتمل أن يكون معنى «ثم يعيده»أى يطويه بالفناء،كما نشره بالخلق، ثم اليه يرجعون بالخلق من جديد.

ص: ٢٤

(١٢) وحين الرجوع إلى الله ماذا سيكون مصير المجرمين؟ في ذلك اليوم يلوذ المجرمون-الذين طالما برّروا بألسنتهم الحادّة جرائمهم- إلى الصمت البائس، لأنّ الحزن الناشئ من اليأس قد أحاط بقلوبهم.

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ جاء في القاموس: أنّ المبلس من لا خير عنده أو عنده بلاس، و في مفردات الراغب: الإبلاس الحزن المعترض من شدّة اليأس، و لمّا كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت، و ينسى ما يعنيه، قيل: أبلس فلان إذا سكت، و إذا انقطعت حجّته.

و ربما السبب في سكوت المجرمين الناشئ من حزنهم و يأسهم هو: إنّ الله لا يترك لأحد حجّته يوم القيامة، و قد بينت الأحاديث التاليه جانبنا من احتجاج الربّ لعباده يوم القيامة، مما يفحم المجرمين و المذنبين.

-١

عن المفيد، عن ابن قولمبه، عن محمد الحميري، عن أبيه، عن هارون، عن ابن زياد قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام - و قد سئل عن قوله تعالى: «فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ» - فقال:

«إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة، عدي أ كنت عالما؟ فإن قال: نعم، قال له: أ فلا عملت بما عملت؟ و إن قال: كنت جاهلا، قال له: أ فلا تعلمت حتى تعمل؟ فيخضم، فتلك الحجّه لله عز و جل على خلقه» ٢-

و روى معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (١)

إنّ الرجل منكم ليكون في المحلّه فيحتج الله يوم القيامة على جيرانه فيقال لهم: ألم يكن فلان بينكم؟ ألم تسمعوا كلامه؟ ألم تسمعوا بكاءه في الليل؟

ص: ٢٥

و روى عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«يؤتى بالمرأه الحسناء يوم القيامة التي قد افتنتت في حسننها فتقول: يا ربِّ حَسِنْتَ خلقي حتى لقيت ما لقيت، فيجاء بمريم عليها السلام فيقال: أنت أحسن أو هذه؟ قد حَسِنَّاها فلم تفتتن، و يجاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه، فيقول: يا ربِّ حسنت خلقي حتى لقيت من النساء ما لقيت، فيجاء بيوسف عليه السلام فيقال: أنت أحسن أو هذا؟ قد حَسِنَّاه فلم يفتتن، و يجاء بصاحب البلاء الذي قد أصابته الفتنة في بلائه فيقول: يا ربِّ شددت عليّ البلاء حتى افتنتت، فيجاء بأيوب عليه السلام فيقال: أ بلتتكَ أشد أو بليه هذا؟ فقد ابتلى فلم يفتتن « ٤(١٣) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ يَشْفَعُونَ لَهُمْ حَيْثُ تَسْقُطُ آئِذُ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ بِأَنَّ الشُّرَكَاءَ سَيُشْفَعُونَ لَهُمْ.

و الشريك هو الذي يظن البشر أنه كما الله قادر عليم و غير ذلك، بيد أنه عند ما يشرك الإنسان بالله فمن الطبيعي أن يتشبَّث بالشركاء، لأنه لا- يترك ربه الا- بضغط من الشركاء، سواء كان الطاغوت أم الهوى أم المجتمع، و عموماً كل من يستمدّ منهم الإنسان التشريعات، فيحلّون له و يحرمون بغير هدى من الله.

و لكن ماذا عسى أن ينفعه الشركاء؟! في ذلك اليوم الرهيب لا- يقف أحد من الشركاء إلى جانب المجرمين للدفاع عنهم و الشفاعة لهم.

ص: ٢٦

و الواقع: إن فطره الإنسان تهديده إلى أنه ضعيف عاجز و بحاجة إلى من يركن إليه، و الشيطان يضلّه عن ربّه، و يغويه إلى الشركاء، و يزعم له أنّهم هم الركن الذى يمكنه الاعتماد عليهم، فيحجبه بذلك عن ربّه، و إذا سقط الشركاء عن عينه، و عرف أنّهم لا يضرّون و لا ينفعون سقط عنها حجاب كثيف كان يمنعه عن رؤيه الحقّ و معرفه الربّ.

و فى يوم القيامة يتبيّن للمشركين مدى ضلاله الاعتماد على الشركاء، حيث لا يشفعون لهم و لا ينصرون.

و ليس فقط لا- ينفعونهم، بل و يتبرّءون منهم، و آنئذ فقط يعرفون أنّ ضغط الهوى و المجتمع و الطاغوت لم يكن حقيقه بل و هما.

وَ كَانُوا بِشُرْكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٤) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ فَرِيقَانِ، بَعكس مَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُخْتَلِفِينَ.

(١٥) فريق فى الجنة:

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ الروضه: هى المكان الذى تكثر خضرته و طيبه.

و يحبرون: (من أصل حبر) بمعنى نضره النعيم فى وجوههم. أو ليس تغمرهم حاله الرضا، و تحيط بهم ألوان النعم، فتنعكس على وجوههم انبساطا و بشرا؟! و قد أوّلت الكلمه هذه بأمرين:

ص: ٢٧

الأول:الإكرام، كما جاء فى تفسير على بن إبراهيم.

الثانى:التلذذ بالسمع، كما

روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه و عند رجليه تثنان من الحور العين تغنيان بأحسن صوت سمعه الإنس و الجن، و ليس بمزمار الشيطان، و لكن بتمجيد الله و تقديسه» (١)

و عن أبى الدرداء قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يذكر الناس، فذكر الجنة و ما فيها من الأزواج و النعيم، و فى القوم أعرابى فجثا لركبته و قال: يا رسول الله هل فى الجنة من سماع؟ فقال صلى الله عليه وآله :

«نعم يا أعرابى، إن فى الجنة نهرا حافتاه الأبقار من كل بيضاء يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط، فذلك أفضل نعم الجنة» (٢) و الغناء إشباع لحاجه الإنسان الروحيه، فبالإضافه إلى النعم الماديه التى يتمتع بها المؤمنون فى الجنة كالأكل و الشرب، هناك نعمه معنويه و هى إشباع القلب ذكرا لله و معرفه به و حيا له، و بالرغم من أن الصوت الحسن ليس كل اللذه الروحيه، إلا أنه لو كان يحمل للإنسان فكرا و علما، و تذكيرا بالله، و هدى يبلىور القيم الحق، آتئذ يكون لذه جسميه و معنويه فى نفس الوقت، و لذلك

جاء فى الحديث السابق:

أن السماع أفضل نعم الجنة حين تمجد الحور الله و تقدسنه.

و هكذا كانت أعظم لذات المؤمن فى الدنيا الصلاه و مناجاه الله سبحانه،

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله :

ص: ٢٨

١-٥) تفسير نور الثقلين/ج(٤)/ص(١٧١).

٢-٦) المصدر.

«حَبِّبِ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءَ وَ الطَّيِّبَ، وَ قَرِّهِ عَيْنِي الصَّلَاةَ» (١)

و كان يقول صلى الله عليه و آله لبلال حين يحين وقت الصلاة:

«أرحنا بالصلاة يا بلال»

و فى مناجات العارفين للإمام السَّجَّاد عليه السلام يقول:

«إلهى فاجعلنا من الذين ترسيخت أشجار الشوق إليك فى حدائق صدورهم، و أخذت لوعه محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، و فى رياض القرب و المكاشفه يرتعون، و من حياض المحبته بكأس الملاطفه يكرعون، و شرايع المصافات يردون، قد كشف الغطاء عن أبصارهم، و انجلت ظلمه الريب عن عقائدهم، و انتفت مخالجه الشك عن قلوبهم و سرائرهم، و انشروحت بتحقيق المعرفة صدورهم، و علت لسبق السعادة فى الزهاده همهم، و عذب فى معين المعامله شربهم، و طاب فى مجلس الأانس سرهم» (٢)(١٦) هذا عن حال المؤمنين فى الجنه، فما هو حال الذين كفروا؟! وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرُونَ فإلْمُؤْمِنُونَ يذهبون سراعاً إلى الجنه، أما الكافرون فإنهم يساقون إلى النار سواقاً، و لأنَّ الجنه تزلف إلى أهلها فهى أمامهم، بينما تقرب النار إلى الكافرين، و يساقون إليها فى سلسله ذرعها سبعون ذراعاً.

ص: ٢٩

١-٧) الخصال/الشيخ الصدوق/ص(١٦٥).

٢-٨) الصحيفه السجديه المناجاه الثانيه عشر.

و لعل الآيه تعالج مرضاً روحياً، و تبريراً طالما يأوى إليه الجاحدون، ألا و هو تكذيب لقاء الله، حيث يزعم الكفار أنه بمجرد تكذيب الساعه تسقط عنهم المسؤوليه، بينما القرآن يؤكد أن هذا التكذيب بذاته جريمه يعاقب عليها الجاحدون، فلم يوضع الحساب فقط لمن آمن بالساعه، بل و أيضاً لمن كذب بها، حيث أنه ينال جزاء تكذبه كما ينال جزاء جرائمه.

□
(١٧) فَسُبْحَانَ اللَّهِ إِنْ أُرِدْتَ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، لَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَسَبِّحِ اللَّهَ وَ اِحْمَدِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَ أَطْرَافِ النَّهَارِ.

حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ حِينَ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَ حِينَ طُلُوعِهَا.

(١٨) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ نَحْمَدُهُ لِمَا نَرَى مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ.

وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ عَشِيًّا عِنْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَ عِنْدَ الزَّوَالِ وَ قَتَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَ هَذِهِ مَوَاقِيتُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ الَّتِي ذَكَرَتْ جَمِيعًا إِلَّا صَلَاةَ الْعِشَاءِ لِقُرْبِهَا إِلَى مِيعَادِ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ.

بلى. حين يتنفس الصباح أو تودع آخر أشعه الشمس الروابي، و عند ما ينتصف النهار و في وقت العشي، تحدث تطورات على الطبيعه، و في نفس البشر،

تقتضى تسييح الرب، لكي يطمئن الإنسان إلى خالقه الذي جلّ عن التغيّر، والذي يهيمن على اختلاف الزمن.

إنّ تسييح الله وحمده طرفى الليل ووسط النهار يمنع النفس من تقديس الطبيعة التي تعكس في هذه الحالات هيبتها عليها، و من الناس من يعبر عن ذلك بالسجود للشمس والقمر، وتقديس الأشجار والأحجار..و إنّ تسييح الله وحمده يتسع مع آفاق الخليقه حتى يشمل السموات والأرض، فلا ينظر العارف بربه إلى شيء إلاّ - ويتجلّى له الربّ بجلاله وجماله فيتوهّج فؤاده تقديسا وحمدا.

وقد عبرت الآيات هنا عن اتساع تسييح الله وحمده عبر آتات الزمان و آفاق المكان ببيان رائع وإيجاز بليغ فقال: فسبحان الله، و قال: و له الحمد. هكذا بصفه عامه دون أن يذكر ذاكر التسييح وقائل الحمد، لأن كل شيء يسبح له و يحمده، و تسييح الله و حمده هو مقتضى تحوّل الحالات بتدبير حكيم، ذلك أنّ انتقال الوقت من المساء إلى النهار و من النهار إلى المساء يعنى وجود نقصا في الطبيعة، فالطبيعه ليست ثابتة، و إنّما هي متغيّره، فنستدلّ بهذا النقص على أنّ ربّها و مقدرها ليس بناقص، و لأنّ لكل متحرك ثابتا يحركه، لذلك كل ما نرى في الطبيعه من نقص نسبح الله، فالنقص في الطبيعه أمر حق، و قد كان القدماء يستدلّون على الله بأنّ العالم متغيّر، و كل متغيّر حادث، و كل حادث يحتاج إلى محدث، و المحدث هو الله. و جوهر هذا الاستدلال صحيح. فالطبيعه أعجز من أن تخلق نفسها، أو تديرها، فلا بد لها من خالق مدبّر، و هكذا استدلّ إبراهيم عليه السلام لما رأى أقول كلّ من الشمس و القمر و الكوكب.

و نستوحى من الآيه أنّ مواعيد الصلاه مرتبطه بتغيّرات الطبيعه لا بحسب الساعات، كالساعه العاشره مثلا، لأنّ الساعه العاشره ليست حدثا في الكون،

و لكنَّ الأوقات التي رسمها الله للصلوات مرتبطة بالظواهر الطبيعيه التي تنعكس على النفس، و تحتاج إلى رؤيه سليمه للتعامل معها.

و كلمه أخيره: إنَّ لهذه الآيات فضلا كبيرا لما فيها من التسبيح و الحمد لله، و لذلك

جاء في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال:

«من قال -حين يمسي- ثلاث مرات: فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ» لم يفته خير يكون في تلك الليله، و صرف عنه جميع شرّها، و من قال ذلك حين يصبح لم يفته خير يكون ذلك اليوم و صرف عنه جميع شره (1).

ص: ٣٢

١- ٩) نور الثقلين / ج (٤) / ص (١٧٢).

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاخْتِلافُ اَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّغَاتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)

هدى من الآيات:

ذكرنا السياق بآيات الحمد و التقديس التي ترتسم على محيا الخليقه مساء و صباحا، و أنى قلبت وجهك فى السموات و الأرض بصرت تسبيحا لله و سمعت حمدا. و تأتي آيات هذا الدرس تبيانا لتلك الحقيقه من خلال واقع الإنسان نفسه، حيث يخرج الله الحى من الميت و الميت من الحى، و نرى من حولنا تقلب الأشياء بين الحياه و الموت، لنهتدى إلى قدره الرب الواسعه، و نؤمن بيوم البعث.

و حياه الإنسان ابتدأت بخلقه من التراب، و انتشاره-ياذن الله-فى الأرض، و أعظم ما حفظ الله به نسل البشر الزواج حيث خلق الزوجين و جعل بينهما موده و رحمه، و من أبرز سنن الحكمة التي نظم بها حياه البشر فوق هذا الكوكب اختلاف السنه الناس و ألوانهم (حسب الحاجات المتباينه و التي تتكامل فى وحده منسقه) ليتعارفوا، و من أهم النظم الحياتيه التي أجراها الرب لحفظ البشر المنام بالليل و النشاط من أجل الرزق (فسكون الليل يمهد لحركه النهار، و الله يبارك

فيها للبشر)، و من أعظم نعم الله على البشر التي حفظ بها حياته على البسيطة نعمه الماء الذي ينزله من السماء، فيحيى به الأرض.. أو ليس كل ذلك آيات تهادينا إلى أسماء ربنا الحسنى و إلى قدرته و رحمته و حسن تديره؟ بلى. و لكننا بحاجة إلى التفكر و العلم و السماع و العقل حتى نهتدى بهذه الآيات إلى معرفة الرب و صفاته.

بيانات من الآيات:

(١٩) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ آية الحياه أعظم آية يتعرف عليها الإنسان، حيث أنّ الحياه تنبعث من الأشياء الميتة، و ربما تشير الآيه الكريمه إلى حقيقه مهمه يغفل عنها الإنسان عادة: فالحياه موجوده سواء فى النطفه، أو فى الحبه الصغيره، و لكنّها من مجموعه أشياء ميته تنبعث و تتكامل، فالأرض ميته، و الاوكسجين ميته، و المواد الكيمائيه ميته، بل و الغذاء من الأرض بالنسبه للنبته أو من مجموع عدّه أشياء بالنسبه للحى ميته أيضا.

كلّ هذه الأشياء الميتة تحيط بالنواه الحيه داخل حبه الحنطه-مثلا-فتخرج منها نبتة كبيره حيّه، فربنا سبحانه يخرج هذا الحى من الميت، و العكس صحيح، فعند ما يموت الإنسان الحى هل تنتهى حياته؟ كلاً.. بل تبقى، و لكن تنفصل الحياه عن الأجزاء الميتة التى كانت حيّه بحياته، و تبقى تلك النطفه الحيه، و نستطيع أن نشبه تمدد الحياه فى الأشياء الميتة و العكس بمصباح كهربائى تضيؤه فى غرفه حيث إنّنا نجد أنّ الأشياء فى الغرفه قد أضيئت بالمصباح، و لا يعنى أنّ الضوء قد انتهى لو وضعنا ذات المصباح فى صندوق. إنّ الأشياء فى الغرفه لمّا أضىء المصباح أصبحت اضاءتها غيريه، لا ذاتيه، أى إنّ الأشياء لم تتحوّل إلى ماده النور..، و هكذا تمدد الحياه فى الجمادات.

و الإنسان كان نطفه حيّه فى أصلاب آباءه جمعت حولها الأجزاء الميتة بإرادته

اللّه، حتى صار إنساناً سوياً، فأخرجه الله من الميت، ثم يعود كما كان عند ما يموت، فتبقى الحياه في القبر و لكن في حاله هجعه، ثم تنمو مره أخرى في يوم القيامة، و يعود كما كان خلقا آخر، فيكون المعنى كالتالى: يخرج الله الحى من الأشياء الميتة، و يخرج الميت من الحى حين تتحلل الأشياء الميتة-أصلا-عن الحى، و تبقى نطفته الأساس.

و كما يحيى الله الأرض بالمطر، كذلك يحيى الإنسان فى الآخرة فيقول سبحانه: «[□] وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لَبَاتًا [□]» (١)

و فى الروايات عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال:

«إذا أراد الله عز و جل أن يبعث الخلق أمطر السماء أربعين صباحا، فاجتمعت الأوصال و نبتت اللحوم ^(٢) و هناك تفسير آخر للآيه يقول: إن الله يخرج الحياه من الأشياء الميتة كما خلق الإنسان من التراب، و يخرج الشىء الميت من الحى كما يميت الإنسان.

و لكن يبدو لى أن التعبير القرآنى لا يتناسب و هذا التفسير، كما أنه لا يتناسب و معلوماتنا الحديثه عن الحياه و الموت.

ثم قال ربنا:

و يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا [□] إِنَّ مَنظَرَ الْحَيَاةِ تَدَبُّ فِي الْأَرْضِ الْمَوَاتِ يَبْعَثُ الْبَهْجَةَ فِي الْقَلْبِ، و يهدينا إلى

ص: ٣٦

١-١ (١) نوح/ (١٧).

٢-٢ (٢) بحار الأنوار/ ج (٧) / ص (٣٣).

جلال خالقنا العظيم، كما يهدينا إلى قدرته الواسعه التى يخرج بها الناس من قبورهم كما يخرج الخبأ من رحم الأرض.

وَ كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ وَإِنَّ لِلَّيَالِيهِ تَأْوِيلًا بَيْنْتَهُ

الروايه المأثوره عن الإمام الكاظم عليه السلام قال:

«ليس يحيها بالقطر، ولكن يبعث الله رجالا فيحيون بالعدل، فتحيى الأرض لإحياء العدل، ولإقامه العدل فيه أنفع فى الأرض من القطر أربعين صباحا» (١) كلما أمعن النظر البصير فى تقلب الأشياء بين الموت و الحياه كلما ازداد معرفه بقدره ربه، و انه يبعث الناس بعد الموت.

(٢٠) و من آياته سبحانه خلق الإنسان من التراب فى عالم الدر، ثم أودعه فى أصلاب الرجال و أرحام النساء.

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ قَالَ الْعَلَامَةُ الطبرسى فى قوله: خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ أى خلق آدم الذى هو أبوكم و أصلكم مِنْ تُرَابٍ ثم خلقكم منه و ذلك قوله: ثم إذا أنتم تنتشرون (٢) و لكن يبدو أن التفسير المناسب و أحاديث المعصومين هو ان الله خلقنا جميعا ذرا من التراب، ثم أودعنا صلب أبينا آدم عليه السلام ثم نشرنا بقدرته.

(٢١) و من آياته سبحانه الحاجه إلى الجنس الآخر، تلك الحاجه التى تتجاوز

ص: ٣٧

١-٣ نور الثقلين /ج(٤) /ص(١٧٣).

٢-٤ تفسير مجمع البيان /ج(٨) /ص(٢٩٩).

الجسد لتتصل بالروح، وتنتهى حاله التوتّر لدى الطرفين بالزواج.

إنّ حاله التوتّر الموجوده لدى الطرفين تدلّ على أنّ خلق الإنسان لم يكن عضويًا، فالله عزّ وجلّ جعل نظام الكون قائمًا على أساس الزوجيّة فى كلّ شىء قال تعالى: **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ (١)** وهو سبحانه الذى خلق الزوجين الذكر و الأنثى.

و لم لم يكن الإنسان ليجوع لما شعر بلذّه الطعام، كذلك لو لم يتوتّر لما شعر بلذّه الزواج، وهذا دليل التقدير فى الحياه.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ اسْتِمْرَارَ حَيَاةِ نَوْعِ الْبَشَرِ عِبْرَ التَّقَاءِ الذَّكَرِ بِالْأُنْثَى، و لكن هذا الالتقاء لا يتمّ قسرا، إنّما يتمّ برغبه الطرفين، فيبحث الرجل عن أنثاه، و قد يلقي بنفسه إلى التهلكه حتى يجدها، و لو لا هذه الرغبه الجامحه للزواج لتخلّى عن الزواج رأسا، لما فيه من مسؤوليات كبيره، و لكنّ الله الذى جعل خلقه الإنسان عن طريق الزواج هو الذى جعل فيه حاجه نفسه لا تتحقق إلّا به فقال:

وَجَعَلْ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً الزَّوْجَانِ اللَّذَانِ لَمْ يَعْرِفَا بَعْضُهُمَا حَتَّى لَحِظَهُ الزَّوْاجُ يَنْدَمِجَانِ مَعًا، وَ كَأَنَّهُمَا رُوحٌ وَاحِدَةٌ تَقَمَّصَتْ بَدَنَيْنِ.

إنّ الصله التى يمتنّ ربنا أصرتها بين الزوجين و من خلالهما بين سائر أبناء المجتمع تتجاوز المودّه الماديّه القائمه على أساس المصالح المشتركه و الخدمات المتبادلّه

ص: ٣٨

لتصبح صلّه روحيه يفكر كل طرف فى مدى عطائه قبل أن يبحث عمّا يأخذه، و قد يضحي بنفسه من أجل المحافظه على قرينه أو قريبه.

و بتعبير آخر: ينطلق التقاء الزوجين من أرض الشهوه الجنسيه، و الحاجه إلى إشباع الحاجات الماديه المختلفه، و لكنه لا يقف عند هذا الحد، بل يمضى قدما حتى يصبح حبا عميقا، يقوم على أساس الإيثار و العطاء، و يصل إلى حدّ الفداء و التضحيه.

و هكذا تكون العلاقه فى البدايه «الموده»، و لكنها لا تلبث حتى تصبح «رحمه».

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و هدف التفكر هو إثارة المعلومات الظاهره و تقلبيها على بعضها للحصول على معلومات جديده، و حين يتفكر الإنسان فى ظواهر الحياه المحيطه به و التى قد يستخف بها لأنها أصبحت جدّا واضحه، فإنّه يبلغ غور المعرفه و يفهم حكمه الحياه.

(٢٢) و من آياته سبحانه خلق السموات و الأرض، و اختلاف ألوان الناس و ألسنتهم ذلك الاختلاف الواسع.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ يبدو أنّ هناك علاقه بين خلق السموات و الأرض، و بين اختلاف اللون و اللسان، و ربما تكون هذه العلاقه موجوده، ففى المناطق الإستوائيه لون البشره سمراء، و تقلّ السمرة كلما ابتعدنا عن خط الإستواء، حتى تتحوّل الألوان من

الأسمر حتى الأبيض فالأصفر، وهذا الاختلاف يسهل التعارف الذي هو أساس تنظيم الحياه البشريه. والحديث التالي يبين كيف أن طبائع الأرض ذات أثر في اختلاف البشر، وما هي حكمه هذا الاختلاف:

يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله بن يزيد بن سلام فيقول: فأخبرني عن آدم لم سمى آدم؟ قال:

«لأنه من طين الأرض و أديمها» قال: فآدم خلق من الطين كله أو من طين واحد؟ قال:

«بل من الطين كله، ولو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضا، و كانوا على صورته واحده» قال: فلهم في الدنيا مثل؟ قال:

«التراب فيه أبيض و فيه أخضر و فيه أشقر و فيه أغبر و فيه أحمر و فيه أزرق و فيه عذب و فيه ملح و فيه خشن و فيه لين و فيه أصهب، فلذلك صار الناس فيهم لين و فيهم خشن و فيهم أبيض و فيهم أصفر و أحمر و أصهب و أسود على ألوان التراب»
[\(١\)](#) أما اختلاف اللسان فهو خاضع للظروف و البيئه المحيطة بالإنسان.

و هذا الاختلاف دليل الحكمة، ذلك لأن كل نوع يتناسب و محيطه، كما لو رأينا اختلاف أجهزه الطياره و مختلف أجزاءها، و عرفنا كيف أن كل جهاز يقوم بدور و هو مناسب لدوره و لو بدلنا جهازا أو جزء من جهاز يجهاز آخر أو جزء ثان لما تكاملت الطياره و نهتدى من وراء ذلك إلى كلمه صانع الطياره.

ص: ٤٠

(٢٣) و من آياته-عز و جلّ-مناكم بالليل و النهار، و حسبما أعلم لم يتوصّل العلماء حتى الآن إلى سرّ النوم، و كيف ينام، و لماذا عند ما يتعب الإنسان تتراخى أعضاؤه و ينام، و يكون مثله مثل الميت؟ و من آياته **مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ** فالإنسان ينام ليلاً، و قد ينام نهاراً في القيلولة، و قد أكّدت بعض الروايات على استحباب نوم النهار إذ أنه يساعد على قيام الليل، و قد جاءت بعض الروايات لتوضح حقيقته النوم.

-١

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«النوم راحة من ألم، و ملائمه الموت» (١) ٢-

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«ان النوم سلطان الدماغ، و هو قوام الجسد و قوته» (٢) **وَ ابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ نَهَارًا**.

ما الذي يدفعك إلى الحصول على الرزق، و بينك و بينه الكثير من العقبات، إنك تصل إلى رزقك عبر حاجه غريزيه و لو لا تلك الحاجه الملحّه، و لو لا قدرات الإنسان العقلية و الجسديه التي تمكّنه من تحصيل رزقه بتسخير ما في الأرض، لما

ص: ٤١

١-٧) غرر الحكم.

٢-٨) بحار الأنوار/ج(٦٢)/ص(٣١٤).

بقيت الحياه. أو ليس في ذلك دليلا على حكمه خالقه و لطف عنايته، و دقه تدبيره؟ ثم إن لكل شخص رزقه الذى يهديه إليه ربنا، و لو أمعنا النظر فى أحوال الناس لغمرنا الإيمان بربنا الذى يهيئ لكل واحد منهم طريقا للرزق حتى لا يدع أحدا إلا و يطعمه من رحمته.

جاء فى الدعاء:

(اللهم إنه ليس لى علم بموضع رزقى، و إنما أطلبه بخطر على قلبى، فأجول فى طلبه البلدان، فأنا فيما أنا فيه كالحيران، لا أدرى أفى سهل هو أم فى جبل، أم فى أرض أم فى سماء، أم فى برّ أم فى بحر، و على يد من، و من قبل من، و قد علمت أن علمه عندك و أسبابه بيدك، و أنت الذى تقسمه بلطفك، و تسببه برحمتك، اللهم فصلّ على محمد و آله و اجعل يا ربّ رزقك لى واسعاً، و مطلبه سهلاً، و مأخذه قريباً، و لا تعننى بطلب ما لم تقدّر لى فيه رزقا، فإنك غنى عن عذابى و أنا فقير إلى رحمتك، فصلّ على محمد و آله و جد على عبدك بفضلك إنك ذو فضل عظيم) (١) (٢٤) و من آياته رزق الإنسان من السماء، فهو سبحانه يرسل السحاب حاملا معه الخوف و الطمع، ذلك أن الإنسان يخشى السحب التى قد تكون نذيرا بالصواعق أو السيول، و لكنّه يطمع فى خيراتها فى ذات الوقت.

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبُرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

ص: ٤٢

و للبرق قيمه زراعته، إذ أنه يؤمن الجو فيتكوّن المازوت من اندماج ذرّات الأوكسجين بالهيدروجين بالنيتروجين.

هذا التناسب فى الكون دليل على أنّ الذى يقدر الكون و يديره هو الله سبحانه، و أنّ هذه الآيات القرآنيه المبثوثه فى الكون لا يفهمها و لا يستفيد منها إلا أولئك الذين يفكرون و يستفيدون من عقولهم.

ذكر الله سبحانه فى هذه الآيات أربع جمل عقب كل آيه، و لعلها تخبر عن مراحل المعرفة، فقال تعالى:

« إِنَّ فِي ذَلِكْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » « إِنَّ فِي ذَلِكْ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ » « إِنَّ فِي ذَلِكْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » « إِنَّ فِي ذَلِكْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فنحن بحاجة إلى الفكر و العلم و السماع و العقل.

فنحن نفكر حتى نحصل على العلم، و العلم يدعونا للاستفاده من علوم الآخرين عبر سماع علومهم و أخبارهم، و عند ما نجمع علومنا إلى علومهم آنثذ نعقل، و عند ما نعقل نصبح مؤمنين بالله عزّ و جلّ، لأننا نستطيع أن نستوعب آياته و نتوصّل بها إليه.

إشارة

وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَيْلٌ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَيْمَانِكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَتَّىٰ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أُذِقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيُكْفِرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)

اللغة

٢٧[المثل الأعلى]:الصفات العليا.

هدى من الآيات:

بعد أن أرسى الذكر قاعده الإيمان في النفس حين ذكر آيات الله في خلقه البشر شرع في تصفيه الإيمان من رواسب الشرك، تلك العقبة الكأداء في طريق البشر الى ربه، والشرك في القرآن الكريم ليس لونا واحدا، بل لأنه نقيض الإيمان فهو متعدّد الأبعاد، والألوان ذلك لأن من يترك الحقّ و يتجه إلى الباطل فليس بالضرورة أن يعبد باطلا من نوع واحد، بل إنّ كلّ كافر قد يعبد باطلا مختلفا عمّن سواه، فمن اتبع هواه فقد أشرك بالله، وهكذا من اتبع سلطانا جائرا أو مجتمعا فاسدا أو غيّبا مترفا، فقد أشرك بالله سبحانه، وهكذا من فرّق دينه حسب هواه، وهكذا كلّما لم يكن إيمان المرء خالصا كان مشوبا بالشرك.

و كلّما أردنا معالجه نوع من الانحراف لا بد أن نؤكّد على التوحيد، لأنّ التوحيد عصمه الإنسان و حصنه من الانحراف، و كل انحراف عن طريق التوحيد هو بالتالي سقوط في مادّيّه الشرك.

و يذكرنا الربّ بنظام السموات و الأرض و حسن التدبير في حركتهما، لعلنا نهتدى الى قدره المدبّر الحكيم الواسع و التي تحيط بنا من حولنا، و نؤمن بيوم النشور حيث يدعونا دعوه واحده، فإذا بنا خارجون من القبور بلا تريث أو تباطؤ.

و ما دامت الهيمنه التامه له فإنّ كلّ شيء مملوك له قانت لأمره و مطيع لسلطانه أو ليس قد بدأ الخلق، و هو يعيده بأيسر ممّا خلقه، و إنّ له الأسماء الحسنى التي تهدي إليها آياته في السموات و الأرض، و هو العزيز الحكيم؟ بلى. إذا لا ينبغى الشرك به. أو يجوز أن يشركك فيما تملكه بجهد غيرك ممن لا سلطان له؟ كلا.. إذا حرام أن نشرك برّبنا من خلقه أحدا.. هكذا يبيّن ربّنا آياته بوضوح بالغ لمن يعقل، أمّا الذين ظلموا فإنّهم لا يتفكرون بعقولهم بل يتبعون أهواءهم بغير علم و لا يهديهم الله. أ رأيت من لم يهده الله هل يهديه من بعده أحد؟ أو هل ينصره أحد؟ دين التوحيد فطره إلهيه خلق الله الناس عليها، و لا تبديل لخلق الله و هو دين قيم لا عوج له و لا أمت، و إنما يخالفه الناس لجهلهم، فعلينا أن نتبعه طاهرا من الشرك، و نعود إليه كلّما أبعدتنا عوامل الانحراف، مستعينين بالصلاه التي هي ركن كيان التوحيد، فلا نشرك برّبنا أحدا.

و آيه التوحيد في الواقع وحده الدين، و ألا نفرّقه و نكون شيعا متفرقين، يفرح كل شيعة بما يملكون، و يتركون ما يؤمنون به من الدين الذي يوحدهم.

إنّ ما يملكه كلّ حزب زيف يتلاشى عند ما يمس الناس ضر، إذ يدعون هنا لك ربهم عائدين اليه، و لكنّهم إذا أحسوا برحمه لا يثبتون جميعا على الهدى، بلى.

يشركون برّبهم، و هذا عين الكفر بالنعمة، و يهددهم الله بزوالها و سوف يعلمون مدى خسارتهم بالشرك.

(٢٥) بين القدر و القضاء ما بين التشريع و التنفيذ، و لقد سنَّ ربنا للخليقه سننا نسميها بالأنظمه و القوانين، و لكنَّها لا تعنى شيئا لو لا إجرائها و إمضاءها و تنفيذها و العدى لا يكون إلا بالقضاء و هو يتجلى فى أمر الله، فما هو أمر الله؟ لكى نعرف قدرا من ملكوت السموات و الأرض يستخدم القرآن ألفاظا تعودنا عليها فى حياتنا اليوميه، فنحن حينما نريد أن يتحقق شىء نأمر به من هو دوننا، و عند ما يريد الله شيئا يأمر به و لكن أمره مشيئته التى لا راد لها.

و السموات و الأرض منظمه بتقديرات إلهيه و سنن ثابتة، و لكن من يطبق تلك النظم و يجرى تلك السنن؟ إنه ربنا و بماذا؟ بأمره.

إذا أمره مظهر سلطانه الدائم و هيمنته على كل صغيره و كبيره.

دعنا نضرب مثلا- و تعالى الله عن الأمثال:-

إنَّ الساعه الصغيره ليس فيها نظام داخلى فحسب، بل فيها أيضا قوه تجعل هذا النظام يطيق، فلو سحبت هذه القوه لتوقف النظام، هكذا أمر الله لو انعدم فرضا فان الكون ينتهى، و ذلك لسببين:

أولا: لأنَّ النظام يتوقف تماما لعدم وجود ما يقوم به.

ثانيا: لأنَّ وجود الخلق ذاته ينتهى، لأن وجود كل شىء قائم بأمر الله سبحانه، و لعل الآيه التالیه تشير الى كلا السببين:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَكَلِمَةُ «أَمْرٍ» تُوْحَى بِالْقَدْرَةِ التَّامَةِ، وَبَأَنَّ الْفِعْلَ لَا يَكْلَفُ صَاحِبَهُ عَمَلًا وَلَا يُوْرثُهُ نَصَبًا، وَهُوَ أَصْدَقُ تَعْبِيرٍ عَنِ قِيَامِ الْخَلْقِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ

جاء في الدعاء:

(و جعلت الشمس و القمر و البريه سراجا و هاجا، من غير أن تمارس فيما ابتدأت به لغوبا و لا علاجا (1) و كلمه القيام توحى بتمام الشىء و كماله فكما إن البشر حين يقوم يكون على أتم استعداد و فى أفضل حاله، فكذلك قيام السموات و الأرض تعبیر عن أفضل حالاتهما، و معروف ان تمام الشىء لا يعنى مجرد وجوده، بل و أيضا صلاحه و سلامته كل ذلك يدلنا على تمام قدره ربنا و مطلق سلطانه و انه يقيم الخليقه ب(أمره) فهو إذا يهلكها ب(أمره) و يعيدها ب(أمره).

و الإنسان بين الخليقه يقوم بأمر الله، و يهلك بأمره و دعوته، و ينشر بأمره و دعوته، و قد استخدمت هنا كلمه الدعوه لان البشر صاحب عقل، و العاقل يدعى فيجيب.

و قدرته هى التى تستطيع ان تعيد ما فى السموات و ما فى الأرض الى ما كانت عليه سابقا.

ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَهُ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ حِينَ يَأْمُرُ إِسْرَافِيلُ أَنْ يَنْفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، يَخْرُجُونَ مِنْ

ص: ٤٩

١- ١) مفاتيح الجنان/دعاء الصباح.

الأحداث إلى ربهم، وكلمه «إذا» تدلّ على المفاجأة.

أى تخرجون كلكم جميعاً، دفعه واحده، بمجرد دعوته إليكم دون أن تملكوا قدره الامتناع و التمرد أو التريث و التباطى.

(٢٧) و اللّٰه يبدا الخلق بقدرته، إذا فهو أهون عليه حين يعيده، و بالنسبه إلى المخلوق فإنّ تقليد شىء مصنوع أسهل من ابتكاره، أمّا بالنسبه إلى الخالق المبدع فإنّ الأمور لا تقاس بالصعوبه أو بالسهوله، لأنّ أمره بين الكاف و النون، إنّما أمره إذا أراد شىئاً أن يقول له كُنْ فَيَكُونُ (١) و إنّما عتبر بأنّه أهون لبيان هذه الحقيقه، أنّ اعاده الشىء بعد الخلق بذاتها أهون من ابتداع خلقه (حتى و لو كانا بالنسبه إلى قدره اللّٰه سواء) فلما ذا نراهم يؤمنون بأول الخلق، و يكفرون برجعته، و هى عند اللّٰه يسير؟! و من هنا قال الحكماء: إنّ الكلمات عاجزه عن التعبير عن ذات الربّ سبحانه، و إنّما تعتبر عن أسمائه و أفعاله، و قالوا: خذ الغايات و اترك المبادئ، فإذا قلنا إنّ اللّٰه رحيم، فإننا لا نعى أنّ لله قلباً ينبض بالحب، بل انه عند ما يرحم يفعل موجبات الرحمه، و كذلك عند ما نقول: «هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.»

و هو إذ يبدأ الخلق و إذ يعيده هينا لا- يمارس لغوبا و لا علاجاً، و لا يحتاج إلى أدوات و آلات، و لا تجد فى خلقه ثغرات أو فطورا، و كلما مشيت فى مناكب أرضه، و قلبت وجهك فى ملكوت سمواته، و أنعمت النظر فى عظيم تدبيره، و حسن نظامه، و متانه صنعه، كلما ازددت بصيره بأسمائه الحسنى بأنّه الملك القدوس السلام

ص: ٥٠

المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، و بالتالى بأن له المثل الأعلى العلى تشير إليه آيات الجمال و الكمال فى السموات و الأرض.

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بلى. السموات عظيمه واسعه، و جميله، و رائعه النظام، و حسنه التدبير، إذا فهى تهدينا إلى أن لربنا المثل الأعلى فهو العظيم الواسع (قدره) و الجميل و المدبر.

و فى الأرض آيات الجمال و الجلال و هى تهدينا إلى سلطان الرب و ملكوته و سائر أسمائه الحسنى.

و لأنّ لربنا المثل الأعلى فلا يمكن أن نقيس به شيئاً فهو الأعلى مما نرى و مما لا نرى فى السموات و الأرض، و لا يجوز إذا أن نشبّه بشيء أو نتوهمه أو نتصوره سبحانه،

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام فى تفسير الآيه:

«الذى لا يشبهه شيء و لا يوصف و لا يتوهم فذلك المثل الأعلى» (١) (٢٨) يضرب ربنا سبحانه مثلاً من واقع الجزيره العربيه، حيث كانوا يعيشون نظام الساده و العبيد فيخاطبهم: هل يقبلون أن يشاركهم عبد من عبيدهم ما يملكون فهم و إياه سواء، علما انه و ما يملك لهم؟! إذا كانوا لا يوافقون على هذا الاقتراح. فكيف يجعلون لله أنداداً؟! ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ مَتَسَاوُونَ فى الشركه، و أكثر من ذلك...

ص: ٥١

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَمَا هِيَ عَادَةُ الشَّرَكَاءِ يَخَافُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَهَلْ تَخَافُونَ عِبِيدَكُمْ؟ كَلَّا..

كَذَلِكَ نَفِصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لِأَنَّهُ لَا يَعْقِلُ آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا ذَوَى الْأَلْبَابِ.

(٢٩) و الحقيقة هي: إنَّ الذين يشركون ليس يتبعون شريكا كرها، و لا يضلُّون عن الحق لغموضه أو لعدم قدرتهم على معرفته، بل لاتباعهم الهوى.

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ عِبَادَةُ الْهُوَى هِيَ جَوْهَرُ الشَّرِكِ، لِأَنَّ الْمَشْرِكَ إِنَّمَا يَتَّبِعُ طَاغُوتَهُ خَوْفَ الذَّبْحِ، وَ لَا يَخْضَعُ الْمَشْرِكُ لِلْغَنَى إِلَّا طَمَعًا فِي مَالِهِ، فَالْمَشْكَلَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِكِ هِيَ حُبُّ الْخُلُودِ وَ الرَّاحَةِ.

وَ الْآيَةُ تَذَكِّرُنَا بِأَنَّ الظلم أساس اتباع الهوى، و هو بدوره سبب الضلاله، و لعلَّ ذلك يهدينا إلى دور الفساد في العلاقات الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية و دوره في ضلاله الإنسان.

فإذا كانت العلاقات القائمة بين أبناء البشر سليمة، و لم يكن بعضهم يظلم بعضا، لم تكن حاجه إلى اتباع الهوى.

كما تذكِّرنا الآية أنَّ الهوى و العلم ضدَّان، فمن اتبع هواه رحل عنه العلم، و من خالف هواه استضاء بنور العلم، و الذي يتبع هواه بغير علم سوف يضلُّه الله.

فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ الْإِنْسَانَ، و يسلب منه علمه إذا لم يعمل بذلك العلم، و ترك علمه إلى جهله، و اتبع هواه، و لا يجد إذا من يهديه من دون الله.

ثم إنَّ الإنسان يتبع هواه، و يطيع الأنداد، طمعا في نصرتهم، و بحثا عن القوه عندهم، و لكنَّ الله يذكرهم بأنهم لا ينتصرون له إذا جاءه عذاب الله، إذ لا يقدرّون على ذلك.

وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ مِنَ الَّذِينَ عَبْدُوهُمْ، و ما لهم من شافعين.

و هذا يعنى أنّ الإنسان يحتاج في حياته إلى شيئين: عقل يهديه، و قوه تنصره، فمن اتبع هواه فقد خسر العقل و القوه معا.

(٣٠) ثم يقول الله للإنسان: إذا أردت أن تعبد الله حقًا، عليك أن تنحرف عن كل الضغوط، و بتعبير آخر عليك ان تكون حنيفا عن الشرك طاهرا نظيفا.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا الْوَجْهَ أَظْهَرَ شَيْءٍ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، و لذلك يعبر به عن مواقفه و وجهه سيره فيقال:

توجّهات فلان أى طريقته و سلوكه.

و القيام بمعنى الكمال، لأنَّ الإنسان يكون في أفضل حالاته عند القيام، و لذلك يقول الذكر: «أَقِمِ الصَّلَاةَ» تعبيراً عن إتيانها بالوجه الكامل.

و يعبر الذكر هنا عن خلوص العمل بالدين عن شوائب الشرك بـ «أَقِمِ وَجْهَكَ»

لِلدِّينِ «لأنَّ مجرد قبول الدين لا يكفي، بل ينبغي تطبيق كل المواقف و السلوكيات و التوجهات مع شرائعه، و يؤكد ذلك قوله سبحانه «حنيفاً» أى طاهراً من رجس الشرك، و دنس الرذائل.

و لا يكون ذلك إلا بتحدى الضغوط.

فالحنيفيه حقاً أن تقدم و منذ البدايه على مخالفه المشركين، انك ان تتبع الذين يضلونك بغير علم فأنت لست على طريق مستقيم، يجب ان تشق طريقك بنفسك، الى حيث..

فَطَرَتِ اللّٰهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۗ حَيْثُ الِاسْتِقَامَةُ. و هذا يعنى أنك إذا كنت تواجه ضغوطا خارجيه تدعوك لاتباع الطريق المنحرف فإنّ هناك ضغطا معا كسا فى ذاتك يدعوك لاتباع الطريق المستقيم، و هى الفطره التى فطر الناس عليها، حيث قال الله: **وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١) و أصل الفطره الشق، و سمى الخلق فطره ربما لأنّ الخلق يتم عادة بانشقاق شىء عن شىء، و معنى فطره الله هنا: الوجدانيه، حيث انها جزء من خلق الناس جميعا (و ليس المؤمنون منهم فقط).**

لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ

ص: ٥٤

لعل معناها ان الإنسان لا يمكن ان يغير فطرته بالتربيه أو التوجيه، و حتى الأعمال السيئه لا تغير فطره البشر.

فأنت و من يعاقر الخمر أو يقتل الآدميين فى الفطره سواء، صحيح ان الفطره تنتكس، و تغطى بالذنوب الا ان المذنب يشعر بذنبه، و الكاذب يشعر بكذبه، و الضال يعلم بخطئه، و لكن فطرتهم ضعيفه.

و هذه الفطره الالهيه الثابته أفضل دين يلتزم به البشر، و يتبعه، و يرى شخصيته فيه لأنه قيم لا عوج فيه، و تستقيم معه شخصيه الإنسان و حياته و مجتمعه، بينما تتطرف سائر الأديان يمينا و شمالا، و تفسد ضمير البشر، و تمسخ شخصيته و تضيع حياته.

و نستوحى من هذه الكلمه ان الدين ضروره انسانيه، يشعر القلب من دونه بفراغ كبير، الا ان أغلب الناس يخطئون فى نوع الدين الذى يعتقونه.

□ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ و نستنتج من هذه الآيه ان طريق معرفه الدين الصحيح يتلخص فى دليلين:

الاول: هدى الله حيث يقول: « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » و الثانى: الوجدان.

□ □ □ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مشكله الناس انهم لا يستفيدون من علمهم، لأنهم يتبعون أهواءهم، و علينا الآ توحشنا قله الديانين بدين الحق، أو كثره الميالين إلى سبل الشيطان، ذلك لأن أكثر الناس هم الذين لا يعلمون.

(٣١) و ليس هيتا الاستقامه على الدين الحق، لأن دواعى الشهوه، و وساوس

الشيطان، و ضغوط المجتمع تميل بالإنسان عن طريق الحق، فلا بد إذا من الإنابة الى الله دائما، فكلما مالت أسباب الانحراف به شرقا أو غربا أناب إلى ربه، و التزم التقوى بتطبيق كافه الشرائع التي هي حصن التوحيد، و سور المعرفة، و من أبرز معانى التقوى إقامه الصلاة، تلك الحصن المنيعه للإيمان، و السور الرفيع لعرفان الرب.

مُنِيْبِيْنَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوْهُ وَ أَقِيْمُوا الصَّلَاةَ ۚ وَ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ مَا قَبْلَهَا أَنْ مَا قَبْلَهَا تَأْتِي بِصُورِهِ مُفْرَدَةً بِتَعْبِيرِ «فَأَقِمْ» بَيْنَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْتِي بِصُورِهِ جَمْعًا، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ وَاحِدًا فِي مَقَامِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَ لَكِنْ فِي مَقَامِ الْعَمَلِ يَعْمَلُ مَعَ الْآخَرِينَ، فَالْإِنْسَانُ مَسْئُولٌ أَمَامَ اللَّهِ لَوْحَدِهِ، وَ كُلُّ نَفْسٍ مَسْئُولَةٌ عَنِ نَفْسِهَا.

ان الله طلب منا الالتزام بالصراط المستقيم عبر اقامه الوجه لدينه، و اتباع فطرته التي غرسها فينا، و لكن كيف يتم ذلك، و كيف نحافظ عليهما؟ يقول ربنا سبحانه: مُنِيْبِيْنَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوْهُ وَ أَقِيْمُوا الصَّلَاةَ .

فأنت مؤمن بدينك و بدافع فطرتك، انك عند ما تذهب إلى المسجد مثلا- تجد هناك أمثالك، فأنت و هم تكوّنون مجتمعا، فأنيبوا إلى الله، و هناك نظريه تقول: ان الايمان يتبلور في مجتمع، و ليس الفرد بوحده قادر على ان يترجم دين ربه لوحده، فالله يدفع الناس بعضهم ببعض كي يحوطن هذا الدين.

و الانابه إلى الله، و تقواه، و اقامه الصلاة كعجله القيادة التي لا تدع السياره تنحرف لو أمسكنا بها في طريق مثلج، فالمجتمع يسحبنا يمينا و يسارا، و لكن الإنابه إلى الله و تقواه، و اقامه الصلاة تجعلها على الطريق المستقيم.

و هناك فرق بين اقامه الصلاه و بين الإتيان بالصلاه، فإقامه الصلاه هو الالتزام بحدودها.

عن أبي عبد الله الحسين عليه السلام انه قال:

«و حق الصلاه ان تعلم انه وفاده إلى الله-عز و جل- و انك فيها قائم بين يدي الله-عز و جل- فإذا علمت ذلك قمت مقام الذليل الحقيير، الراغب الراهب، الزاجي الخائف، المستكين المتضرع، المعظم لمن كان بين يديه بالسكون و الوقار، و تقبل عليها بقلبك و تقيمها بحدودها، و حقوقها» (١)

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام انه قال:

«إذا استقبلت القبلة فانس الدنيا و ما فيها، و الخلق و ما هم فيه، و استفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله، و عاين بسرك عظمه الله، و اذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت، و ردوا إلى الله مولاهم الحق، و وقف على قدم الخوف و الرجاء. فإذا كبرت فاستصغر ما بين السموات العلى و الثرى دون كبريائه، فان الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد و هو يكبر و فى قلبه عارض عن حقيقه تكبيره قال:

يا كاذب أ تخذعنى؟! و عزتى و جلالى لأحرمنك حلاوه ذكرى، و لأحجبنك عن قربى، و المساره بمنجاتى.

و اعلم انه غير محتاج إلى خدمتك و هو غنى عن عبادتك و دعائك، و انما دعاك بفضل ليرحمك و يبعثك من عقوبته» (٢)

ص: ٥٧

١- (٥) بحار الأنوار/ج (٨٤)/ص (٢٤٨).

٢- (٦) المصدر/ص (٢٣٠).

فى بعض الأحاديث ان للصلاه حدودا.

عن زكريا بن آدم، عن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول:

«الصلاه لها اربعة آلاف باب» (١)

و عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام قال:

«للصلاه اربعة آلاف حدود» ٨ و لا- تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [٣٢] من أجل الاستقامه على الدين الحنيف، و الطهاره من رجس الشرك، لا بد من الإنابه، و التقوى، و اقامه الصلاه هنالك يدخل المؤمن فى حصن التوحيد، و يتقى مظاهر الشرك و من أبرزها الاختلاف فى الدين شيعا و أحزابا.

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ اى اختلفوا عن الطريق الذى رسمه الله لهم، فلم توحدهم مناهج الشريعه، و لعل (الشييع) تعنى اتباع الشخص بينما الحزب هو التقاء مجموعه من الناس فى الأفكار.

فاذا أردتم ان تعرفوا هل أنتم على شرك أم على بصيره من ربكم فانظروا هل عندكم خلافات تنبع من أهوائكم، فالمجتمع الذى يتبع الله لا يختلف لان افراده جميعا يتبعون شخصا واحدا، يقودهم الى الله، و لكن لماذا يسمى الله الذين فرقوا

ص: ٥٨

دينهم مشركين؟ الجواب أحد احتمالين:

١- اما انهم متبعون أهواءهم، حيث قال ربنا: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

٢- أو لأنهم اتبعوا اشخاصا بعينهم شذوا بهم عن سبيل الله.

و المشكله الأهم ليس تفرقهم فحسب، بل هم مغرورون بمكتسباتهم، و كل حزب فرح بما حقق من مكتسبات و انتصارات.

و هذه الآيه تكشف طبيعه التحزب الذى هو الغرور بما يملكه الشخص أو التجمع من حطام الدنيا، دون التوكل على الله، و الفرح بما يؤتیه عباده الصالحين من فضله.

و حين يعتمد البشر على غير الله يكله الله الى نفسه فيخسر الدارين أ رأيت كيف أخذ يقلب كفيه على ما أنفق على حقله الزراعيه، ذلك المغرور الذى نصحه صاحبه ان يقول ما شاء الله، فرفض، أو رأيت قارون حين أبى نصيحه قومه إذ قالوا له: لا تفرح، كيف خسف الله به و بداره الأرض؟! كذلك الذين يفرحون بما لديهم من اموال و أنصار فيفرقهم هذا الغرور عن بعضهم، و يبعدهم عن دينهم، و يلحقهم بالمشركين و هم يحسبون ان مكتسباتهم الدنيويه دليل صدقهم، بينما هم الأخسرون أعمالا.

[٣٣] متى يعرف البشر انه على حق، أم على باطل؟ ان ربنا يعطينا مقياسا وجدانيا ذاتيا، ففى حالات الضر و الاضطراب هنالك

ينسى كل الآلهة المزيفه التي كان يعبدها، ينسى هواه و يتجه بقلبه الى ربه.

وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ لَكِنْ..

ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ وَ هذه مشكله الإنسان انه ينسى ساعات الحرج التي مر بها، و لا عذر للإنسان ان يقول: لم اعرف الله. بلى. قد عرفت حين الحاجه، فقد توجهت آنذاك الى الله.

و نجد فى الآيه التعبير ب«مس» و«أذاقهم» و هما يدلان على أدنى الاحساس، و يعكسان بالتالى طبيعه البشر الجزوع، و كيف انه بمجرد ان يمسه ضر يجأ الى ربه، ثم بمجرد ان يذيقه طعم رحمته ينكفى و يشرك به.

و المفهوم من الآيه ان الناس جميعا يتوجهون الى ربهم عند ما يحسون خطرا، بينما بعضهم فقط يشركون بربهم عند النعمه.

و فى الآيه هذه علاج حاله التحزب، حيث ان الذين فرقوا دينهم إنما فرحوا بما لديهم، و اغتروا بما يملكون من ثروه أو سلطان ناسين نعم الله عليهم، و كيف انه سبحانه ملجأهم الأخير حين تتقطع بهم السبل، و تضيق عليهم مذاهب الدنيا، هنالك ينسون محاورهم الحزبيه، و انتماءاتهم المختلفه، و يتجهون الى ربهم العزيز المقتدر.

(٣٤) و هؤلاء الذين يشركون فور إحساسهم بالنعمه، و يفرحون بما لديهم من نعم ظاهره فيتبعون الأنداد، و يتحزون لبعضهم غرورا بما يملكون، انهم يكفرون

بنعم الله، وينذرهم الله بأن كفرهم هذا يدعهم خاسرين لتلك النعم في الدنيا، و لحظهم في الآخرة.

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وَ نَسْتَوْحِي مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْحَقَائِقَ التَّالِيَةَ:

أولاً: ان حاله التحزب القائم على أساس الفخر ببعض ما لدى صاحبها من نعم تسبب الكفر بسائر النعم، فمن بالغ في الفخر بآبائه لا- يمكنه ان يتنعم بسائر الشبَاب في المجتمع، و من تطرف في الاهتمام بثقافته و فكر حزبه لم ينتفع بعلوم الناس و معارفهم، و من فرح بما يملكه من مال توقف سعيه و لم يستفد من فرص الاكتساب التي امامه... و هكذا.

و عادة يصاب المتحزبون بانغلاق فيحرمون أنفسهم من نعم الله في الحياة.

ثانياً: ان الشكر على النعم ليس فقط يحافظ عليها و يزيدها، و انما أيضا يجعلها هنيئة لصاحبها، لان وعى النعم غذاء القلب، و لذه الروح، بينما الذين يكفرون بنعم الله انما يتمتعون ببعضها، كما تتمتع الأنعام و لا- يهتؤون بها كما يهنئ البشر، إذ ان توجههم سيكون فقط الى الجانب المادي من النعم، و ينسون الأبعاد المعنوية منها.

ثالثاً: ان الكفر بالنعم يكون سبباً لزوالها، بل لتحولها الى نكال، إذ ان من يتمتع بالنعم فقط سوف لا يراعى حدودها فيفسدها على نفسه، كمن ينهم بالجنس مثلاً لمجرد لذته تراه يسرف فيه حتى يفسد نفسه، كذلك الذي يطعم لشهوه الأكل فقط يتجاوز الحد في التهام الطعام مما يفسد معدته... و هكذا.

اشاره

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَائِمَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا
الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِيَرْبُؤَا فِي
أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ (٣٩)

اللغة

٣٩ [ليربوا]: ليزيد ذلك الربا.

اشاره

و الآثار الاقتصادية

هدى من الآيات:

بعد ان يبين القرآن أثر الشرك فى الدرس الماضى، حيث ان الشرك يبث الخلاف، و يكرس الصراع، و يفرق الديانات، ينسق فى هذا الدرس أساسين يعتمد عليهما المشركون.

الاول: التبرير الشرعى للشرك، و ذلك بالاعتقاد بان ربنا سبحانه قد خول هذه الفئه أو تلك بشؤون الدنيا أو الدين، من دون اقامه دليل صادق على هذا الادعاء.

الثانى: التبرير الاقتصادى بزعم ان الأنداد يملكون للناس رزقا، و يعالج السياق خلفيه هذا الزعم النابع من الجهل بالله، و القنوط من روحه عند الضراء، و الكفر بفضله - غرورا - فى السراء.

و هكذا يعيش الإنسان بين خطرين:

الرجاء المفرط حال النعمه، و اليأس القاتل عند البلاء، بينما الرجاء و اليأس

يجب ان يتعادلا عند الإنسان.

و لإكمال بيان جوانب الموضوع يشير السياق الى البعد الاقتصادي للصوره، مقارنا بين المجتمع التوحيدى و المجتمع الشركى.

يستوحى ربنا من هذه الآيه فكره أخرى نجدها فى الآيتين التّاليتين، و هى: ان الإنسان الّذى ينفق فى سبيل الله سيضعف له الأجر، فيما ذلك الإنسان الّذى يأخذ الربا أضعافا مضاعفه لن يربو عند الله، ذلك لان الّذى ينفق ماله فى سبيل الله يعلم بأن الله سيعوّضه خيرا منه، بينما المرابى لا يثق بالله، و لا يتحرك كما أمره الله بأن يشد عضده بأخيه المسلم.

بعد ذلك يذكرنا سبحانه بأنه هو الرازق لمن خلق، و انه يحيى و يميت، فهل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء؟! سبحانه و تعالى عما يشركون.

بينات من الآيات:

[٣٥]انى كانت دوافع الضلاله و الاجرام عند البشر فانه يبحث لنفسه عن تبرير ثقافى ليسكت صيحه الوجدان التى لا تزال تدوى فى ضميره، و اخطر تبرير ثقافى يكون عند ما يزعم الإنسان ان الله امره بما يهواه، ذلك ان فطره الدين الراسخه فى كل قلب، أعظم ضمانه لإصلاح البشر، فاذا انتكست هذه الفطره ترى اى ضمانه تبقى عنده؟! و السؤال: كيف نقف فى وجه التبرير الشرعى للجرائم، و كيف نواجه ادعاء الدين، الذين لا زالوا يفترون على الله كذبا، و كيف نتحدى هؤلاء الحكام الذين يبررون سلطانهم أبدا بان الله معهم، و انهم ظل الله فى أرضه؟ الجواب: انما يتم ذلك بالتأكيد على ان من يدعى انه من عند الله لا بد ان يأتى

ص: ٦٤

بسلطان مبین، بما لا يدع للشك مجالا، و آئذ فقط يجوز للعباد الاستماع اليه و التسليم لأوامره.

و هكذا يتساءل الذكر قائلا:

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُورًا وَمِنْهَا بَرَهَانًا و برهانا يتسلط على القلب كله، بما لا يدع فرصه للشك، كما السلطان الّذى أنزل الله على موسى عليه السلام بالعصى، و على عيسى عليه السلام بإحياء الموتى، و على محمد صلى الله عليه و آله بالقرآن، و لا بد ان يكون هذا السلطان واضحا صريحا و كأنه ينطق بالذى يدعونه.

فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ اننا ربما نتساءل: لماذا يرد الله على مثل هؤلاء المشركين؟ فنقول:

ان مشكله هؤلاء مشكله ثقافيه، و ربما بنيت حياتهم و سياستهم و أعمالهم على أمثال هذه الأفكار، فينسف الله أمثال هذه الأفكار من أساسها، و لكى لا يحتجوا على الله يوم القيامة بأنه لم يوضح لهم الحقيقه، لقد أوضح لهم إياها، و لا حجه لهم.

و كثير من المشركين يتصورون انهم مكلفون من الله باتباع شركائهم، أو يزعمون ان الأصنام شفعاء عند الله، و انها تقربهم اليه زلفى! كما يزعم الطغاه اليوم حيث يعتبرون أنفسهم ممثلين عن الله سبحانه، و كذا كان سلاطين المسلمين الذين قاموا باسم الدين، كان يصورهم الشعراء بأنهم آلهه من دون الله كما قال بعضهم فى وصف أحد الخلفاء العباسيين:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

و قد ادعى هتلر انه مكلف من قبل الله سبحانه بأن ينقذ الشعب الالمانى، و كان رمزه الصليب المعكوف، و هكذا المستكبرون فى الغرب اليوم، و القرآن يواجه كل هذه القوى الجاهليه التى تستعبد البشر باسم الدين بأنها ضاله ما لم ينزل الله عليهم سلطانا مبينا.

كما يجعل القرآن الناس امام مسئولياتهم مباشره، من دون واسطه أدياء الدين، لكى يقطع الطريق على وعاظ السلاطين، و تجار الدين فلا يستغلوا سذاجه الناس، و يحذروهم باسم الدين، و يحرفون كلمه لقاء دراهم معدوده، يتلقونها من الحكام.

(٣٦) لماذا يتوسل الناس بالشركاء و الأنداد من دون الله؟ السبب قد يكون التبرير الشرعى الذى نسفه السياق آنفا، و قد يكون الزعم بأنهم يرزقونهم من دون الله، و الذى يعالجه القرآن من الجذور و يقول:

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا أَى أَحْسُوا بِالْبَطْرِ وَ الْغُرُورِ، و يبدو ان الفرح هو حاله الاحساس بالإشباع و الاستغناء، و هى حاله ذميمه نهى الله عنها على لسان قوم قارون إذ قالوا له: «لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» و لكنها حاله حميده إذا اتصلت بالله، فمن استغنى بالله أحس بالقوه بتوكله عليه.

و قد أمر الله بذلك إذ يقول:

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١)

ص: ٦٦

وَإِنْ تُصَبِّهُمُ سَيِّئُهُ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فإِنَّ السَّيِّئَاتِ لَا تَصِيبُ الْبَشَرَ إِلَّا سَبَبَ ذُنُوبِهِمْ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَغْتَبِرُوا وَأَقْعَمُوا الْفَاسِدَ حَتَّى يَغْيِرَ اللَّهُ مَا بِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَصَابُونَ بِالْقَنُوطِ بَعْدَ السَّيِّئَةِ.

□ إِذَا هُمْ يَقْنُطُونَ وَيَسْتَوْحِي مِنْ كَلِمَةٍ «إِذَا» أَنَّ الْقَنُوطَ يَدَاهُمُ فَجْأَهُ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ ضَعْفِ نَفُوسِهِمْ، وَضَيْقِ أَفْقِ التَّفْكِيرِ عِنْدَهُمْ، وَالْآيَةُ تَبَصَّرْنَا بَعْدَهُ حَقَائِقُ:

أولاً: إنَّ الجَهْلَ بِاللَّهِ يَجْعَلُ الْقَلْبَ مَتَقَلِّبًا بَيْنَ الْغُرُورِ وَالْقَنُوطِ، بَيْنَمَا الثِّقَةَ بِاللَّهِ تَتَسَامَى بِالْقَلْبِ فَوْقَ النِّعَمِ، فَلَا يَبْطُرُ بِهَا، وَالنِّقْمَ فَلَا يِيَّاسُ بِسَبَبِهَا.

وَالْقَلْبَ الْجَاهِلَ بِرَبِّهِ وَالْمَتَطَرِّفَ بَيْنَ الْبَطْرِ وَالْيَأْسِ هُوَ الْمَيْتُ الْمُنْكَرُ لِلَّهِ، الْمَشْرُكُ بِهِ، إِذْ تَرَى صَاحِبَهُ يَهْوَى إِلَى دَرْكِ التَّسْلِيمِ لِأَصْحَابِ الثَّرْوَةِ وَالسُّلْطَةِ رَجَاءً وَفِدَاهُمْ، وَخَشْيَةَ حَرْمَانِهِ.

وَمِنْ هُنَا تَجِدُ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ إِلَّا يَحُوجُهُمْ إِلَى لِنَامِ خَلْقِهِ، بَلْ لَا يَبْتَلِيهِمْ بِالْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهِ لَكِي لَا تَمِيلَ نَفُوسُهُمْ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، فَيَزْعَمُونَ أَنَّهُمُ الرَّازِقُونَ لَهُمْ،

جاء في رائعته مكارم الأخلاق:

(اللهم اجعلني أصول بك عند الضرورة، وأسألك عند الحاجة، وأتضرع إليك عند المسكنه، ولا تفتني بالاستعانه بغيرك إذا اضطررت، ولا بالخضوع لسؤال غيرك إذا افتقرت ولا بالتضرع الى من دونك إذا رهبت فاستحق بذلك خذلانك و منعك و اعراضك يا ارحم الراحمين) (1)

ص: ٦٧

و لعل في هذا تكمن الصلة بين هذه الآيه و التي سبقتها.

ثانيا: تمهد الآيه للحديث عن الصورة المشرقة التي يتحلى بها المجتمع القائم على أساس التوحيد، و التباعد عن رجس الشرك. كيف ذلك؟ ان كثيرا من الخصال الرذيله تأتي بسبب حاله الجزع عند البشر، فانما البخل و الغش و الكسب الحرام كالربا و غيره من افرازات شح النفس (الفرح-القنوط).

كما ان فضيله الإنفاق و الكرم و العفه تأتي من الثقة بالله، و بأنه الرازق ذو القوه المتين.

و هكذا مهّد السياق للأمر بالإنفاق، و النهي عن الربا، بمعالجه هذه الحاله البشريه.

ثالثا: ان قلب المؤمن يعيش بين اليأس و الرجاء، و لذلك يعيش التوتر الإيجابي الفاعل الذي يبعث أبدا نحو النشاط و السعي، بينما قلب المشرك يتطرف نحو الفرح، فيغله جمود الغرور و البطر، أو يتطرف نحو اليأس فيقعده القنوط عن السعي، و هل يتحرك من لا- أمل له في النجاح؟! (٣٧) ما علاقته هذه الحقيقه بالتوحيد؟ العلاقه هي ان المؤمن يعتقد بان الرزق من الله، و انه يبسطه لمن يشاء، و يضيقه على من يشاء، فلا يفرح ببسط الرزق لأنه قد يسلبه في أيه لحظه، و لا يقنط بقبضه، لان الله قادر على ان يبسطه في ايه لحظه.

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ

ص: ٦٨

بلى..و لكن أغلب الناس يبصرون العوامل المباشرة للرزق،و ينسون العامل الغيبى لذلك قال ربنا:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أما المؤمنون فإنهم لا ينظرون فقط الى العوامل الظاهره،بل يبصرون أصابع الغيب التى تحرك تلك العوامل و تدبرها،انهم يعلمون ان الفلاح لا يقوم الا بأعمال جدّ ضئيله إذا قيست بالعوامل التى تساهم فى نمو الزراعه ابتداء من خصوبه التربه، و عذوبه الماء،و انتهاء بالمواد التى تنفّسها الشمس عبر أشعتها،و مرورا بسائر العوامل الرئيسيه المفقوده مثلا فى سائر الكرات الاخرى،و لذلك أضحت الزراعه فيها مستحيله.

و كما فى الزراعه كذلك فى سائر موارد الرزق،و لذلك ترى المؤمنين وحدهم يهتدون بآيات الرزق،و يشكرون ربهم عليها.

(٣٨) لان الرزق من الله،و لان المؤمن لا يقنط من رحمته إذا فقد شيئا من ثروته،ابتغاء رضوانه، و لان المؤمن لا يفرح بما يؤتى،و لا يحسب ما بيده دائما بل يراه عوارى،سوف يذهب منه فى ايه لحظه،لذلك كله ينبغى ان ينفق من ماله للاقربين ثم ذوى الحاجه من حوله.

فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ليس دور الترتيب العدى ذكر فى هذه الآيه اعتباطا،فقد جاء فى الروايات ان ذوى القربى مقدمون على غيرهم فى الإنفاق.

جاء فى حديث مأثور عن أبى الامام الحسين عليه السلام قال:

«سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ابدأ بمن تعول أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك، وقال: لا صدقه و ذو رحم محتاج» (١) وقد جاء في بعض الأحاديث تفسير ذوى القربى بآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله .

١/

و فى كتاب الاحتجاج للعلامة الطبرسى (رض) عن على بن الحسين عليه السلام لبعض الشاميين أما قرأت هذه الآية « وَ آتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ » قال: نعم، قال عليه السلام: «فنحن أولئك الذين أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله ان يؤتيهم حقهم» (٢) / ٢ و

فى مجمع البيان، عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت هذه الآية: « وَ آتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ .. » اعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمه عليها السلام فدكا. (٣)

ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ يترأى للإنسان بادئ النظر ان الإنفاق غرامه و خساره، بينما الحقيقه انه خير، شريطه الا يداخله الرياء، و حب السيطره، و ان يكون بالتالى فى سبيل الله، و الا فان ضره يطغى على نفعه، إذ ان المستكبرين أيضا ينفقون أموالهم و لكن من أجل تحكيم قبضتهم على المستضعفين، و سرقة ما تبقى عندهم من ثروات.

و السؤال: كيف يكون الإنفاق خيرا؟ و لماذا مجتمع الإنفاق مجتمع مفلح؟ الجواب: ان الإنفاق سوف يزيد التكامل الاجتماعى، مما يؤدى الى تماسك المجتمع و تقدمه، بينما المجتمع المفكك ينهار سريعا امام المشاكل، و لا ريب ان

ص: ٧٠

١-٣) نور الثقلين /ج (٤) /ص (١٤٧).

٢-٤) تفسير نور الثقلين /ج (٣) /ص (١٥٥).

٣-٥) مجمع البيان /ج (٨) /ص (٣٠٦).

فوائد التقدم تشمل المنفق كما المنفق عليه.

ثم ان يدك اليوم أعلى فهل تضمن ان تبقى كذلك كلا فقد تحتاج الى من أنفقت عليه، أو غيره و جاء فى معنى الحديث من كف يده عن الناس فانه يكف يدا واحده و تكف عنه مأه يد.

و الإنفاق يحرك عجله الاقتصاد، و ينمى الثروه، لأنه يرفع الحاجات الملحه التى تقعد أصحابها عن النشاط.

و لعل أعظم فائده للإنفاق هى تحرير نفس صاحبه عن أسر الماده، و مساعدته على الخروج من شح الذات، و تحسيسه بلذه العطاء التى تفوق عند الإنسان سوى لذه الأخذ، و ربما جاء الأمر بالإنفاق هنا بهذه المناسبه لأنه يمهد سبيل الايمان بالله أمام الإنسان، أو ليس حب الدنيا من أسباب الشرك.

(٣٩) ان ما أخذ ربا لا يربوا عند الله، لان المرابى يسلب من الآخرين اتعابهم و جهودهم، اما من يؤتى الزكاه بغيه وجه الله فأولئك هم المضعفون.

و فى الحديث عن النبى صلى الله عليه و آله قال:

«كل معروف صدقه الى غنى أو فقير، فتصدقوا و لو بشق تمره، و اتقوا النار و لو بشق تمره، فان الله عز و جل يربىها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله، حتى يوفيه إياها يوم القيامة، حتى يكون أعظم من الجبل العظيم» (١) و ﴿مَّا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوًّا عِنْدَ اللَّهِ

ص: ٧١

١-٦) بحار الأنوار/ج (٩٦)/ص (١٢٢).

ان الهدف من المال اقامه النظام الاجتماعى، و تنشيط اجهزه المجتمع و الإنفاق يقوم بهذا الهدف بأفضل وجه، بينما الربا يعوّق ذلك، إذ انه يقيد المال فى حدود فوائد الدائن، و يجعله شريكاً ثقيلاً الظل لا تعاب الناس و جهودهم، دون ان يتحمل خساره أو يبذل جهداً.

و الربا ينمى طبقه مستكبره متعالیه و طفيلیه فى المجتمع، مما تتجاوز أضراره الجوانب الاقتصاديه الى الحياه السياسيه فالثقافيه و الاجتماعيه.

و لعننا اليوم نعى معانى هذه الآيه أكثر من آباءنا، لان الربا انتشر ليس فى حدود أبناء المجتمع الواحد، بل فى مجال العلاقات الاقتصاديه بين الأمم المختلفه، و افرز الواقع المقيت العدى تعانى منه البشریه المتمثل فى التمايز بين الدول المستكبره التى تتأثر بكل خيرات الأرض و الدول المحرومه التى تحتاج الى أبسط مقومات الحياه، فبينما تحتزن الدول المستكبره مثلاً حوالى (٣٥٠) مليون طن من الغلال لعام (١٤٠٧ هـ) (١٩٨٧ م) و تحتار كيف تحتزنها، بل كيف تتخلص منها نرى الدول المستضعفه محتاجه الى كل كيلو منها، و يتضور أطفالها جوعاً، و يتساقط الملايين منهم كل عام لسوء التغذيه.

و لعل أعظم أسباب هذا التمايز النظام الربوى السائد فى العالم، حيث بلغت ديون البلاد المحرومه أكثر من كاترليون (الف مليار) دولار و (٣٥) مليار دولار أخذت الفوائد المتضاعفه تبتلع كل جهود الشعوب المحرومه، و تجعل الأمل فى تقدمها و استقلالها يتلاشى فى طوفان الديون.

و لو دفعت البلاد المتقدمه زكاه أموالها للشعوب المحرومه لنشطت من عقال التخلف، و للحقت بركب الحضاره و لأفادت حتى الدول الصناعيه بتبادل التجاره معها.

و لو استجاب المحرومون لنداء القرآن، و الغوا الربا فى علاقاتهم الاقتصادية، و تحرروا من أغلال الفوائد الباهظة (كما اضطرت البرازيل و دول أخرى ان تفعل ذلك أخيرا) إذن مشوا خطوه فى طريق تقدمهم و استقلالهم لذلك قال ربنا سبحانه:

وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاهٍ تُرِيدُونَ وَ جَهَ اللَّهُ □ اما العطاء الذى يتبعه المن و الأذى فانه مقدمه للطبقه المقيته، و لاستثمار البعض للبعض، و بالتالى لا ينمى الثروه.

كما ان المعونات الاستعماريه للدول المحرومه التى تربط هذه الدول بعجله الاستكبار هى الاخرى لا تنفع تقدا، و لا تعطى خيرا.

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ □ و لعل السبب هو ان الزكاه تنشط المجتمع، و تضع عن اقتصاده أغلال الاستثمار، و قيود الطبقيه، و يتوجه الجميع تجاه نعم الله المنبسطه فى أرجاء الطبيعه ليستفيدوا منها، دون ان يفكر كل فريق استغلال الآخرين.

اشاره

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
(٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)

اللغه

٤٤[يمهدون]: يوطنون مواطن النعيم.

هدى من الآيات:

كما ان التوحيد هو المحور الاساسى فى عالم التكوين، كذا هو يعتبر المحور الرئيسى فى عالم التشريع لسائر الأحكام، وهكذا يكون الشرك هو السبب الرئيسى لكافه المشاكل و المصائب التى تعترض البشر، و هو محور كل انحراف عن شرائع الله.

و لقد بين السياق القرآنى فى سورة الروم جانبا من آثار التوحيد و الشرك اللذان ينعكسان على حياه الفرد و سلوكياته، و فى هذا الدرس يبين لنا جانبا من آثار التوحيد و الشرك فى المجتمع.

لقد فطر الله الخليقه صالحه، و اعطى الإنسان القدره على تسخيرها، و بين ان ما يكتسبه من موبقات يفسد فى الطبيعه، و حذره من أن عليه ان يعتبر بالفساد الذى ظهر فى البر و البحر فيرتدع عن السيئات، و الا فان عاقبته ستكون مثل عاقبه الأمم الغابره، الذى لو سار الإنسان فى الأرض عرف سبب دمارهم المتمثل فى الشرك.

كيف نتقى هذه العاقبة السوءى؟ بإقامه الدين القيم الذى ينفعنا أولا فى الدنيا حين يقينا الهلاك، و ثانيا: فى الآخره حين ينقسم الناس فريقين: الكفار الذين يحتملون وزر كفرهم، و الصالحون الذين يمهدون لأنفسهم حين يجزيهم الله من فضله.

بينات من الآيات:

(٤٠) الله هو محور الحياه الطبيعیه للإنسان.

□
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ و إذا كان الله هو الذى خلق و رزق، و أمات و أحياء، و إذا كان الله هو المحور فى الحياه الطبيعیه، فلما ذا لا نتبع الله فى النظام الاجتماعى، و لم لا نجعل التوحيد لا الشرك هو الذى يرسم حياتنا؟! هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ كَلَّا..

□
سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤١) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ان الانحراف الذى نشاهده كل ساعه ليس بالطبع ناتج عن انحراف الطبيعه، لأن الله خلق الطبيعه حسنه، و اتقن صنعها، و الفساد انما هو بما كسبت ايدى الناس.

و حقيقه فساد الإنسان ان المحور الأساسى لحياتهم كان التوحيد فبدلوه الى

الشرك، وحين يوصل القرآن الفساد بذنوب البشر تعرف ان المنهج الاسلامى متقدم على المنهج الاجتماعى القائم بدرجة، كما انه متقدم على النظره الجاهليه بدرجتين، فالجاهليون يعتقدون بان ما يظهر من الآثار فى الحياه لا يمت الى سبب، فلا يبحثون عن سبب معقول.

بينما المنهج القرآنى يربط الظواهر الطبيعیه بأسبابها المشهوره و الغيبیه، فالظلم -مثلا- سبب لشقاء الظالم، و نزول العذاب عليه، اما بصوره مشهوره حيث انه يكون سببا لتحدى المظلوم، مما يزعزع أمن الظالم و استقراره، و أما بطريقه غيبیه حيث ان الرب الذى بيده ملكوت كل شىء يقدر للظالم العذاب أو الشقاء بتسليط الأمراض عليه و إنزال الصواعق و الكوارث الطبيعیه على بلاده.

هكذا تضحى مسئولية البشر عن أفعاله حقيقه لا فكاك منها فى منطق القرآن، لان الّذى يجريها بيده الأسباب الطبيعیه و غير الطبيعیه.

و نحن حين نتلوا هذه الآيه لنتخذها بصيره لوعى العصر الذى نعيشه نزداد يقينا بعظمه القرآن، و صفاء بصائره.

بلى. ظهر الفساد فى البر و البحر بانتشار وسائل الدمار فيهما، من اسلحه ناریه تقليديه تتكاثر كالجراثيم فى جسم مريض، و تدعمها اسلحه نوويه تنشر مظلله رعب رهيبه، و اخطر منها الاسلحه الكيماويه التى طفقت البشريه التنافس عليها.

و فى آخر تصريح لمراقب عليم عن اخطار هذه الاسلحه جاء: ان نشوب حرب نوويه بين القوتين العظيمين ستسفر عن سقوط (4) مليارات قتيل فى العالم الثالث، و ذلك ان تغييرا أساسيا يحدث فى اتجاهات الرياح الموسميه، و ان الشمس تحتجب

بسبب الدخان الأسود الناجم عن احتراق المدن. (١)

و إذا عرفنا ان سكان العالم هم اليوم خمسه مليارات بشر فان ذلك يعنى ان الحرب تهدد اربعة أخماسهم.

و من الرعب النووى الى الأمراض التى لا شفاء منها كالسرطان، و الايدز، و القلق، و الجنون، و امراض الاعصاب المتكاثرة، و الى التخلف القاتل الذى يحصد الملايين فى جنوب أرضنا، و التخمة التى تطفى النخبه فى الشمال، مما حدى بعض العلماء اليائسين فى فرنسا الى القول بان عضلات البشريه لا تعالج بسوى حرب نوويه.

أما عن الخطر المحقق فعلا- بالبشريه (تلوث البيئه) فتقول مجله (الحقيقه الواضحه) التى تدعو الى العوده الى الدين فى عددها المؤرخ (١٩٨٧/٢/١ م) و الذى طبع منه أكثر من سبعة ملايين نسخه تقول:

هل القوه النوويه هى المصدر الوحيد لتدمير الأرض؟ لننظر الى مجموعه معلومات جاءت فى بعض المجلات الرائدة: ان التلوث الجدى الذى لا يقارن بحادثه بوبال فى الهند، و لكن بتراكماته سوف يهدد الأرض و تضيف: لقد أظهرت الأبحاث الجديده ان تدمير طبقه الاوزون بواسطه الغازات التى ينتجها الإنسان سوف يكون أكبر مما كان متوقعا، ثم تقول: لقد اكتشفنا أخطر المواد الكيماويه و ادخلناها فى موادنا الغذائيه، و تعطى احصائيه عن وسائل التدمير فى امريكا، و تقول: ان المواطنين الامريكويون ينتجون (١/٥) مليار رطل من

ص: ٧٨

١-١) أحد علماء الطبيعه البارزين و اسمه (فردريك و ورنر) من جامعه (اسكس) البريطانیه. انظر جريده الوطن بتاريخ (ج) ١٤٠٧/٢ هـ) الموافق (٩/فبراير ١٩٨٧ م).

المخلفات المدمره فى اليوم و تضيف: ان تدمير البيئه يجرى سريعا، و إذا لم يوقف هذا التدمير فسوف يكون مرعبا.

و تضرب مثلا لحجم التلوث فى امريكا و تقول: ان الأبحاث تقول: ان هناك حاجه ل(١٠٠)مليار دولار و خمسين سنه من الوقت حتى تتم ازاله المواد السامه من الولايات المتحده، حتى ان خبيرا فى شؤون المحيطات قال: اننا نواجه النكبه، و تختم المجله تحذيرها: لن يكون هناك خيار للإنسان الا الدمار إذا ما نظر الى سياسه الريح و التوسع الصناعى بشكله الحالى.

و قد أكدت الروايات الاسلاميه على الصله بين النكبات و المصائب التى يتعرض لها البشر (افرادا أو مجتمعات) و بين أعماله. دعنا نقرأ بعض هذه الروايات:

عن الامام الباقر عليه السلام قال:

أما انه ليس من سنه أقل مطرا من سنه، و لكن الله يضعه حيث يشاء، ان الله -جل جلاله- إذا عمل قوم بالمعاصى صرف عنهم ما كان قَدْر لهم من المطر فى تلك السنه الى غيرهم، و الى الفيافى و البحار و الجبال، و ان الله ليعذب الجعل فى حجرها بحبس المطر عن الأرض التى هى بمحلّتها لخطايا من بحضرتها، و قد جعل الله لها السبيل الى مسلك سوى محلّه أهل المعاصى، قال: ثم قال ابو جعفر الباقر « فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ » (١) ثم قال:

وجدنا فى كتاب على عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«إذا ظهر الزنا كثر موت الفجأه، و إذا طفف المكيال أخذهم الله بالسنين

ص: ٧٩

و النقص، و إذا منعوا الزكاه منعت الأرض بركتها من الزرع و الثمار و المعادن كلها، و إذا جاروا فى الأحكام تعاونوا على الظلم و العدوان، و إذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم و إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال فى أيدي الأشرار، و إذا لم يأمروا بمعروف و لم ينهوا عن منكر و لم يتبعوا الأخيار من أهل بيتى سلط الله عليهم شرارهم، فيدعوا عند ذلك خيارهم فلا يستجاب لهم» (١)

و روى عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها و لا تؤخر الى الآخرة: عقوق الوالدين و البغى على الناس، و كفر الإحسان» (٢)

و روى عن الامام الصادق عليه السلام قال:

«الذنوب التى تغير النعم البغى و الذنوب التى تورث الندم القتل، و التى تنزل النقم الظلم، و التى تهتك الستور شرب الخمر، و التى تحبس الرزق الزنا، و التى تعجل الفناء قطيعه الرحم، و التى ترد الدعاء و تظلم الهواء عقوق الوالدين» (٣)

و روى فى تفسير الآيه عن الامام الصادق عليه السلام انه قال:

«حياه دواب البحر بالمطر، فاذا كف المطر ظهر الفساد فى البر و البحر، و ذلك إذا كثرت الذنوب و المعاصى» (٤)

ص: ٨٠

١- ٣ المصدر/ص(٣٧٣).

٢- ٤ المصدر/ص(٣٧٤).

٣- ٥ المصدر/ص(٣٧٣).

٤- ٦ نور الثقلين/ج(٤)/ص(١٩٠).

ربما لا يكشف العلم العلاقة بين الزنا و موت الفجأه أو بين التطفيف و الفقر، أو بين المعاصى و انقطاع المطر، و لكن الحقيقه ان هذه أثر من تلك، و ان طاعتك أو معصيتك تؤثر فيما حولك، و قد أكد القرآن على هذه الفكره مرارا فقال:

١- « وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا » (١) ٢- « وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ القرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٢) ٣- « وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » (٣) انك إذا لم تعرف سبب الابتلاءات انها من الذنوب، فلا دليل لك على ان تبقى على سلوكك المنحرف، و تحتل تبعه هذا السلوك،

فقد جاء فى الحديث المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام فى قوله تعالى: « وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ »:

«ليس من التواء عرق، و لا نكبه حجر، و لا عثره قدم، و لا خدش عود الا بذنب، و لما يعفو الله أكثر فمن عجل الله عقوبه ذنبه فى الدنيا فان الله أجل و أكرم و أعظم من ان يعود فى عقوبته فى الآخرة» (٤) و قد عبر الله عن عمل الذنب بما كسبت اليد، لان اليد هى التى تباشر عاده

ص: ٨١

١- ٧ الجن / (١٦).

٢- ٨ الأعراف / (٩٦).

٣- ٩ النحل / (١١٢).

٤- ١٠ بحار الأنوار / ج (٧٣) / ص (٣٧٤).

فعل الذنب، و تعبير اليد تعبير عن الاراده كقولك: هذا الأمر بيدك.

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ و تشير خاتمه الآيه الى حقيقتين أخريين:

الاولى: ان الله سبحانه يعفو عن كثير من الذنوب، و انما يعجل عقوبه بعض العبدى عملوا، و فى التعبير القرآنى بلاغه نافذه، فان ما ينزل العذاب يكون ذا ألم يذاق «ليذيقهم» و انه تجسيد لذات المذنب حيث لم يقل ربنا سبحانه «ليذيقهم عقوبه بعض..» و انما قال تعالى «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ» فالذى عملوه بذاته يضحى عذابا.

الثانيه: ان حكمه العذاب تنبيه البشر لعله يرعوى عن غيه، و يعود الى الطريق المستقيم و الدين القيم العبدى يقى الناس ألوان العذاب.

(٤٢) قد يتخذ البعض القرآن رصيد معلومات، و قد يتخذ البعض منهجا لبلوغ معلومات جديده عبر بصائره، و بالرغم من أهميه الحصول على المعلومات المباشرة من القرآن إلا أن آياته الكريمة تؤكد على أولويه اتخاذه منهجا للبحث، و وسيله للمعرفه، و بابا الى العلم، و بصائر و هدى.

و أكد الرب المره تلو المره: ان القرآن بصائر و أمثال و هدى و نور، و ان فيه آيات لقوم يعقلون و للعالمين و لقوم يسمعون.

و البصيره اداه البصر، و المثل وسيله لمعرفه ما يشابهه. انه النموذج العبدى يقاس عليه ما يطابقه و الهدى يبصرنا سنن الله، و النور يضىء لنا الدرب لنهاها بأنفسنا.

و من أمثال هذه الآيات يعرف خطأ الذين اتخذوا القرآن نهايه المطاف، و ليس

وراءه عمل يقومون به لمعرفة الحقائق، بل القرآن منهج لفهم الحياه، و اثاره لعقل الإنسان، بالاضافه الى اشتماله على رصيد لا ينتهى من العلوم و المعارف و هكذا فهو اطار يتحرك عبره البشر، و بدايه الانطلاقه، و ربما هذا هو الفرق بين الامه الاسلاميه فى بدايه انطلاقها، و عما عليه الآن بعد جمودها.

فالامه الاسلاميه فى بدايه انطلاقها كانت تتخذ من القرآن وسيله للبحث، و منهجا للتفكير، و لذلك كانوا يشدون الرجال لطلب العلم و لو فى الصين لأنهم كانوا طلاب تجربه، لم يقولوا كما قال البعض: حسبنا كتاب الله، إذ لم يكن كتاب الله بديلا عن الجهد، بل كان إطارا له، و لقد كان رسول الله صلى الله عليه و آله يبعث أصحابه الى اليمن ليتعلموا فنون الحرب و التجسس على بعض الاسلحه الجديده، و لقد كان يزرع فيهم حب المعرفة

بقوله:

«الحكمه ضاله المؤمن» من هنا نجد القرآن يأمرنا بالسير فى الأرض لننظر آثار التاريخ على الأرض مباشرة:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ لَيْسَ فِقْطَ نَنْظُرِ إِلَى ظَوَاهِرِ الْأُمُورِ، بَلْ نَبْحَثُ عَمَّا وَرَاءَ الظواهر من حقائق، فننظر الى آثار الماضين، و نستدل بها على حياتهم، و نعرف منها بعض السنن الاجتماعيه التى كانت حاكمه عليهم.

ان السير فى الأرض، و البحث فيها عن ركام القصور المهدمه، و بقايا المزارع المعطله، و نماذج الأدوات المدفونه تحت الانقاض، يدعونا الى النظر فى نهايات تلك الأمم التى كان جل سعيها الخلود فى الأرض، و تحدى سنن الله فى الخلق.. لقد بنوا

ص: ٨٣

أهراماتهم بمصر، وقلاعهم في بعلبك، وزرعوا ارض بابل و نينوى بالآثار العظيمة، و لكنهم ابيدوا حين أشركوا بالله.

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام :

«اين العمالقه و أبناء العمالقه! اين الفراعنه و أبناء الفراعنه! اين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين، و اطفؤوا سنن المرسلين و أحيوا سنن الجبارين! اين الذين ساروا بالجيوش، و هزموا بالألوف، و عسكروا العساكر، و مدّنوا المدائن!» (١) كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُشْرِكِينَ حينما تبحثون في الأرض، و حينما تنقبون في الآثار، و تبحثون في الانظمه الاجتماعيه السائده عليهم ستكتشفون بأنهم كانوا مشركين في الأغلب، فإما كانوا عبده الأصنام و ما ترمز اليه من الثروه و القوه أو عبد الطاغوت.

في الآيات السابقه يبين القرآن الشرك و التوحيد في مجال الاقتصاد، و بعدها في الأخلاق، و هنا بينها في مجال الصراع الحضارى، أو بتعبير آخر الصراع من أجل البقاء، فالشرك ليس الوسيله المثلى للبقاء بل هو السبب الرئيسى للإنهيار.

(٤٣) فإذا اكتشفنا بان الشرك هو ماده الفساد، و سبب نهايه البشر فردا كان أو مجتمعا، فعلينا ان نخلص العباده لله.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ

ص: ٨٤

١- ١١) نهج البلاغه الخطبه (١٨٢)/ص (٢٦٢).

فأقامه الوجه لله أمان يوم القيامة.

يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ يتفرق بعضهم عن بعض، وحيث يتميز الكفار عن الصالحين، و تلك هي المفارقة الشرعية الوحيدة بين الإنسان و فطره الإنسان.

(٤٤) فالذين كفروا فعليهم كفرهم يوم القيامة، إذ يتحول الى حميم و غساق، و الذين آمنوا فسوف يجدون أعمالهم الصالحة.

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ فالعمل الصالح سيأتيك في يوم أنت أحوج ما تكون اليه، و لكن من كفر فان نتیجه كفره ستكون وبالاً عليه.

و في هذه الآيه ملاحظه هامه و هي: ان الله عند ما ذكر من كفر، قال: «فعليه كفره» بصيغه الفرد، و عند ما ذكر من عمل صالحا قال: فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ بصيغه الجمع، و الفكرة هي: ان نتیجه الكفر تكون على صاحبها فقط، أما نتیجه الايمان و العمل الصالح فتكون اضافه على أنها لصاحبها لذويه و أقربائه و سائر المؤمنين،

فقد ورد:

«ان المؤمن يشفع في مثل ربيعه و مضر» و

قد ورد في تفسير الآيه: «و كان ابو هما صالحا» في قصه اليتيمين اللذين اقام جدارهما الخضر عليه السلام .

عن أبي عبد الله عليه السلام:

ص: ٨٥

«انه كان بينهما و بين ذلك الأب الصالح سبعة آباء» (١)

و فى روايه أخرى عن أبى عبد الله عليه السلام قال:

«ان الله ليحفظ ولد المؤمن الى الف سنه، و ان الغلامين كان بينهما و بين أبيهما سبعمائه سنه» ١٣ (٤٥) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ فى الآيه السابقه أبان الله فى كتابه إنَّ العمل هو اللذى يحدد نهايه البشر « مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » و فى هذه الآيه يبين انه يتفضل على الصالحين، و حين يكون الفضل من الله فبشرى للإنسان و طوبى.

و لعل التعبير السابق فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ كان تمهيدا لبيان أن جزاء الصالحين ليس مجرد تمثل أعمالهم الصالحه فى صورهِ نعيم ابدية فى الآخرة و انما هى مجرد تمهيد لفضل الله الذى لا يحد و لا ينتهى.

و جاء فى الحديث المروى عن الامام الصادق عليه السلام :

«ان العمل الصالح يسبق صاحبه الى الجنة فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمه فراشه» (٢) و لكن الله يجزيهم من فضله، و هو لا يحب الكافرين.

(٤٦) بعد ذلك يعود الله الى عرض بعض آياته فى الحياه فيقول:

ص: ٨٦

١- (١٣، ١٢) تفسير نور الثقلين / ج (٣) / ص (٢٩١).

٢- (١٤) المصدر / ج (٤) / ص (١٩١).

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ مِنْ نَعْمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ النَّظْرَةَ الْإِجَابِيَّةَ إِلَى الْحَيَاةِ، وَالتِّي تَنْبَعُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، فَالَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَجِدُ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْتَسِمُ لَهُ، وَإِذَا رَأَى مَشَاكِلَ الْحَيَاةِ فَانْهَ يَتَجَاوَزُهَا بِسَهُولَةٍ، أَمَا الْكَافِرُ فَانْه سَحَابًا سَوْدَاءَ تَكْتَنِفُ قَلْبَهُ، فَلَا يَبْتَسِمُ لِنُورِ الشَّمْسِ، وَلا لِنَعْمِ الْحَيَاةِ، وَالْقُرْآنُ يَثِيرُ فِينَا الْإِحْسَاسَ بِالْجَمَالِ فِيمَا يَحِيطُ بِنَا مِنْ حَقَائِقٍ، أَوْ تَتْرَى عَلَيْنَا مِنْ ظَوَاهِرٍ.

ان الإنسان مفضور على حب الجمال، و ان مظاهر الطبعه الرائعه غذاء مرىء لروحه الحساس، و لكن هذه الفطره قد تدس فى تراب العقده النفسيه، و الانشداد الى المشاكل اليوميه، و الغرق فى طوفان الأوهام و التمنيات.

و هكذا نحتاج الى ما يدغدغ هذه الفطره حتى يوقظها و ينميها، و هذه مسؤليه الفن و الأدب.

و آيات القرآن تثير فطره الجمال فى قلوب المؤمنين و تنميها- كما تنمى نوازع الخير و الفضيله جميعا- حتى تغدو تلك القلوب تعيش مهرجان الحب، و تستريح الى همسات الطبعه التي تحدثها حفيف الأشجار و تلاعب المياه عند الشواطئ و الغدران.

الا ترى كيف يحدثنا الرب عن المبشرات من الرياح التي تنطلق من المنخفضات الجويه و تنساب بين الصخور و الأحجار، و تهب على أولئك المزارعين الذين مزق اعصابهم طول انتظار الغيث، و قد صرفوا أسابيع من عمرهم جاهدين لاستصلاح الأرض و زراعتها؟! بلى..ها هي الرياح تأتي مبشره بالسحب الخيره، و إذا بقطعات السحب تتسابق و تتكاثف و تحتك و تعلن عن نفسها بالبرق و الرعد،

و ترخى السماء عزاليها.

بلى.. كما تقوم الرياح بتلقيح الأشجار، و نشر بذور الزرع المتراكمه فى منطقه على مساحات شاسعه، و توزع غاز الأوكسجين على الناس، و تحمل منهم الى الأشجار الغازات السامه لتغذى بها و تمنع اشعه الشمس من حرق الأوراق، و تقوم بتحريك السفن الشراعيه من بلد الى بلد، كما تساهم فى انطلاق الطائرات و السفن التجاربه أيضا.

كل ذلك من أجل ان يتذوق الإنسان رحمه الله، و يتصل قلبه الصغير بالكون الواسع عبر هذه المتغيرات.

وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مِنْ نِعْمَةِ الْمَطَرِ فَتُخْضِرَ الْأَرْضَ.

وَ لِيَجْرِيَ الْفُلُوكَ بِأَمْرِهِ فَهَذِهِ الرِّيحُ تَدْفَعُ السَّفِينَ الشَّرَاعِيَةَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ.

وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ مِنْ نِعْمٍ أُخْرَى عِبْرَ التَّوَابِلِ التِّجَارِيَةِ بَيْنَ الْأُمَمِ.

وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إن ذروه السعاده- و هى غايه النعم- حين يبلغ الإنسان مستوى الشكر لله، يرضى قلبه، و تطمئن نفسه، و تملؤ البهجه أرجاء فؤاده، اما حين يكفر بنعم الله فان

الهدف منها لا يتحقق أبدا. أو ليس الهدف منها الإحساس بالسعادة، و كيف يسعد من يكفر بالنعم؟!

ص: ٨٩

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُبَثِّرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُنِيسِينَ (٤٩) فَمَا نُنْظِرُ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)

اللغه

٤٨[فتشير سحابا]: تحركه و تنشره.

هدى من الآيات:

الايمان يفتح عين الإنسان على الحياه فيراها كما هي، من دون حجب، اما من لا ايمان له فكمن هو فى الظلمات، فالصله مقطوعه بينه و بين ما حوله لأنه-أساسا -لا يعترف بضروره البحث عما هو حق و عما هو واقع، بل يكتفى بما يظنه ظنًا، و ان الظن لا يغنى عن الحق شيئًا، اما الايمان فانه يجعل الإنسان يبحث عن الحق انى وجده، لان الايمان ذاته هو التسليم للحق.

جاء فى توحيد المفضل:

«فاعتبر بما ترى من ضرور المآرب فى صغير الخلق و كبيره، و بما له قيمه و ما لا- قيمه له، و احس من هذا و أحقره الزبل و العذره، التى اجتمعت فيها الخساسة و النجاسه معا، و موقعها من الزرع و البقول و الخضر أجمع (أجمل) الموقع الذى لا يعد له شىء حتى ان كل شىء من الخضر لا يصلح و لا يزكوا الا بالزبل و السماد الذى

يستقذره الناس، و يكرهون الدنو منه.

و اعلم انه ليس منزله الشيء على حسب قيمته، بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين، و ربما كان الخسيس فى سوق المكتسب نفيسا فى سوق العلم، فلا تستصغر العبره فى الشيء لصغر قيمته، فلو فطنوا طالبوا الكيمياء لما فى العذره لاشتروها بأنفس الأثمان، و غالبوا بها» (1) انك إذا سلمت للحق فسوف تبحث عنه، و حين تبحث عنه تجده، و إذا كانت الحاجه أم الاختراع، فان الاحساس هو السبب الرئيسى للمعرفه، لان الإنسان لا يعرف بالشيء الا إذا أحس بالحاجه الى معرفته، فمن لا ايمان له و اكتفى بظنونه لا يحس بالحاجه الى المعرفه، لان الهوى موجود عنده أساسا فلا داعى للبحث عنه.

و فى الدرس ما قبل الأخير فى سوره الروم نجد ربنا سبحانه يبين لنا بان الايمان هو البصيره، فالكافر كأعمى و الأعمى، بينما المؤمن هو البصير و السميع لا تحجبه حجب الهوى، و لا المسبقات الفكرية و العقده النفسية، انه ينظر نظره مجردة عفويه، انه لا يلبس نظاره ملونه، سواء كانت هذه النظاره افكارا جاهليه، أو نظرات سلبية و قاتمه عن الحياه كنظرات الذى يعيش الحزن و الهم و الكآبه، أو نظرات مغرقه فى الغرور و التمنى و التبرير.

فالمؤمن عاده ما يكون متفاعلا- فى الحياه، إذ انه يرى الحياه كلها بصورتها الطبيعیه، فهو يشكر الله على النعم، و يصبر فى حال البلاء على النقم، فكلما رأى شيئا فى الحياه شكر الله و حمده. لماذا؟

ص: ٩٢

١- ١) بحار الأنوار/ج(٣)/ص(١٣٦).

لأنه يرى ان النعم من الله سبحانه، بينما الكافر يتصور ان النعم من نفسه، فكلما أعطاه الله خيرا قال: هل من مزيد.

و من نعم الله العظيمة: الرساله التي حملها أطهر خلقه إلينا، و ما أخسر أولئك الذين أجمروا حين لم تنفعهم الرساله، و طوبى للمؤمنين الذين نصرهم الله بما فرض على نفسه سبحانه من تأييدهم.

و الرسالات تجلّ عظيم للرحمه الإلهيه، كما السحب المباركه التي تروى الأرض و تملأها خصبا و رزقا، و تملأ النفوس بشرى، بعد ان استبد بها اليأس و القنوط.

أ فلا- تنظر الى الأرض تهتز و تربو، و تزهو بزرعها البهيج. ان ذلك من آثار رحمه الله، و هكذا يحيى الأرض بعد موتها. أ فلا نهتدى بذلك الى قدره الرب، و انه كيف يحيى الموتى؟! و آيات هذا الدرس تثير فينا الاحساس بالتفاؤل و الايجابيه.

بينات من الآيات:

(٤٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَفَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا هَذِهِ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ، انه لم يبادر إلى إنزال العقوبه بعباده فور انحرافهم عن الدين القيم مما يعرضهم للاصطدام بالسنن الالهيه. كلا.. و انما انذرهم عبر رسله.

أ رأيت لو شاهدت طفلا يلعب على حافه جبل أو لست تخشى عليه السقوط، و تسعى بكل جهدك ان تردعه؟! كذلك رسل الله سعوا من أجل إيقاف سقوط

الأمم في وديان الفساد.

و لكن ذلك لا يعنى أبدا إكراه الناس-عباده-على الهدايه،بل الذين أجرموا تعرضوا لانتقام الرب فى النهايه،أما المؤمنون فكان على الله حقا ان ينصرهم قال تعالى:

وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

ورد فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله انه قال:

ما من امرء مسلم يرد عن عرض أخيه الا كان حقا على الله ان يرد عنه نار جهنم يوم القيامة،ثم قرأ صلى الله عليه و آله: «وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (١)و نصر الله المؤمنين لا يعنى بالضروره ان يكون مباشره بيد الله سبحانه،بل قد يكون نصر المؤمنين عن طريق بعض المؤمنين أنفسهم،فالله سبحانه يدفع الناس بعضهم ببعض،و مثل ما يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين كذلك ينصر المؤمنين ببعضهم.

(٤٨) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنِيْرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ فَاللَّهُ يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَكْتَفِ السَّحَابُ،و تركمه بعضه على بعض،و تبسطه فى السماء كيف يشاء الله،و يطره على من يشاء من عباده.

و الإثاره بمعنى السّوق،و أثار الغبار هيّجه،و البسط قد يقال للباط من البسط

ص:٩٤

و الفرش، فيفرش الله السحاب في السماء، كيف يشاء، حتى إذا أمطر السحاب تناوله أكبر قدر من الأرض.

وَ يَجْعَلُهُ كِسْفًا مَتْرَاكَمَا عَلَى بَعْضِهِ قَطْعُهُ قَطْعَهُ، يراها ركاب الطائرات.

فَتَرَى الْوَدْقَ وَ لَعَلَّ الْمَرَادَ مِنْهُ رَذَاذَ الْمَطَرِ الَّذِي تَفْرِزُهُ قِطْعَاتُ السَّحَابِ.

يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ مِنْ خِلَالِ السَّحْبِ الْمَتْرَاكِمِهِ. هكذا يولد الغيث بعد مخاض مرير.

فلو لا حركة الرياح و ضغوطها على السحب، و لو لا تراكم السحب و مرورها بتيارات هوائيه بارده، لما أمطرت.

ثم ينتقل الرب من قلب السحب في الفضاء إلى تقلبات فؤاد البشر على الأرض حيث ينتظر بفارغ الصبر بركات الغيث فإذا هطلت السماء طار فرحا.

إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ لِأَنَّهُ يَبْشِرُهُمْ بِرِخَاءٍ وَاسِعٍ وَ ثَرَاءٍ عَرِيضٍ.

(٤٩) وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ مشكله الإنسان انه عند ما تتأخر عنه رحمه الله يكون من القانطين، أ فلا يرى بأن الذي خلق السموات و الأرض برحمته لا يتركه؟ بلى. و لكن البشر حين يفقد

التوكل على الله يفقد الأمل في المستقبل.

(٥٠) كيف نزداد برّبنا معرفه، و في رحمته أملا؟ و كيف نسعى نحو اليقين بقدرته على إحياء الموتى؟ و الجواب: بالنظر إلى آثار رحمه الله، إلى الغيث حين ينزله على الأرض الميتة فتستقبله بترحاب و تهتز له و تنبت الزرع، و إذا بالبسيطة لبست حلّه خضراء، إنّ النظر إلى هذه الآثار تجعل القلب يفتح لأنوار معرفه الله.

فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ وَ الْهَدَفِ مِنَ النَّظَرِ لَيْسَ مَجْرَدِ الْإِذْعَانِ بِقَدْرِهِ اللَّهُ، بل و أيضا بمعرفه تجليات قدره الله على الخلقه و السنن التي أجراها الله فيها، و كيفية اجراء تلك السنن.

كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ هُنَالِكَ إِذَا عَرَفَ كَيْفَ أَحْيَا اللَّهُ قَدْ يَهْتَدِي إِلَىٰ حَقَائِقِ الْيَوْمِ الْآخِرِ حَيْثُ ان خالق الدنيا هو خالق الآخره، و ان قدرته فيهما سواء.

إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتِ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ انْتِقَالَ السَّحَابِ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ لِيَمْطُرَ فِي أَقْصَاهَا، تعكس في وجداننا الإيمان بالبعث، و الحياه بعد الموت، فكما يحيى الله الأرض بالمطر، كذا يحيى الأنفس بعد موتها.

(٥١) وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصِيفًا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ هناك فرق بين كلمتين (رياح) و (رياح) في القرآن الكريم، فالرياح تستخدم

فى موارد العذاب، و الرىاح تستخدم فى موارد الرحمه و البشاره.

و فى الروايه عن رسول الله صلى الله عليه و آله انه إذا رأى الرىح قد هاجت يقول:

«اللهم اجعلها رياحا و لا تجعلها ريحا» (١) و اما لماذا سميت الرىح بالصفراء؟ جاء فى تفسير البيضاوى: إنّ الصفراء التى تجعل الأرض و الزرع صفراء، و قد فسرها البعض بأنها التى تنذر بالعذاب، و لا خير فيها،

و جاء فى الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال:

الرياح خمس، منها العقيم، فنعوذ بالله من شرها، و كان النبي صلى الله عليه و آله إذا هبت رىح صفراء أو حمراء و سوداء تغير وجهه و اصفر، و كان كالحائف الوجل، حتى ينزل من السماء قطره من مطر، فيرجع اليه لونه، و يقول: «جاءتكم بالرحمه» (٢) و عند ما يرى الإنسان الرىح مصفره يكفر بالرب، و بقدرته على دفع المكروه عنه، و ينسى بان الله الذى بعث بهذه الرىح قادر على أن يبدلها برياح مباركه.

(٥٢) لقد تليت علينا آيات الله، و لكن ليس كل الناس قادرين على وعيها، بالرغم من شده و وضوحها، و نفاذ بلاغتها، فمن الناس من هو ميت الأحياء قد سدّت منافذ قلبه تماما كالجاحدين، و منهم من فقد السمع و هو يتولّى هاربا من الحقائق كمن أخذتهم العزه بالإثم، و منهم العمى الذى حجب بصره غشاوه.

ص: ٩٧

١-٣ المصدر/ج (٦٠)/ص (١٧).

٢-٤ المصدر/ص (٦).

هؤلاء بحاجه إلى إصلاح أنفسهم قبل تلقى آيات الله.

فَأَنْتَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِيَّ وَلَا تَسْمَعُ الضُّمَّ الدُّعَاءِ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٣) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ وَيبدو ان السياق يقسم هؤلاء الناس إلى ثلاثة أقسام: الميت والأصم والأعمى.

ولعلّ الأوّل هو الكافر الذي يكون بمثابة الميت، الذي لا يسمع ولا يرى، أمّا الثاني فهو الأصم الذي يمكن أن يفهم بالاشارة، و لكن بسبب تولّيه مدبراً لا يسمع، كما انه لا يرى، والثالث الأعمى الذي يمكن ان يسمع و يعى، ولكنه لا يستطيع ان يطبق ما يسمع لأنه أعمى.

و استخدم السمع للميت، باعتباره آخر ما يفقده الحي، و استخدم السمع للأصم لان ابرز عيب فيه عدم السماع، و لم يستخدم السماع للأعمى لأنه يسمع، بل قال: «وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ».

ان السمع الذي هو بدايه فهم تجربه و الانتفاع لا يكون الا عند التسليم، فمن فقد حاله التسليم النفسى للحق لم ينتفع حتى بسمعه.

و كلمه أخيره:

فى درس مضى قرأنا قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ و فى الآيه بعدها يذكر إرسالاً آخر، و لكن ليس للرياح و إنما للرسول، فأتوهم

ص: ٩٨

بالبينات: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا يَبْسُطُ الْقَوْلَ فِي الرِّيحِ فَيَقُولُ: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَ ان كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ.

وَ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَكَلَّمُ عَنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْمَطَرِ.

وَ نَسْتَوْحِي مِنْ هَذَا التَّرْتِيبِ:

أولاً: إِنَّ اللَّهَ كَثِيرًا مَا يَرْبُطُ بَيْنَ إِرسَالِ الرِّيحِ وَ بَيْنَ إِرسَالِ الرِّسْلِ، قَالَ تَعَالَى: وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سَفَّحْنَاهُ لِيَلْمِدَ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَ الْبَلْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِنَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَيِّرُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ، لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١) وَ هَكَذَا تَكُونُ رِسَالَاتُهُ مَظْهَرًا لِبَرَكَاتِهِ، كَمَا الرِّيحُ الْخَيْرِ.

ثانياً: لَقَدْ فَسَّرَ آلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ السَّحَابَ بِالرِّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ فَسَّرُوا إِحْيَاءَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِأُثْمِهِ الْهَدْيِ.

وَ جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ ذَلِكَ جَاءَ فِي حَقِّ صَاحِبِ الْأَمْرِ الْقَائِمِ (عَج).

فَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» قَالَ:

ص: ٩٩

«يحييها الله تعالى بالقائم بعد موتها-يعنى بموتها كفر أهلها-و الكافر ميّت» (١) إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ

ص: ١٠٠

١-٦) كمال الدين و تمام النعمه/ص(٦٦٨).

اشاره

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعِيدٍ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعِيدٍ قُوَّةً ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ
(٥٤) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّا كُنَّا لَا نَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْتَطَلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ لَا يَسْتَخْفِكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

اللغه

٥٤[شبيهه]: حال الشيخوخه و الهرم.

٦٠[لا يستخفك]: لا يستفزك.

ص: ١٠١

هدى من الآيات:

تقلب البشر في كَفِّ التقدير دليل على قدره المدبّر، كما أن تقلّبات الأرض تجليات قدره ربنا سبحانه، وفي دروس مضت ذكرنا السياق بتغيّرات الطبيعة، وها هو الدرس الأخير يذكّرنا بأن الله سبحانه و تعالى خلق الإنسان من ضعف، ويردّه الى ضعف من بعد قوه، فهو الذى يخلق ما يشاء (و ليس البشر نفسه) و هو العليم القدير.

و سفينه الزمن تحمل البشر عبر أمواج المتغيرات إلى شاطئ الساعه حيث يواجه الحساب، أما المجرمون فإنهم يقسمون ما لبثوا غير ساعه، لأنهم كانوا يؤفكون، بينما يعرف أهل العلم و الايمان ان هذه نهايه المطاف، إنّه يوم البعث الذى لم يعلموا عنه شيئاً، و هنا لك لا تنفع الظالمين المعذره، و لا هم يسألون عن ذنوبهم، بل يلقون جزاءهم بلا عتاب استخفافاً بهم.

و هكذا لم يدع القرآن حقيقه إلا و بينها عبر مثل، و لكن الكافرين لن ينتفعوا به لأنهم يجحدون به. بلى. إن قلوبهم مغلقة و لا بد أن يصبر المؤمنون، و لا تدعوهم إثارات الكفار إلى العجله.

بينات من الآيات:

(٥٤) نظره المؤمن إلى الزمن تختلف عن غيره، إذ انه يستوحى من التغيرات الطارئة إيمانا و معرفه بالحقائق الثابته، و يستشهد بها على ما سيحدث مستقبلا، أمّا الكافر فإنه ليس لا- يستوحى من التحولات و التغيرات الطارئة عبره، بل و تشوش رؤيته هذه التحولات أيضا.

إن هذا التطور في حياه الإنسان يدل على أن الإنسان هو الإنسان نفسه، و لكن التغيير إنما طرأ على شىء خارج ذاته، فالقوه التي كانت ضعفا في الصغر، و تعود ضعفا في الكبر ليست من ذات الإنسان، و إلا لاستمرت معه، و العلم ليس من ذات الإنسان، و إلا لكان يلزمه، و لكن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، فجعل لنا السمع و الأبصار و الأفئده، و كل شىء فيك سوف يزول.

□
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ و لم يكن خلق الإنسان أساسا من ماده الضعف، لأن الله جلّ و علا يخلق الأشياء بالإرادته الإلهيه (كن فيكون) و انما جعله ضعيفا، لأنه خلقه من التراب، أو كان الضعف أساس خلقته، و واقع ذاته،

جاء في دعاء مأثور عن الامام الحسين عليه السلام :

«أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرا في فقرى؟! أنا الجاهل في علمي،

فكيف لا أكون جهولاً في جهلى؟!» (١) ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفِ قُوَّةٍ فِي شَبَابِهِ حَتَّى كَهَوْلَتَهُ، إِذَا الْقُوَّةُ لَيْسَتْ مِنْ ذَاتِ الْبَشَرِ.

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً وَهَذَا الضَّعْفُ الثَّانِي يُعْتَرِيهِ نَتِيجَةُ الْمَرَضِ أَوْ نَتِيجَةُ الشَّيْخُوخَةِ. وَ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ مَرَضَ الشَّيْخُوخَةِ لَا يُعَالَجُ إِذْ أَنَّهُ يُتَسَبَّبُ مِنْ انْعِدَامِ أَوْ ضَمُورِ خَلَايَا الْمَخِّ الَّتِي لَا تَعْوِضُ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ.

قال بعض الشعراء:

عجوز تمت أن تكون فتيه و قد شاب منها الرأس و احدوب الظهر

فمرت على العطار يصلح شأنها فهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ هَذِهِ التَّحَوُّلَاتُ الَّتِي تَجْرِي عَلَى الْإِنْسَانِ تَكْشِفُ عَنْ قَدْرِهِ اللَّهُ وَ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ.

ان أعظم آية على قدره الرب انه يقلب الإنسان من حال إلى حال، في إطار تقدير حكيم، و تدبير رشيد، حتى يعرف انه القادر المهيمن العليم الحكيم،

جاء في دعاء الامام الحسين عليه السلام :

«إلهي علمت باختلاف الآثار، و تنقلات الأَطوار أن مرادك مني أن تتعرف

ص: ١٠٤

١- (١) مفاتيح الجنان/ص (٢٧١).

التي في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء» (١) (٥٥) لا- يتوقع المجرم امثاله للمحاكمه، و تراه يسوف في نفسه الجزاء، و يتمنى لو أنه لا يأتيه أبدا، و لكن المكتوب عند الله غير ذلك تماما، فكل يوم يمر يقربه إلى يوم الجزاء خطوه و ما دامت الساعه آتية، و ما دمنا امتطينا صهوه الأجل، فلا بد أن نلتقى يوما و إياها.

و لهول المفاجئه يحلف المجرم إنما لبث ساعه واحده، و هي اللحظه العابره من الوقت، و هكذا تتلاشى المسافه آنئذ بين لحظه الذنب و لحظه الحساب، و فعلا- ما هي قيمه أيام الدنيا بالقياس إلى الخلود، بل ما وزن اللحظات العابره التي يقضيها المجرم مع شهواته بالأحقاب التي يلبثها عند الجزاء.

و هكذا يحلف المجرم بأنه ما لبث غير ساعه، و لعله صادق بالقياس إلى الموازين التي اختلقها بنفسه فيما يرتبط بالعقاب، فهو كان يزعم انه لا يأتيه أبدا، أو إذا كان يأتيه فهو بعيد، و بعيد جدا في زعمه، و هكذا كذب على نفسه، و صرف ذاته عن الحقيقه بهذا التسويف و تلك التمنيات.

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ [□] بأهوالها، و صعقه مفاجئتها، و عظيم وقعها في السموات و الأرض، يومئذ..

يُقَسِّمُ الْمُجْرِمُونَ و هم الذين ارتكبوا الموبقات ظانين ألا جزاء ينتظرهم.

ص: ١٠٥

مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ حَتَّى كَانَهُمْ يَؤَاجِهُونَ الْجَزَاءَ فَوَرَّاتِنْتَهَاءَ مِنَ الْجَرِيمَةِ.

و لو أننا ننتبه إلى مدى سرعه طي الزمن، و مدى اقتراب الأجل، و كيف أنّ العقاب أقرب بكثير مما نتصور، و أنّ المسافه التي نتخيلها تفصل بيننا و بين الجزاء ليست إلاّ و هما، إذا لارعوينا.

هكذا يقول المؤمنون في دعائهم لربهم:

«و لو خفت تعجيل العقوبه لاجتنبتة» و يقولون:

«اللهم عظم بلائى، و أفرط بى سوء حالى، و قصرت بى أعمالى، و قعدت بى أغلالى، و حبسنى عن نفعى بعد املى، و خدعتنى الدنيا بغرورها، و نفسى بجنايتها، و مطالى يا سيدى» (١)

و يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام :

«أيها الناس إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى، و طول الأمل، فاما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، و أمّا طول الأمل فينسى الآخره» (٢) كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ

ص: ١٠٦

١- ٣) رائعه من دعاء الكميل للإمام على عليه السلام /مفاتيح الجنان/ص(٦٣).

٢- ٤) نهج البلاغه/الخطبه(٤٢)/ص(٨٣).

و يصرفون عن الحق، و يزعمون أنّ الجزاء بعيد، أو أنه لا يأتي أبداً، و السؤال:

من الذى يصرفهم عن الحق؟ الجواب: قد يكون الشيطان أو المجتمع الفاسد أو هوى النفس، و بالتالى أتى كان عامل الضلاله فإنهم لا يمكنهم أن يغيروا الواقع بتمنياتهم الحلوه، كلاً..الجزء آت، و سوف يقولون عنده أنهم لم يلبثوا غير ساعه.

و لعلّ كلمه «كذلك» هنا توحى بأنّ ضلالتهم فى معرفه مده لبثهم تشبه ضلالتهم فى إبعاد فكره الجزاء عن أذهانهم.

و من هنا ينبغى أن يتضرع الإنسان إلى ربّه ألا ينسيه الآخره، و أن يقصر أمله بحسن العمل.

(٥٦) أمّا المؤمنون فإنّهم على يقين من الآخره، و يحذرون الحساب، و يشفقون من الساعه، و يسعون دائبين لاتقاء عذاب ربهم، فلذلك لا تفاجأهم الساعه، أو ليسوا قد أعدوا عدّتها، و تزودوا لرحلتهم إليها الزاد الأوفى؟ [□] وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَعَلَّ الْعِلْمَ هُنَا هُوَ عِلْمُ السَّاعَةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْآيَةِ:

و لِكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَمَّا الْإِيمَانُ فَهُوَ التَّصَدِيقُ لِمَا يَقْتَضِيهِ الْعِلْمُ بِالْقَوْلِ الصَّادِقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ لَيْسَ الْمَهْمُ الْمَدَّةُ الَّتِي لَبِثْتُمْ خِلَالَهَا، طَالَتْ أَمْ قَصُرَتْ، الْمَهْمُ أَنْكُمْ بِالتَّالِيِ وَاجِهْتُمْ مَا هَرَبْتُمْ مِنْهُ بِزَعْمِكُمْ.

و لعلّ التعبير ب «فى كِتَابِ اللَّهِ» يشبه ما نقوله: (فى الواقع) أى انه بعكس

تمنياتكم بالألا- تأتي الساعه أو أن تطول المسافه بينكم و بينها لم يقع ما هوت أنفسكم، بل وقع ما أراد الله، و ما أثبتته فى كتابه الذى هو مقياس الحق، و ليس أهواءكم و تمنياتكم و ما تشتهيئه أنفسكم.

إن أهم ما ينبغى أن يعرفه الإنسان أنّ العالم المحيط به لا يتبع أهواءه، ولا يمشى حسب أحلامه، بل حسب ما كتب الله.

فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ الَّذِي أَنْكَرْتُمُوهُ وَ لَمْ يَجِدْكُمْ أَنْكَارَكُمْ لَهُ نَفْعًا، بَلَى. إِنَّ أَنْكَارَكُمْ أَفْرَزَ نَتِيجَةً وَاحِدَةً هِيَ جَهْلُكُمْ وَ عَدَمَ اسْتِعْدَادِكُمْ.

وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَ نَسْتَوْحَى مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَعِيشُ الزَّمَانَ، وَ لَا يَعْتَرِفُ بِالنِّهَايَةِ، وَ لَا يَحْتَرِمُ وَقْتَهُ الَّذِي يَسُوفُهُ إِلَى تِلْكَ النِّهَايَةِ الْفُظِيْعَةِ، بَيْنَمَا الْمُؤْمِنُ يَعِي حَقِيقَةَ الزَّمَنِ الَّتِي هِيَ فِي صِلَتِهِ الْوَحِيدَةِ، وَ يَتَحَسَّسُ بِمُرُورِهَا، فَلَا يَدْعُ سَاعَهُ مِنْ وَقْتِهِ دُونَ أَنْ يَمْلَأَهَا عَطَاءً لِيَتْرُدَ بِهِ لِيَوْمِ فَاقَتِهِ «يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

بلى. إن منطق المؤمن من الزمن يجسده

الامام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام حين يناجى ربه قائلاً:

«و أعنى بالبكاء على نفسى، فقد أفنيت بالتسوييف و الآمال عمرى، و قد نزلت منزله الآيسين من خيرى» ثم يضيف ضارعا:

«و مالى لا- ابكى و لا- ادري الى ما يكون مصيرى، و ارى نفسى تخاد عنى و ايامى تخاتلنى و قد خفت عند رأسى أجنحه الموت» ثم يصور نفسه الساعات الرهيبة التى تنتظره لكى يتزود لها و يقول:

«فمالى لا أبكى، أبكى لخروج نفسى، أبكى لظلمه قبرى، أبكى لضيق لحدى، أبكى لسؤال منكر و نكير اياى» و يبلغ ذروه ضراعتة عند تذكر أهوال الساعه فيقول:

«أبكى لخروجى من قبرى عربانا ذليلا، حاملا ثقلى على ظهري، أنظر مره عن يمينى، و أخرى عن شمالى، إذ الخلائق فى شأن غير شأنى، لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه، و جوه يومئذ مسفره، ضاحكه مستبشره، و جوه يومئذ عليها غبره، ترهقها قتره و ذله» (١)
(٥٧) لعل الشيطان يسؤل للعاصى فعل المحرمات بأن الآخره مثل الدنيا، إذا ارتكب جريمه تنصل عنها، و اعتذر، فتقبل معذرتة، يقول ربنا لعلاج هذا الوسواس:

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِذَرَتُهُمْ وَ أَسَاسًا إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ هُوَ الْجَزَاءُ، لَدَلِكْ لَا يَطَالِبُ الظَّالِمُونَ بِالتَّوْبَةِ، لِأَنَّ فَصْتَهُمْ قَدْ
انتهت.

وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

ص: ١٠٩

١-٥) روايع من دعاء أبى حمزه الثمالى/ مفاتيح الجنان/ ص (١٩٣).

(٥٨) وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ يَبَيِّنُ الْقُرْآنَ لَنَا مِنْ كُلِّ حَقِيقَةٍ فِي الْخَلْقِ أَوْ فِي النَّفْسِ جِزْءًا لِنَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ كُلِّهَا، وَلَكِنْ كُلُّ تِلْكَ الْحَقَائِقِ لَا تَنْفَعُ الْكَافِرِينَ رِغْمَ وَجُودِ آيَاتِ الصِّدْقِ عَلَيْهَا.

وَ لَيْسَ جِئْتُهُمْ بِآيَةٍ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ لِمَاذَا يَنْكُرُ هَؤُلَاءِ أَبْدَا الْحَقِّ؟ وَمَا هِيَ عَوَامِلُ الْإِنْكَارِ عِنْدَهُمْ؟ الْجَوَابُ: لِأَنَّهُمْ بَظَلَمِهِمْ فَقَدُوا الْقَدْرَةَ عَلَى الْفَهْمِ.

(٥٩) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لِأَنَّهُمْ تَرَكَوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ بِالرِّسَالَةِ إِلَى الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ، وَعِنْدَ مَا يَتْرَكُ الْإِنْسَانَ عِلْمَهُ إِلَى جَهْلِهِ يَتَحَوَّلُ قَلْبُهُ إِلَى صِنْدُوقِ مَقْفَلٍ، وَمُخْتَمُومٍ عَلَيْهِ.

(٦٠) كَانَ ذَلِكَ مَوْقِفَ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَمَّا مَوْقِفَ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ الصَّبْرُ، وَانْتِظَارَ الْفَرَجِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ آلَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْصُرَ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتَحْفِنُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ وَ هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى عَمَلِهِ، وَ لَا يَتَأَثَّرَ بِمَا يَقُولُهُ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ.

سوره لقمان

اشاره

ص: ۱۱۱

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره:

روى عن الامام الباقر عليه السلام انه قال:

«من قرأ سوره لقمان فى ليله و كلّ الله به فى ليلته ملائكه يحفظونه من إبليس و جنوده حتى يصبح، فاذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس و جنوده حتى يمسى» (١) نور الثقلين/ج(٤)/ص(١٩٣).

ص: ١١٣

لم يكن لقمان نبيا و لكنه كان رجلا حكيما، و كانت حكيمته الهيه، و قد خلدها الذكر الحكيم فى آياته لتكون نيراسا و هدى، و سُمى السوره باسمه ليضرب مثلا من واقع عبد شكر الله فشكره الله، و آتاه الحكمة بفضله.

جمله معارف سوره لقمان التثويه بحكمه الله التى تجلت فى الكتاب و تتجلى فى قلوب المحسنين و لا ينتفع بها المستكبرون.

و لقد آتاه ربنا لقمان، و لخصها فى كلمه هى شكر الله، و فصلها لقمان لابنه فى عشر وصايا تنبعث من الشكر. أولها معرفه الخالق و آخرها عدم التكبر على المخلوقين.

و تبين السوره بتفصيل آيات الله التى تهدي الى توحيده، و توحيد الله هو حدود شكر عباده، اى لا يجوز ان يطيع الفرد والديه إذا أمراه بالشرك بالله.

و ضمن هذا الإطار تنتظم موضوعات سورة لقمان و فيما يلي بعض التفصيل:

الف: ان حكمه الكتاب تنفع المحسنين فتكون لهم هدى و رحمه، و هم الذين يقيمون الصلاة، و يؤتون الزكاه، و يوقنون بالآخرة، فهم أصحاب الهدايه و الفلاح، بينما هنا لك أناس يشتررون بأعمارهم و أموالهم لهو الحديث، من أفكار باطله، و ممارسات ما جنه كالغناء، و هدفهم الضلاله عن سبيل الله، و يحذر القرآن بأن لهذه الطائفه عذابا مهينا.

بينما أعد ربنا للصالحين جنات النعيم. أو ليس ربنا حكيمًا، يعطى كل فريق جزاءه العادل و هو القوى العزيز؟! و لكي نعرف حكمه الله و بالتالي نشكره ليرزقنا من حكمته يذكرنا السياق بخلق السموات بغير عمد يرى، و وضع الجبال في مراسيها لتحافظ على استقرار الأرض، و خلق كل دابه (ممكته التصور) و رزقها عبر النبات الذى ينبتة فى الأرض بالغيث، و يجعله زوجا كريما (بحكمته البالغه) هذا ما خلقه الله، و هكذا خلقه، فما ذا خلق الشركاء. كلا.. ان الظالمين فى ضلال مبين (١١/١).

و يعود السياق لبيان آيات الله (٣٠/٢٠) بعد ان يذكرنا بمفردات الحكمه التى آتاها لقمان و لخصها فى كلمه واحده (شكر الله) ذلك لأن شكر الله لا يتم الا بمعرفته و معرفه آلائه و نعمائه علينا، و أول ما يذكره ان الشكر لله يعود الى نفس الشاكر، لان الله غنى حميد، ثم يذكر بأن شرط الشكر اجتناب الشرك، و ينبغى أن يشكر الإنسان والديه و لكن فى حدود شكر الله، فاذا أمراه بالشرك فلا يجوز إطاعتها.

و لا بد ان يعرف الإنسان انه مسئول عن أعماله، و أنه حتى لو كان العمل بوزن

خردله أتى الله به انى كان(و هكذا تعود الى الإنسان أعماله).

و من مفردات الشكر و بالتالى الحكمة اقامه الصلاه،و الأمر المعروف،و النهى عن المنكر،و الصبر،و من مفرداته المشى هونا،و عدم المشى مرحا،و اجتناب الاختيال و الفخر،و القصد فى المشى،و الغض من الصوت(١٩/١٢).

ثم يذكرنا السياق بنعم الله علينا و التى تستدعى الشكر.أو ليس كل شىء نقدر عليه فانما سخره الله لنا،و أسبغ النعم ظاهره و باطنه،بينما نجد البعض يجادل فى الله بغير أثاره من علم أو هدى أو كتاب منير.

و هم يتبعون آباءهم الذين اتبعوا الشيطان، و أكد ربنا ان الخوف من الآباء لا أساس له،لان التسليم لله وحده،و الإحسان الى العباد يجعل العبد مصونا من الأشرار،لأنه العروه الوثقى،و لأن لله عاقبه الأمور.

أما الكفار فإنهم لا يحزنون المؤمنين لأن عاقبتهم الى الله الذى يجازيهم،بلى.

يمتعهم فى الدنيا قليلا(دون ان يدل ذلك على قربهم الى الله)ثم يضطرهم الى عذاب غليظ.

و يذكر السياق بعشر أسماء حسنى لرب العالمين مع تقديم شواهد حقّ عليها، لترسيخ قواعد الايمان فى قلوبهم،فالله هو الخالق العزى لا- ينكر أحد ذلك،و هو الغنى الحميد،فه ما فى السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم العزى لا تحصى كلماته و هو السميع البصير.

و هو الخبير الذى يولج الليل فى النهار،و النهار فى الليل،و قد سخر الشمس و القمر و أجراهما فى المسير المحدد لهما.

و هو الحق الذى لا يزال ملكه، بينما يبطل ما يدعون من دونه و هو العلى الكبير.

و الله يهدى الناس عبر آياته، و لكن الذين يعيشون الصبر و الشكر يهتدون بها، و يعرض ربنا سبحانه الناس لبعض الساعات الحرجه ليتضرعوا اليه، و لكنهم بعدها ينقسمون فريقين فمنهم مقتصد و منهم جاحد، و الجاحد هو كل ختار كفور، و هو الذى لا يفى بوعدده و لا يشكر نعماء ربه.

و يحذر ربنا الناس من يوم القيامة حين لا تنفع العلاقات النسبيه الحميمه، و يؤكد لهم ان وعده حق، فلا تغرنهم الدنيا و أهلها(و بذلك يلخص الرب التحذير من عوامل الانحراف).

و فى الخاتمه يذكرنا بعلمه المحيط و قدرته الواسعه.

ص: ١١٨

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّوْهُ بَعْدَآبٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)

اللغه

٦[لهو الحديث]:الباطل الملهى عن الخير.

٧[وقرا]:الوقر الحمل الثقيل،أى كان فى مسامعه حمل ثقيل يمنعه عن الاستماع،حتى يهتدى.

١٠ [أن تميد بكم]: لثلا تضطرب بكم.

ص: ١٢٠

هدى من الآيات:

تدور الآيات فى هذا الدرس حول موضوع الإحسان، الذى يجب ان يكون صيغه العلاقة بين الإنسان و الآخرين، و لا ريب ان سعى البشر لبناء المستقبل الفاضل لنفسه طموح شريف، اما إذا كان هذا السعى مبتيا على أساس الاستثثار و الأخذ من الآخرين فقط فهو أمر مرفوض، إذ ينتهى بالمجتمع الى الصراع و الشقاء، من هنا يحث القرآن الحكيم على علاقه متوازنه، تعتمد ركيزتى الأخذ و العطاء، التى لو انتهجها المجتمع لتدرج نحو الكمال الحضارى لاین العلاقة حينها ستكون البناء و التكامل بين افراد المجتمع، و على عكس ذلك العلاقة المعتمده على عباده الذات و محوريه المصلحه، حيث تصل بالمجتمع الى حضيض التخلف و الانهيار، و يصبح الشغل الشاغل لكل فرد آنذ هو افتراس الآخرين بأيه وسيله كانت، و لا غرابه ان تؤكد هذه السوره المباركه على ضروره العطاء، و تبتدى بعباره « وَ رَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ » لاین السبيل الى رحمه الله هو العمل برسالته، و لا- يتأتى ذلك الا بالإحسان و العطاء.

و لكي تحل علينا رحمه الرب لا- بد ان نحسن للآخرين فنأخذ منهم لنعطيهم، و إلا- فلن تكون رحمه من نصينا و لا الهدى. لماذا؟ و ما هي علاقة الإحسان بالهداية في حياة الإنسان؟ و الجواب: ان الذي يعيش حاله مناقضه للإحسان كابتزاز حقوق الآخرين، انما يقوم بذلك لما يعيشه من حب مفرد للذات، فلا يرى من هذا الكون الرحيب سوى نفسه، فيعبد هواه، و بالتالي يتعد عن الحق، و هكذا يكون مقياسه المصلحه لا القيم، و هدفه الذات لا الحق و هذا يسبب كل انحراف. ان العقل و الرسائل الإلهيه توجه الإنسان الى حقائق الخليقه، بينما توجهه شهواته و هواؤه الى داخل ذاته و من هنا فان استمرار اتباع الهوى يطفى شعله العقل، و هذا هو الضلال البعيد، و من هنا يؤكد ربنا بأن المحسن هو الذي يصيب طريق الهدى في عالم المعنويات، و رحمه في عالم الماده، و التي هي الأخرى نتيجة للهدى.

و لو تدبرنا آيات القرآن لوجدنا ان من أهم ميزات الأنبياء الإحسان الى الناس، بل و قد تكون العامل الهام في اصطفائهم للنبوه.

قال تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١)** و قال عن النبي موسى عليه السلام: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢)** و أكد ربنا هذا المعنى بصوره عامه إذ قال:

ص: ١٢٢

١-١ (١) يوسف/ (٢٢).

٢-٢ (٢) القصص/ (٢٨).

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْرِ الْآلِحَافِ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (١) وعلنا نستوحى من آيات الذكر ان الذين يتخذون الدين وسيله لابتزاز الآخرين و استغلالهم، أو مطيه للمصالح و الأهواء، لا يفهمون الدين فهما حقيقيا و عميقا-لأنه لا يفهمه الا من كان محسنا، بعيدا عن شهواته و اهوائه-، وَ نُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٢) و بالرغم من أن الجميع يطمحون الى الإحسان، الا أنهم يجدون أيديهم و أنفسهم مقبوضه عن العطاء حينما ينزلون إلى ساحه العمل، فكيف نخلق صفه الإحسان في أنفسنا؟! بالصلاه لأنها تخلق في الإنسان دوافع الإحسان، و بالزكاه لأنها تطهر القلب من حب الذات كما تطهر المال، و كذلك باليقين، فكلما تأكدت الحقائق عند الإنسان كاليقين بالموت و بما بعده من الجزاء كلما كان أكثر إحسانا للآخرين، إذ يتأكد بان ما يعطيه لا يذهب سدى، بل يعود إليه في صوره جنات أعدها الله للمتقين، فهو آنذا لا يعتبر المغنم ما يصرفه على نفسه، بل المغنم كل المغنم هو ما ينفقه في سبيل الله.

و في السيره ان رسول الله صلى الله عليه و آله ذبح شاه و تصدق بها و لم يبق الا الكتف، فقالت له عائشه: لم تبق الا الكتف يا رسول الله! فقال صلى الله عليه و آله: لم يذهب الا-الكتف، لأنه يعلم بان ما يأكلونه يتنعمون به و ينتهى، بينما يبقى ما يعطونه صدقه في سبيل الله، و ينفعهم في يوم لا ينفع فيه الا العمل الصالح.

ص: ١٢٣

١-٣ الأعراف/ (٥٦).

٢-٤ الإسراء/ (٨٢).

و فى نهايه الدرس يحدثنا القرآن الحكيم عن الطرف المقابل من الذين يقتصدون لهو الحديث، لان الأشياء تعرف بأضدادها، و بينما يهتدى أولئك لآيات الله، يصد هؤلاء عنها، كأن فى آذانهم وقراء، و ليس جزاء هؤلاء سوى النار.

بينات من الآيات:

(١) الم كما احتملنا سابقا: ان الاحرف التى ترد فى أوائل السور رموز لا يعلمها الا الله و الراسخون فى العلم، و يحتمل ان تدل على ألفاظها.

(٢) و من تركيب هذه الأحرف البسيطة فى ظاهرها، انزل الله سبحانه القرآن و آياته، فى كتاب ثابت ينبعث بالحكمه.

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٣) كما تعطى هذه الآيات الهدى و البصائر للمحسنين.

هُدًى وَ رَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ و الإحسان ليس رحمه للمجتمع و حسب، بل هو هدى له أيضا، إذ يهديه الإحسان الى سبل استغلال الطبيعه و تسخيرها فى خدمه الإنسان، ذلك ان من صفات المجتمع الايمانى، بحث افراده عن وسائل للعطاء و الإحسان، و لا يمكنهم ذلك الا- بتسخير الطبيعه، مما يدفعهم لاستغلالها، و اعمال عقولهم بحثا عن حل لكل المشاكل و العقبات التى تعترض هذا الهدف، و بالتالى فان أبوابا كثيره سوف تنفتح أمامهم، و كلها طرق جديده للسيطره على الحياه و استغلالها، و هذا جانب من الهدايه. أو ليست الحاجه أم الاختراع!؟

(٤) و لكن كيف يمكن ان نوجد صفه الإحسان فى المجتمع؟ ١-بالصلاه لأنها معراج الروح نحو الفضيله، باعتبارها تقرب الإنسان الى رب العالمين.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ و اقامه الصلاه بالمعنى الحقيقى تتضمن بل تستدعى الإحسان، كما ان الصلاه تأتى نتيجه الإحسان، أليس المحسن يهديه الله؟! أو ليس الإحسان يروض النفس و يزكيها؟! ٢-بالزكاه التى تربي الروح على الإحسان، و تطهرها من حب الذات.

و يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ و الزكاه ليست مجرد واجب دينى يقوم به المؤمن، بل هى برنامج يدرّ به على الإحسان، و منطلق له نحو العطاء.

٣-باليقين بالآخره، فالذى يقتصر نظره على الدنيا يكون منتهى السعاده عنده ان يتنعم و يستلذ حتى يعتقد كما قيل: ان الحياه لذه و شهوه، اما الآخر الذى يتيقن بالآخره (الجزاء) و ان مستقبله فيها قائم على ما يقدمه فى سبيل الله هنا فى الدنيا، فهو يكتفى بما يقيم أوده لنفسه، و يدخر ما سواه لآخرته.

و هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٥) و يؤكد القرآن الكريم: ان هذه الصفات دليل على الهدى من جهه، و سبب الفلاح من جهه أخرى.

أَوْلِيَّتِكَ عَلَيَّ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا بِالْهُدَى وَالنَّمُو الْعَزِي يَسْبِيهِ الْإِحْسَانُ، وَمُحِبِّهِ النَّاسَ لَهُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ بِجِزَاءِ اللَّهِ لَهُمْ، وَإِذْ يَحْدُثُنَا اللَّهُ بِصِيغَةِ الْمَجْتَمَعِ عَنْ تَجْمَعِ بِصِفَةِ عَامِهِ وَ لَيْسَ عَنْ فَرْدٍ وَاحِدٍ، فَلَأَنَّ الْإِحْسَانَ بِالنَّسْبَةِ لِفَرْدٍ وَاحِدٍ يَعِيشُ فِي مَجْتَمَعٍ فَاسِدٍ قَدْ لَا يَنْفَعُهُ فِي الدُّنْيَا، أَمَا إِذَا كَانَ ضَمَّنَ تَجْمَعٍ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فَانَّهُ سَيَكُونُ ذَا جَدْوَى فِي الْآخِرَةِ وَ الدُّنْيَا أَيْضًا، بِتَعْمِيقِهِ رُوحَ الْمُحِبَّةِ وَ الْوَتَامِ دَاخِلَ الْمَجْمُوعِ.

(٦) وَ لَأَنَّ مِنْ مُمَيَّزَاتِ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ أَنَّهُ يَعْرِفُنَا مَخْتَلَفَ الْمَسَائِلِ وَ الْحَقَائِقِ بِذِكْرِ أَضْدَادِهَا، بِذِكْرِ النَّارِ يَعْرِفُنَا الْجَنَّةَ، وَ بِذِكْرِ الْكُفْرِ يَعْرِفُنَا الْإِيمَانَ، نَجِدُهُ هُنَا أَيْضًا يَحْدُثُنَا عَنْ الْحَالَةِ الْمُخَالَفَةِ لِلْإِحْسَانِ.

فَهَنَّاكَ مِنْ يَنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ الْهُدَايَةِ، وَ هُوَ بِالتَّالِيِ يَمَهِّدُ أَرْضِيهِ الْهُدَى لِنَفْسِهِ بِإِحْسَانِهِ وَ إِتْقَانِهِ، وَ هَنَّاكَ مِنْ يَنْفَقُ فِي سَبِيلِ الضَّلَالِ وَ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثِ.

كِلَاهُمَا يَعْطَى مِنْ نَفْسِهِ وَ مَالِهِ وَ لَكِنْ هَذَا لِلْهُدَى وَ ذَاكَ لِلضَّلَالِ.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَكِنْ لِمَاذَا يَكُونُ الضَّلَالُ هَدَفًا هُؤُلَاءِ؟ حَتَّى أَنْتَ تَجِدُهُمْ يَشْتَرُونَ (لَهُوَ الْحَدِيثِ)؟ لِأَنَّهُمْ يَرُونَ الْحَقَّ يَنْقُضُونَ أَنَاثَاتِهِمْ، تَمَامًا بِعَكْسِ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَرُونَ الْحَقَّ مُحَوَّرَهُمْ، وَ قَلْبَ الْإِنْسَانِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فَارِغًا أَبَدًا، فَإِذَا لَمْ يَمَلَأْهُ بِالْإِيمَانِ وَ الْعِلْمِ، فَسَيَكُونُ بَيْتًا لِلَّهِوَ وَ الْإِنْحِرَافَاتِ.

و اللّهُ هو القول و العمل الّذى يخلو من أى هدف، و هو فى النّهاية يعود على الإنسان بالخسران، فهو لا يشتري اللّهُ بدرهم معدوده، انما يدفع من أجله عمره الغالى و ما يملك من فرص، و مثال ذلك الّذى يشتري الافلام و الاشرطه و المجلات و الكتب المنحرفه، و من الطّبيعى ان يتعد هذا الإنسان عن آيات اللّهُ و يرفضها.

وَ يَتَّخِذُهَا هُزُوءًا عَلَى عَكْسِ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِالْآيَاتِ هُدًى وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ وَ هَذِهِ مِنْ أخطَرِ المراحلِ الّتى يصل إليها البشر فى الضلال.

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ لاسْتَهْزَأْتَهُمْ بِآيَاتِ اللّهِ، و استكبارهم عليها.

و الملاحظ أن السياق ربط بين الإحسان و الهدى، و لكنه لم يسمّه (شراء الهدايه) بينما سُمى الإنفاق فى سبيل الضلال (بشراء لهو الحديث) و ذلك لان الهدايه من اللّهُ، و هى أعز من أن تشتري.

كما ان هناك مفارقة بين الكتاب الحكيم و بين لهو الحديث، كما بين الهدى للمحسنين و الضلال لمن يشتري لهو الحديث.

و مفردات لهو الحديث كثيره تشير الى بعضها الروايه المأثوره عن الامام الصادق عليه السلام حيث قال:

«هو الطّعن فى الحق، و الاستهزاء به، و ما كان ابو جهل و أصحابه يحيون به، إذ قال: يا معاشر قريش ألا أطعمكم من الزقوم الّذى يخوفكم به صاحبكم؟ ثم أرسل الى زبده و تمر، فقال: هذا هو الزقوم الّذى يخوفكم به» قال: «و منه

الغناء» (١) وقد استفاضت الأحاديث المأثوره فى تفسير هذه الآيه بالنهى عن الغناء، باعتباره من لهو الحديث.

نقرأ معا بعض تلك النصوص.

جاء فى الأثر عن الامام الباقر عليه السلام انه قال:

«الغنا مما أوعده الله عز و جل عليه النار» وتلا هذه الآيه (٢)

و روى عن الامام الصادق عليه السلام انه قال:

الغنا مجلس لا ينظر الله الى اهله و هو مما قال الله عز و جل و قرأ: «[□] وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ [□]» (٣)

و روى أبو امامه عن النبى صلى الله عليه و آله انه قال:

لا يحل تعليم المغنيات، و لا بيعهن، و أثمانهن حرام، و قد نزل تصديق ذلك فى كتاب الله «[□] وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ [□]» (٤)

و جاء فى حديث مروى عن الامام الصادق عليه السلام و هو يعدد مفاسد الغناء:

«بيت الغناء لا تؤمن من فيه الفجيعة، و لا تجاب فيه الدعوه، و لا يدخله الملك» (٥)

ص: ١٢٨

١-٥) نور الثقلين / ج (٤) / ص (١٩٥).

٢-٦) المصدر / ص (١٩٤).

٣-٧) المصدر.

٤-٨) المصدر.

٥-٩) وسائل الشيعة / ج (١٢) / ص (٢٢٥).

و جاء فى نص آخر مأثور عنه أيضا قال:

«الغناء يورث النفاق، ويعقب الفقر» (١) و يبدو ان حكمه تحريم الغناء فى الشريعة الاسلاميه تشابهه و حكمه تحريم الخمره و المسكرات و المخدرات و القمار، حيث أنها جميعا تلهى الناس عن ذكر ربهم، و تنسيهم الآخره، و تخدّرهم فيما يتصل بمشاكل حياتهم، و هى بالتالى نوع من الهروب عن مواجهه تحديات الحياه التى يتناسونها عبر الملهيات، كما انها تجر المجتمع الى المفاسد الاجتماعيه، التى تسبب الصراعات و تزرع النفاق.

و لهذا أكد رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله على هذا الجانب، فيما

رواه عنه احمد امام المذهب، عن ابن مسعود انه قال:

«الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» (٢) و الغناء يشجع أيضا الفساد و الجنس، و يتخذ أصحاب الهوى وسيله لاثاره شهواتهم، و اتخاذ السبل السيئه لاشباعها مما يهدد التماسك الأسرى بأخطار كبيره.

من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السلام حول الغناء... انه سئل عن كسب المغنيات فقال:

«التي يدخل عليها الرجال حرام، و التى تدعى الى الأعراس ليس به بأس» (٣)

ص: ١٢٩

١- (١٠) المصدر/ص (٢٣٠).

٢- (١١) تفسير نمونه/ج (١٧)/ص (٢٢) نقلا عن تفسير روح المعانى للألوسى عند تفسير الآيه.

٣- (١٢) نور الثقلين/ج (٤)/ص (١٩٤).

و فى الغناء بالاضافه الى كل ذلك حاله إدمان كما المسكرات و المخدرات، لأنها تخلف آثارا خطيره على شبكه الأعصاب، و من هنا دلت البحوث التى أجريت فى حياه كبار رجال الغناء و الموسيقى، أنهم تعرضوا لمتاعب روحيه، حتى أنهم فقدوا قدراتهم العصبية، و ابتلى بعضهم بأمراض نفسيه، و فقد البعض منهم مشاعرهم، و انتهى ببعضهم المطاف الى المصحات العقليه، أو أصيبوا بالشلل، و بعضهم تعرض لموت الفجأه بسبب ارتفاع ضغط الدم عند ضرب الموسيقى. (١)

(٧) و لا يمكن ان تنطفئ شعله الهدى من قلب البشر بصفه كليه، بل لا بد ان يبقى فيه و ميض من نور العقل مهما تراكمت عليه الشهوات، هكذا أراد الله ان يقيم الحجه عليه أبدا من نفسه.

فبالرغم من وصول فرعون الى قمه العناد، حيث ادعى الربوبيه، و لكنه ما استطاع إطفاء الفطره داخله، و إذا به يقول « آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى » بلى.

يمكن للبشر أن يخالف فطرته فى فكره و سلوكه، لذلك تجده يسعى جادا للانفلات من و خز ضميره، و يهرب من أسباب هدايته.

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَ لَى مُسْتَكْبِرًا عَنَّا مِنْهُ.

كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا وَ لَمْ يَقُلْ لَمْ يَسْمَعْهَا، و هذا دليل على الاختيار، فالإنسان هو الذى يختار بنفسه لنفسه ان لا يسمع نداء الفطره و لا آيات ربه مع تمكنه من الاستماع لذلك.

ص: ١٣٠

كَأَنَّ فِي أذُنَيْهِ وَقْرًا وَهُوَ الثَّقَلُ فِي السَّمْعِ أَوْ الصَّمَمِ، وَهَذَا الْوَقْرُ أَوْ الْحِجَابُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآيَاتِ يَكُونُ تَارَهُ بِسَبَبِ الْأَفْكَارِ الْمَسْبُوقَةِ، وَتَارَهُ أُخْرَى بِسَبَبِ الْعَوَامِلِ الْآتِيَةِ كَالِاسْتِكْبَارِ، وَعَمُومًا فَانَ الْمَقَائِيْسُ الْخَاطِئَةُ الَّتِي يَعْتَمِدُهَا الْإِنْسَانُ فِي تَقْيِيْمِهِ لِلْأَفْكَارِ وَالْأَشْخَاصِ وَالْأَشْيَاءِ هِيَ السَّبَبُ فِي النَّتَائِجِ الْخَاطِئَةِ.

فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ هُنَاكَ قَالَ رَبَّنَا «مُهَيِّنٌ» لِأَنَّ جَزَاءَ الْاسْتِكْبَارِ فِي الدُّنْيَا الْإِهَانَةُ فِي الْآخِرَةِ،

حَتَّى جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ يَحْشُرُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي صُورِهِ ذَرَّ يَطَاهِمِ النَّاسِ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْحِسَابُ.

وَهُنَا يَقُولُ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ: أَلِيمٌ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَكْبِرُ، وَيَعْرُضُ عَنِ الْآيَاتِ مِنْ أَجْلِ التَّلَذُّذِ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَجَزَاءُ ذَلِكَ الْإِيْلَامُ فِي الْآخِرَةِ، وَيَدُلُّ انْسِجَامُ التَّعَابِيرِ فِي مَوَارِدِ الْعَذَابِ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَبِتَعْبِيرِ أَلْبَغِ الْأَعْمَالِ هِيَ الَّتِي تَتَجَسَّدُ جَزَاءً وَفَاقًا فِي الْآخِرَةِ، بَلْ فِي الدُّنْيَا أحيانًا كَثِيرَةً.

(٨) وَفِي مَقَابِلِ هَذَا الْجَزَاءِ يَأْتِي الْحَدِيثُ عَنِ الْجَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ جَزَاءَ لَهُمْ عَلَى مَا أَنْفَقُوا مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

(٩) وَيَخْتَلِفُ هَذَا النَّعِيمُ عَنِ الدُّنْيَا بِأَنَّ الْجَنَّةَ خَالِدَةً.

خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا

و يدل على صدق وعد الله عزته و حكمته، ذلك أن الذي يخلف الوعد اما يكون قاصرا عن تحقيقه و الوفاء به، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ.

و إما ان يكون عن جهل كأن يعد الإنسان أخاه بشيء ما ثم يكتشف خطأه انه غير قادر على الوفاء فلا يفى بوعدده، و حاشا لله و هو...

الْحَكِيمُ الَّذِي يَحِيطُ عِلْمَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ.

(١٠) و من آيات عزه الله و حكمته الظاهره الإبداع و المتانته المتجليان في خلقه.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَ هَذَا مِمَّا يَزِيدُنَا ثِقَةً بِوَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فهذه السماء الواسعه خلقها و رفعها كالسقف، من دون عمد نراها، و

في الحديث:

«فتم عمد و لكن لا ترونها» (١) و قال البعض: ان المقصود من العمد هو الجاذبيه التي تثبت السماء و ما فيها بقدره الله و حكمته.

و حينما ننظر الى الأرض، نلمس تجليات صفات الله و أسمائه الحسنی في بديع

ص: ١٣٢

١-١٤) نور الثقلين / ج (٤) / ص (١٩٥).

خلقه فيها.

وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ وَ هِيَ الْجِبَالُ.

أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ لِكِي تحافظ على توازن الأرض، و تمنع عنها الحركات، و سميت بالرواسي تشبيها لها بالمرساة، التي تثبت السفينه في البحر. فالجبال التي تتصل ببعضها من تحت الأرض يجعلها شبيهه بدرع صخري متين، تمنع عن الأرض الهزات الهائله التي - كانت- لو لا- الجبال تحول الأرض الى ارجوحه لا تتوقف، و ذلك بفعل الغازات الكثيره الموجوده في وسط الكره الترابيه، و التي منها تأتي الزلازل و انفجار البراكين.

من جهه أخرى كانت جاذبيه القمر تجعل الأرض لو لا الجبال كسطح البحار خاضعه لقانون المد و الجزر، كما ان اعتدال الهواء منوط بوجود الجبال، و لولاها لكان البرد القارص و الحرّ الشديد يجعل الحياه صعبه، كما أن الرياح الشديده كانت تلعب فوق الكره كما في الفلوات الواسعه، و تجعلها ميدان جولاتها الخطيره.

على ان في الجبال منابع الماء، و في داخلها مخازن حفظ المياه من مواسم المطر الى أيام الصيف، و في بطونها معادن لمختلف الفلزات و الأحجار الكريمة و سائر ما يحتاج اليه البشر.

أو ليس كل ذلك دليل قدره الله، و متين صنعه، و حسن تقديره و تدبيره؟! وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ

ص: ١٣٣

و نستوحى من الآيه ان كل نوع ممكن و مناسب من الدواب قد خلقت، فهناك الصغير و الكبير و ما بينهما كثير من الاحجام، و هناك الطائر و الماشى، و الزاحف و الهائم فوق البحار و الغائص فى أعماقها و هكذا، مما جعل داروين يذهب الى نظريته فى أصل الأنواع و تسلسل نشوئها، و الواقع ان انعدام الحلقات التى قيلت بأنها مفقوده فى المخلوقات و عظيم تشابهها و كثره أنواعها جعلت أصحاب نظريه التكامل يذهبون الى ما ذهبوا اليه، و هذا دليل قدره الله، و عظيم تدييره،

و قد سأل على بن الحسن بن على بن فضال عن أبيه عن أبى الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: لم خلق الله سبحانه و تعالى الخلق على أنواع شتى، و لم يخلقهم نوعا واحدا؟! فقال:

«لثلا يقع فى الأوهام انه عاجز و لا يقع صورته فى وهم ملحد إلا و قد خلق الله عز و جل عليها خلقا لثلا يقول قائل: هل يقدر الله عز و جل على ان يخلق صورته كذا و كذا، لأنه لا يقول من ذلك شيئا إلا و هو موجود فى خلقه تبارك و تعالى فيعلم بالنظر إلى أنواع خلقه أنه على كل شىء قدير» (١) فأجابه عليه السلام: انما فعل ذلك حتى لا يقول أحد لو كان قادرا لكان يخلق كذا و كذا، و من كانت هذه قدرته فلما ذا يخلف وعده؟ فليكن عندنا يقين بوعد الله، حينما نستقيم فى سبيله، و هذا ما يدفعنا للإحسان و الإنفاق من أجل الله.

و تستمر الآيه فى ذكر خلق الله فيقول:

وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ وَ هَكَذَا نَجِدُ الْحَيَاءَ يَكْمَلُ بَعْضُهَا الْبَعْضَ الْآخَرَ، وَ تَحْتَاجُ أَجْزَاؤُهَا لِبَعْضٍ، وَ هَذَا

ص: ١٣٤

من حكمه الله البالغه لعلمه بصلاح ذلك.

(١١) ثم يتحدى الله الأنداد.

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ لَمْ يَخْلُقُوا حَتَّى ذَبَابَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ.

بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَهَلْ يَشْكُ أَحَدٌ فِي ضَلَالِ هَذَا الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ حِينَمَا يَدْعَى الْإِلَوهِيَةَ؟!

ص: ١٣٥

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۱۲) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۱۳) وَصَبِّحْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتُهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَيَّ وَهْنٌ وَفَضَّلْتُهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۱۴) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي ۖ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۵) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِرْحِهِ أَوْ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۱۶) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۷) وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (۱۹)

اللغة

۱۴ [فضاله]: فطامه.

[جاهداك]: بذلا ما في وسعهما كي يبذلا دينك.

۱۵ [أناب إلى]: رجع إلى بالطاعة.

۱۶ [مثقال حبه]: مقدار أصغر شيء.

ص: ۱۳۶

١٨] لا تصعر خدك]: لا تمله كبرا و تعاضما، و صعر بمعنى أمال.

[مرحا]: فرحا و بطرا و خيلاء.

[مختال فخور]: متكبر مباه بمناقبه.

١٩] و اغضض من صوتك]: اخفض و انقص من صوتك.

[أنكر]: أقبح، يقال: وجه منكر أى قبيح.

[أسغ]: أتمّ و أوسع.

ص: ١٣٧

هدى من الآيات:

كيف تتكامل البشريه و تحظى بالهدى و السعاده؟ و ما هى الحكمة الإلهيه التى تجعل الفرد فاضلا و المجتمع سويا؟ فى هذا الدرس من هذه السوره إجابته كافيه لمن تدبر عبر وصايا يلقياها الحكيم الالهى لقمان عليه السلام .

فقد أعطاه ربنا الحكمة، و اوجزها فى كلمه « أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ » □ و يبدو ان الشكر جماع فضائل عديده أبرزها:

الف: الاعتراف بفقدان النعمه ذاتا، فلو لا فضل الله علينا لما كُنَّا مخلوقين، و لما كانت لنا الأسماع و الأبصار و الافئده، و من هذا الاعتراف تنبثق فضيله التواضع، و تجنب الخيلاء و الفخر، و عدم تحدى الناس استكبارا و سائر ما ذكر فى الآيات.

باء: التصديق بفضل من أنعم علينا و هو الله سبحانه، و لا يتم التصديق الا

بتوحيده، و الا نشرك به من لا فضل له علينا انى كان حتى و لو كان واسطه وصول الفضل إلينا. و هذا ما أمرت به الآية (١٣) ثم الآية (١٥).

جيم: احترام وسائط الفضل الذين قاموا بدور من وصول النعمه إلينا و أبرزهم الوالدان، و هذا ما أمرت به الآية (١٤) و الآية (١٥) إذ ان اتباع سبيل من أناب إلى الله يشير إلى احترام التجمع الايمانى.

دال: السعى نحو تكريس النعمه، و اتقاء ما يسبب زوالها. أولا: بمعرفه ان عمل الإنسان يؤثر فى بقاء أو زوال النعمه. ثانيا: بإقامه الصلاه، التى هى مظهر الشكر لله. ثالثا: بالدعوه الى الخير و النهى عن الشر و الصبر عند المكاره.

هكذا نعرف ان الشكر لله حقا هو أساس الحكمة الالهيه.

بينات من الآيات:

لقمان الحكيم الالهى:

(١٢) لقد خلد الله لقمان فى كتابه بالرغم من انه لم يكن نبيا، فمن هو و كيف أضحى حكيما؟

فى الحديث الذى يرويه العلامة الطبرسى فى تفسيره مجمع البيان عن نافع، عن ابن عمر، عن الرسول صلى الله عليه و آله نجد الجواب:

سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول:

«حقا أقول لم يكن لقمان نبيا، و لكن كان عبدا كثيرا التفكر، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، و منّ عليه بالحكمه، كان نائما نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان! هل لك ان يجعلك الله خليفه فى الأرض تحكم بين الناس بالحق؟

فأجاب الصوت: إن خيرني ربي قبلت العافيه، و لم اقبل البلاء، و ان هو عزم على فسمعا و طاعه، فاني اعلم انه ان فعل بي ذلك اعانني و عصمني، فقالت الملائكه بصوت لا- يراهم: لم يا لقمان؟ قال: لان الحكم أشد المنازل و آكدها، يغشاه الظلم من كل مكان، ان وفي فبالحرى ان ينجو، و ان اخطأ طريق الجنه، و من يكن في الدنيا ذليلا و في الآخره شريفا خير من أن يكون في الدنيا شريفا في الآخره ذليلا، و من تخير الدنيا على الآخره تفته الدنيا و لا يصيب الآخره، فعجبت الملائكه من حسن منطقته، فنام نومه فأعطى الحكمه، فانتبه يتكلم بها، ثم كان يوازر داود بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمه، و صرفت عنك البلوى» (١) و يبين لنا الامام الصادق عليه السلام تفاصيل أخرى عن حياه لقمان، و السبب الذي جعل به حكيما، نثبت منه بعض النقاط العامه.

قال الامام الصادق(عليه السلام):

«اما و الله ما أوتى لقمان الحكمه بحسب، و لا- مال، و لا- أهل، و لا- بسط في جسم، و لا- جمال، و لكنه كان رجلا قويا في أمر الله، متورعا في الله، ساكتا، مستكينا، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستغن بالعبر، لم ينم نهارا قط، و لم يره أحد من الناس على بول و لا- غائط و لا- اغتسال لشده تستره، و عموق نظره، و تحفظه في أمره، و لم يضحك من شيء قط مخافه الإثم، و لم يغضب قط، و لم يمازح إنسانا قط، و لم يفرح بشيء آتاه من أمر الدنيا، و لا حزن منها على شيء قط، و قد نكح من النساء و ولد له من الأولاد الكثير، و قدم أكثرهم إفراطا (٢) فما بكى على موت أحد منهم، و لم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان الا أصلح

ص: ١٤٠

١- ١) نور الثقلين / ج (٤) / ص (١٩٦).

٢- ٢) من أفرط فلان ولدا أى مات له ولد صغير قبل ان يبلغ.

بينهما، و لم يمض عنهما حتى تحابا، و لم يسمع قولاً قط من أحد استحسنة الا سأل عن تفسيره و عن أخذه، و كان يكثر مجالسه الفقهاء و الحكماء، و كان يغشى القضاء و الملووك و السلاطين فيرثى للقضاء مما ابتلوا به، و يرحم الملووك و السلاطين لغرتهم بالله و طمأنينتهم في ذلك، و يعتبر و يتعلم ما يغلب به نفسه، و يجاهد هواه و يحترز به من الشيطان، و كان يداوى قلبه بالفكر، و يداوى نفسه بالعبر، و كان لا يظعن الا فيما يعنيه، فبذلك أوتى الحكمة و منح العصمه» (١) الإحسان الى الناس ظاهره تنبع من الشكر لله سبحانه، ذلك انه يعنى الرضا النفسى و العملى، الذى ينعكس على السلوك فى صورته عطاء و تضحية و جهاد، مقابله لجميل نعم الله، و إحساسا بالمسؤولية تجاهها. و لكل نعمه شكر يختص بها، تبعاً لمعطياتها، فشكر نعمه العلم نشره و هدايه الناس به:

«زكاه العلم نشره» (٢) و شكر الجاه بذله للمحتاجين:

«زكاه المال بذله» بينما شكر نعمه القوه السعى لتحقيق الأهداف الساميه كاقامه حكم الله فى الأرض من خلال الجهاد الشامل.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ بَدَلِ الْإِنْسَانَ لِلنَّعْمَةِ فِي مَجَالِهَا الَّذِي حَدَدَهُ اللَّهُ هُوَ الشُّكْرُ، وَ سَنَّ اللَّهُ فِي الْحَيَاةِ

ص: ١٤١

١-٣ المصدر/ص (١٩٦-١٩٧).

٢-٤ بحار الأنوار/ج (٧٨)/ص (٢٤٧).

-التشريعيه منها و التكوينيّه-تقتضى بذلك نماء النعمه،فمن حكمه الله ان تسقى السماء الأرض ذات الزرع أكثر من الجرداء،و ان من يستخدم عضلاته أكثر هو الذى تنمو العضلات لديه بينما تضمّر عند الخامل،و أن من يقرأ أكثر ينمو عقله و فكره،و الذى لا يستفيد من النعم أو يستخدمها فى غير مجالاتها المحدده لا تنمو لديه و تكون مضره له،كما لو بذل العلم للتباهى أو المال فى اللهو و اللعب.

وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لَانِ الْمَحْتَا جَ لِلشُّكْرِ هُوَ الْإِنْسَانُ لَا اللَّهُ الْمَتَعَالَى عَنِ الْحَاجَةِ،و الشكر هنا يشمل أيضا الناس،لكن ضمن هدف محدد هو ان يكون ذلك من أجل الله وحده،و طلبا لمرضاته و ذلك كله يعود على الإنسان نفسه،بما يسببه الشكر من انماء النعمه لِيُنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ . (١)

□
وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ و ليس غنى الله كغنى الناس،لان الآخر غالبا ما يتأسس على النهب و الاستغلال،أو يصرف فى سحق الآخرين و ابتزازهم حقوقهم-و هو غيرى- بينما غنى الله ذاتى يتفضل به على الآخرين خيرا و نعمه،و هذا هو الغنى المحمود.

(١٣) ثم تتعرض الآيات لبعض وصايا لقمان عليه السلام لابنه،و التى تشكل أبعاد الحكمة،و مفردات الشكر لله.

و أول ما يفتتح وصاياهم يبين له العلاقة الفاضله التى يجب ان ينتهجها مع الآخرين و التى تقوم على مبدأ التوحيد،فيحذره من الشرك،فالمخضوع المطلق لا

ص: ١٤٢

(١-٥) إبراهيم/ (٧).

ينبغي الا لله سبحانه، أما البشر فيتقبل توجيهاتهم الصائبه، و لكن بشرط المحافظه على استقلاليتهم تجاههم بالتوحيد.

اذن فالتوحيد هو الجوهر الذى يجب على الإنسان اعتماده فى كل سلوك فردى أو اجتماعى و هذا ما دعا اليه كل الأنبياء، و لعل هذا التأكيد على موضوع الشرك فى القرآن يرجع إلى عامل مهم و هو ان مشكله الإنسان فى غالب الأحيان ليس الكفر المحض، فهو يؤمن باله لهذا الكون، انما مشكلته هى الشرك بالله.

وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ مَا هُوَ ذَا الظلم العظيم الذى يفرزه الشرك بالله؟ إن هناك جوانب خفيه، و أخرى ظاهره لهذا الظلم.

حقا ان ضياع الإنسان عن ربه الكريم الذى أسبغ عليه نعمه ظاهره و باطنه، و هبوطه إلى حضيض عباده الأشياء الضعيفه العاجزه التى لا تنفع و لا تضر إنه لظلم عظيم.

ما الذى نجده لو فقدنا رب العزه و هو الرحيم الودود الذى احاطنا بإحسانه، و دعانا الى نفسه، و وعدنا المزيد من عطائه؟! من هو أشد فقرا و فاقه و مسكنه منا حين نضل عن السبيل الوحيد للهدى و الفلاح و الغنى و العز و الكرامه؟! من أكثر عجزا و ذلًا و هوانا منا لو خرجنا من حصن الرب الى مسبعه ذئاب القدره، و حقل ألغام الثروه، حيث المستكبرين فى الأرض بغير الحق..

اللّٰه أكبر.

ما أخسر من ترك متجر ربه و توجه تلقاء غرور الشيطان، و رام عن ربه بدلا.

إن علينا أن نتأمل كثيرا لنعرف هول الابتعاد عن اللّٰه، و أخطار الشرك به في عمق ذواتنا، و في آفاق حياتنا الشخصية.

لكن هذا الظلم العظيم قد يخفى على من لم يتأمل فيه. بيد ان هناك ظلما عظيما ظاهرا يتجلى للناس جميعا، و يتمثل في عاقبه النظام المشرك السائد على الانسانيه جمعا، هذا النظام العالمى الذى انساقت اليه البشريه حين خرجت عن حصن التوحيد و عادت رجال الثروه و القوه و الضلاله.

لا يسع تفسيرنا الموجز لسرد تفاصيل هذا الظلم و لكن لا يسعنا أيضا ان نمر عن هذه الآيه الكريمه دون ان نلقى نظره خاطفه على الحياه من خلالها و عبر بصيرتها النافذه.

و لنتخذ مثلا واحدا من بين الحقائق الأشد ظهورا في حياه الخاضعين للشرك، و نرى اى ظلم عظيم هم فيه.

يقول شاهد من أهل عصرنا ما يلى:

*لو حاولنا إتلاف الأموال التى دفعت للأغراض العسكريه فى سنه (١٩٨٦ م) بمعدل دولار واحد فى كل ثانيه لاحتجنا الى (٣٦٠٠٠) سنه.

*بتعبير آخر فان معدل ما يصرفه العالم على السلاح فى الدقيقه الواحده هو (٢) مليون دولار فى الوقت الذى يعيش فيه مليارى إنسان فى العالم فى حاله فقر، و خمس مائه مليون منهم يعانون من سوء التغذيه بشده.

ص: ١٤٤

* لقد وصف السكرتير السابق للأمم المتحدة «يوثانت» المدفوعات العسكريه للعالم انها تضييع مفرط للثروات.

* ان قيمه غواصه نوويه واحده تزيد كثيرا عن ميزانيه التعليم السنويه لاكثر من اثني عشر دوله ناميه، ان العالم يدفع للتسلح أكثر مما يدفع للتعليم سنويا.

* روسيا، الولايات المتحده الامريكه، الصين، بريطانيا و السعوديه هي الدول الأكثر دفعا في المجال العسكري.

* من الملفت للنظر ان كثيرا من الدول الناميه قد زادت من مدفوعاتها على التسلح و ذلك بتخصيص مبالغ كبيره من الناتج الوطني.

* ان الدول المديونه لا زالت تخصص أموالا للسلاح أكثر مما تخصص لبناء المدارس، و يكفيك ان (٨٠٠) مليون نسمة في العالم لا يقرءون و لا يكتبون (أميون).

* انه من الأحسن ان يدفع بذلك المال، و بتلك الطاقه البشريه، و بتلك الخامات إلى بناء السدود و القضاء على البطاله، و تحسين الأحوال المعيشيه للبشر، و بناء المساكن، و اقامه السدود و المصانع، و بناء المدارس، و تخزين الحبوب بدلا من ان تدفع تلك الأمور في صنع الدبابات و الطائرات القاذفه للقنابل و الصواريخ.

* ان العالم ينظر الى امتلاك السلاح على انه حافظ للسلام أو مثبت عن إشعال الحرب.

* لكل دوله قصتها التي يمكن ان تحكى، فمثلا- اتيوبيا من الدول التي تعاني من المجاعه، و معدل دخل الفرد فيها (١١٠) دولار سنويا و بها طبيب لكل

(٦٩٠٠٠) شخص، و عشرين فى المائه من أطفالها يموتون قبل بلوغ الخامسة فى حين ان ربع الميزانيه الحكوميه يصرف على الدفاع، و بعض المتخصصين يقولون: ان مدفوعات اتيوبيا على الدفاع تبلغ نصف ميزانيه الدوله، و الروس باعوا لا- ثيوبيا بثلاثه مليارات دولار ليس الغذاء و انما السلاح.

اتيوبيا تستخدم ما يقارب (٢٥٠٠٠٠) جندى لا لخدمه الجائعين و نقل الغذاء لهم، و انما لمحاربه بعض الحركات الفدائيه.

و نفس القصه يمكن ان تروى عن الدول الأخرى فى العالم الثالث:

* مستوى المدفوعات العسكريه السنويه يقدر ب(تريليون) دولار، و من العجيب ان كثيرا من الاسلحه قد استخدم، حيث ان (١٠٠) مليون نسمة قد قتلوا فى القرن العشرين.

و أكثر من (١٠٠) حرب قد وقعت بعد الحرب العالميه الثانيه، و ان (٧) ملايين نسمة قد قتلوا فى حروب و حرب اهليه خلال الخمسه عشر سنه الماضيه.

* و أنت تقرأ هذه المقالته، فان هناك (٣٠) الى (٤٠) شعب يستخدمون السلاح فى حروب أهليه، أو حروب حدوديه، أو نزاعات دينيه، أو أسباب أخرى، ان واحدا من بين كل ثلاثه من سكان العالم (٥ مليار نسمة) داخل فى نزاع مسلح.

* ان هذه الفتره هى أخطر فتره تمر على الإنسان خلال (٦٠٠٠) سنه.

(١) رشاش (٦٠٠) دولار ٨٢ مسحاه (٨) دولار.

(١) دبابه (٢٨٠٠٠٠٠٠) دولار ٦٢٢٢ بقره (٤٥٠) دولار.

ص: ١٤٦

(١) طائرته (٢٧٠٠٠٠٠٠٠) دولار ١٣٥٠ تراكتور (٧٨) حصان (٢٠٠٠٠) دولار.

(١) غواصه (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) دولار ٢٥٠٠٠ بيت (٨٠٠٠٠) دولار. (١)

(١٤) ثم يوصى الله بالوالدين خيراً، حفاظاً على نعمه الحنان و العطف من قبلهما للابن، و شكراً لهما على جهدهما تجاهه، فإذا كان الأكل و الشرب غذاء الجسد، فإن الحنان و العطف أفضل غذاء للروح، و لنمو النفس نمواً فاضلاً متكاملًا و الذى يسبب استمرارهما هو الشكر للوالدين، و بقاء العلاقة معهما، و لا يعنى هذا من قريب و لا بعيد ان لا يشكر الإنسان ربه، بل يجب ان يقدم شكره لله على شكرهما، لأنه مصدر كل نعمه، و انما الآخرون وسيلتها اليه.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلِيًّا وَهْنٍ وَ يَخْصُصُ اللَّهُ الْإِمَامَ أَكْثَرَ مِنَ الْأَبِ، لأنها هى التى تتحمل اعباء الوليد منذ اللحظة التى تنعقد فيها نطفته، أضف إلى ذلك ان المرأة و هى المخلوق الضعيف حين تحمل فى بطنها وليداً إلى مده تراوح بين الستة إلى التسعة أشهر أ ليس يزيدا ضعفا على ضعفها؟! و لذلك

ورد الأثر المروى عن النبى صلى الله عليه و آله انه جاء اليه رجل فقال: يا رسول الله من أبر؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أمك»، قال ثم من؟ قال: «أمك»، قال ثم من؟ قال: «أباك» (٢) وَ فَصَالُهُ فِي عَامَيْنِ

ص: ١٤٧

١- ٦) ترجمه مجله الحقيقه الواضحه العدد (٣) المجلد (٥٢) التاريخ مارس ١٩٨٧ / م و طبع منه (٧١٤٠٠٠٠).

٢- ٧) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٢٠٠).

و بعد الولاده تستمر رضاعتها له عامين- كحاله طبيعیه- يمتص فيهما من طاقه أمه و قدراتها غذاؤه، كما تسقيه من عطفها و تربيتها الكثير.

أَنْ أَشْكُرَ لِيْ وَ لِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصْرِيرُ و إذا كان شكر نعمه الوالدين هو الوفاء بحقيهما، فان شكر الله هو ان يفى الإنسان بحقوق الوالدين فى اطار أوامر الله، و تعاليم دينه، فالشكر للوالدين واجب شرعى على الولد، و لكن بشرط ان لا يفقد استقلاله تجاههما لان ذلك يخالف روح التوحيد.

ان توحيد الله يقتضى معرفه انه سبحانه صاحب كل نعمه عليه، فيحمده عليه،

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام قال:

«أوحى الله عز و جل الى موسى: يا موسى! اشكرنى حق شكرى، فقال: يا رب و كيف أشكرك حق شكرك و ليس من شكر أشكرك به إلا- و أنت أنعمت به على، قال: يا موسى! الآن شكرتني حين علمت ان ذلك منى» (١) اما إذا شكر الفرد ربه و لم يشكر والديه فقد خالف تعاليم دينه، و بالتالى خرج عن اطار توحيد الله أيضا، و هكذا

ورد الحديث المروى عن الامام الرضا (عليه السلام):

«و أمر الله بالشكر له و للوالدين فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله تعالى» (٢) و هكذا كل منعم من الناس من ترك حقه من الشرك فقد ترك شكر الله أيضا،

ص: ١٤٨

١- (٨) المصدر/ص (٢٠١).

٢- (٩) المصدر.

كذلك

جاء في الحديث المأثور عن الامام الرضا(عليه السلام):

«من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز و جل» (١) (١٥) صحيح ان الوالدين هما القناه التي تنتقل عبرها المكاسب الماديه، و الخبرات الحضاريه للإنسان، و لكن لا يصح ان يستقبل الإنسان كلما تحمله هذه القناه اليه من غث و سمين، لأنها كما تحمل ايجابيات الحضاره التاريخيه أو القائمه، تنقل اليه أيضا السلبيات، لذلك يؤكد الرب:

وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۗ اذن على الإنسان ان يكون ذكيا، يستفيد من المكاسب و المغانم الحضاريه القادمه اليه عبر والديه من التاريخ أو المجتمع، و يترك السلبيات لأنهما-على فطرتها- يغذيان الطفل بشتى الأفكار الواقعيه و الخرافيه، الايجابيه و السلبيه، دونما تمييز على الأغلب، و هما بذلك يحاولان فرضها على ولدهما، و هنا تقع على الفرد نفسه مسئوليته مقاومه الضغط و لكن بمعروف.

وَ صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا

يقول الرسول صلى الله عليه و آله :

«كل مولود يولد على الفطره، حتى يكون أبواه يهودانه و ينصرانه» (٢) فاذا ما قاوم الابن الأفكار الخاطئه استطاع النمو على الفطره، لأنه بذلك يبعدها

ص: ١٤٩

١- (١٠) المصدر.

٢- (١١) بحار الأنوار/ج(٣)/ص(٢٨١).

عما يدنسها من الأفكار الخاطئه، و التوجيهات السقيمه، و ذلك لا يعنى بالضروره التعدى على الأبوين،

فقد جاء فى الحديث:

«ثلاثه لا يدخلون الجنة: قاطع رحم، و عاق لوالديه، و شيخ زان» و هنا تستوقفنى مسأله و هى: انى لا أعلم من اين استخرج البعض انه تجب طاعه الوالدين طاعه مطلقه، بينما تخالف النصوص الاسلاميه صراحه ذلك، فهى تأمر بالشكر و الإحسان لهما، أما الطاعه فهى لله، و لمن أمر الله بطاعته، و ولايه الوالدين التى تشير لها بعض النصوص لا تكون الا ضمن الحدود الشرعيه.

من هنا نقرأ

فى كتاب مصباح الشريعه: ان الامام الصادق عليه السلام قال:

«بر الوالدين من حسن معرفه العبد بالله، إذ لا عباده أسرع بلوغاً بصاحبها إلى رضا الله تعالى من حرمة الوالدين المسلمین لوجه الله، لأنَّ حقَّ الوالدين مشتق من حقِّ الله تعالى، إذا كانا على منهاج الدين و السنه، و لا يكونان يمنعان الولد من طاعه الله إلى معصيته، و من اليقين إلى الشك، و من الزهد إلى الدنيا، و لا يدعوا انه إلى خلاف ذلك، فإذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعه، و طاعتهما معصيه» (١) و لكن السؤال هو: إذا ما ترك الإنسان والديه عند شركهما فالى من يتجه؟ يجب السياق عن ذلك:

وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْبَأَ إِلَيْكَ وَ هُمُ الْأَوْلِيَاءُ وَ مَنْ يَسِيرْ فِي خَطِّهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَجْتَمَعِ، حَيْثُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْبَحْثُ عَنْهُمْ فِي الْمَجْتَمَعِ، لِيَتَّبِعَ سَبِيلَهُمْ، وَ يَنْظِمَ إِلَى تَجْمَعِهِمُ الرِّسَالَى، لَأَنَّ

ص: ١٥٠

الوالدين حينما لا- تكون طاعتهما طاعه لله، و يترك الابن الانصياع لهما، فانه سيجد من هو أكثر عطفًا و حنانًا عليه منهما في الله، أو لم يترك مصعب ابن عمر أبويه؟ فوجد من عوضه عنهما بأفضل صورته، أو لم يترك فلان و فلان آباءهم؟ و لكن إلى اين وفقهم الله؟ لقد وفقهم إلى احضان الإسلام، حيث تربوا على يدى الرسول صلى الله عليه و آله و بين ظهرانى المؤمنين، و أخيرا كان الرجوع إلى ربهم الودود.

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ بلى. قد يخسر الإنسان بعض المكاسب الدنيوية-ماديه و معنويه-و لكن الله سوف يعوضه عن ذلك فى الآخرة.

(١٦) و هناك حقيقه هى ان عمل الخير لا بد و ان يعود لمن عمله-مهما كان صغيرا أو كبيرا، معلنا أو خفيا، سواء كان جزاؤه فى الدنيا أو الآخرة-و الله لا يظهر العمل الصالح و حسب، بل يجازى عليه مهما قل و صغر.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي جَاءْتُكُمْ بِآيَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ وَ هِيَ حَبَّةٌ صَغِيرَةٌ لَيْسَ لوزنها اعتبار لدى الناس.

فَتَكُنْ فِي صَيْحُرِهِ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ فبلطفه قرب من الأشياء، و بخبرته أحاط بها علما و معرفه، و من الحرى بنا ان نهتم بأعمالنا لأنها تحت عين الله، و لا نحقر ذنبا أو نستهين بواجب،

فقد جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام :

«اتقوا المحقرات من الذنوب، فإن لها طالبا. لا- يقولن أحدكم: أذنب و استغفر الله. ان الله تعالى يقول: إِنَّ تَكَ مِثْقَالَ حَبِّهِ مِنْ خَزْدَلٍ..» (١) (١٧) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ لَأُنْهَىٰ بِهَا زُكَاةَ الْأَعْمَالِ، إِذَا كَانَتْ بِشَرِّهَا، كَمَا يَقُولُ الْحَدِيثُ، فَهِيَ حِينَئِذٍ تَشْبَهُ النَّهْرَ لَوْ اغْتَسَلَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ خَمْسَ مَرَّاتٍ لَا يَبْقَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ شَيْءٌ، وَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ تَنْمِيَهُ مَعْرِفَتَهُ بِاللَّهِ وَ إِيْمَانَهُ بِهِ، فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَسْبِغَ الْوَضُوءَ، وَيُصَلِّيَ خَاشِعًا لِلَّهِ، لِذَلِكَ

قال الرسول صلى الله عليه و آله :

«و قره عيني في الصلاة» (٢)

و قال الامام على عليه السلام :

«الصلاة قربان كل تقى» (٣) و كما ان للصلاة جانبا عباديا روحيا، فإن لها جانبا آخر لا تكتمل الا به و هو الجانب الاجتماعى الذى يتمثل فى الشهاده على الواقع القائم.

وَ أُمِرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اضْبِرْ عَلَيَّ مِمَّا أَصَابَيْكَ وَ اقامه الصلاة كما الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، كل ذلك يحتاج إلى الصبر على ما يصيبه فى هذا الطريق، فان الجنة حفت بالمكاره، كما حفت النار بالشهوات.

ص: ١٥٢

١- (١٣) المصدر/ص (٢٠٤).

٢- (١٤) الخصال/ص (١٦٥).

٣- (١٥) نهج البلاغه/ص (٤٩٤).

و لكن ترك هذه الواجبات تؤدي إلى عواقب وخيمه، لا تقاس اخطارها العظيمه ببعض الصعوبه التي تكتنف العمل بها.

قال الامام أمير المؤمنين (عليه السلام):

«لا تتركوا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فيؤلى عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم» (١) إِنَّ ذَلِكُمْ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ التي يضبط بها الإنسان الحياه الشخصيه و الاجتماعيه معا. و يحتمل ان يكون معنى عَزْمِ الْأُمُورِ الأمور التي تحتاج إلى عزيمه راسخه، و اراده قويه، و هي مما عزم الله و فرضه علينا، و يبدو ان كلمه «ذلك» تشير إلى كل الأوامر التي سبقت.

(١٨) الشكر لله يعني الاعتراف بان ما لدى الإنسان من حول و قوه فمن الله، فبماذا يفتخر؟! و لماذا يتحدى الناس و يتعالى عليهم؟! و لا- تُصَيَّرُ مَعْرُوفًا لِلنَّاسِ تحديا بهدف إثارة العداوه و البغضاء، لأن الميل بالخد مثال للتحدي و الاستعلاء على الآخرين، و ذلك مما يزيد الأعداء، بينما ينبغي للإنسان السعى لكسب العدد الأكبر من الأصدقاء.

و لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا مَتَفَاخِرًا.

فقد روى عن رسول الله (صلى الله عليه و آله):

ص: ١٥٣

١- (١٦) نور الثقلين /ص (٤٢٢).

«من مشى على الأرض اختيالا لعنه الأرض و من تحتها و من فوقها» (١) و نهى ان يختال الرجل فى مشيته و قال:

«من لبس ثوبا فاختال فيه خسف الله به فى سعيير جهنم، و كان قرين قارون، لأنه أول من اختال فخسف الله به و بداره الأرض، و من اختال فقد نازع الله فى جبروته» (٢) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ يَخْتَالُ بِنَفْسِهِ وَ يَفْتَخِرُ بِمَالِهِ، وَ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ الشَّرْكِ، وَ

فى الحديث القدسى عن الله عز و جل:

«العظمه ردائى، و الكبرياء إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته» (١٩) وَ أَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ كَلِمَةُ الْقَصْدِ هُنَا تَعْنِي تَحْدِيدَ الْهَدْفِ، وَ لَا يَصِحُّ مِنَ الْعَاقِلِ أَنْ يَمْشِيَ بِلَا هَدْفٍ، كَمَا تَعْنِي الْاِقْتِصَادُ أَيْضًا، وَ لَا شَكَّ أَنْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَصِيرَةٍ وَ لِهَدْفٍ مُعَيَّنٍ لَنْ يَحْتَاجَ إِلَى صَرْفِ الْمَزِيدِ مِنَ الطَّاقَاتِ الَّتِي لَا دَاعِيَ لَهَا، فَلَوْ افْتَرَضْنَا أَنْ سَيَّارَهُ تَحْرُكُ بِاتِّجَاهٍ مُعْلُومٍ فَانْ مَقْدَارِ الْوَقُودِ الَّتِي سَتَصْرِفُهُ سَيَكُونُ اِقْتِصَادِيًّا مُتَنَاسِبًا مَعَ الْهَدْفِ، أَمَا لَوْ تَحْرُكُ سَيَّارَهُ أُخْرَى تَرِيدُ هَدْفًا غَيْرَ مُحَدَّدٍ أَوْ مِنْ دُونِ هَدْفٍ فَسَتَبْقَى تَحْرُقُ الْوَقُودَ مِنْ غَيْرِ نَهَائِهِ، وَ لَيْسَ ثَمَّ شَكَّ فِي أَنْ حَرَكَةَ الْإِنْسَانِ دَلِيلٌ عَلَى نَفْسِيَّتِهِ.

وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ

ص: ١٥٤

١- (١٧) المصدر/ص (٢٠٧).

٢- (١٨) المصدر.

لان الهدوء دليل العقل بينما الصراخ خلافه، و الكثير انما يعلى صوته و يكثر من الدعايات ليصنع الظروف التي تجبر الناس بشكل من الأشكال على تقبل أفكاره، و الصحيح ان يقبل الآخرون الأفكار لمحتواها لا لوسائلها، اذن فلا داعى للصراخ، و انما يحتاج إلى الصراخ صاحب الفكره الخاطئه، ليعوض الفراغ فى المحتوى.

إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ لِأَنَّهُ يَزِيدُ الْآخِرِينَ نَفُورًا مِنْ صَاحِبِهِ.

و جاء فى السنه عن الامام الصادق عليه السلام قال (فى تفسير هذه الآيه):

«و هى المرتفعه القبيحه، و الرجل يرفع صوته بالحديث رفعا قبيحا إلا أن يكون داعيا أو يقرأ القرآن» (١)

ص: ١٥٥

١- (١٩) المصدر/ص (٢٠٨).

اشاره

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)

اللغه

٢٢[استمسك]:تمسك و تعلق.

۲۷] یمده]: یزیده.

ص: ۱۵۷

هدى من الآيات:

بعد ان يذكرنا الله سبحانه هنا بنعمه التى أسبغها علينا يستأدينا الشكر عليها، و يذكرنا بأن من الناس من يأكل رزق الله، و يعبد غيره، لأنهم لا يتبعون حجه حقيقته، و لا بصيره سليمه، فلا علما، و لا هدى و لا كتابا منيرا، بل يتبعون آباءهم دون أن يعرفوا بأنهم أيضا يتأثرون بعوامل الغوايه و الانحراف، فالشيطان الذى يضلّ الأولاد هو نفسه الذى يضل الآباء و لا تصبح الضلاله هدى إذا اتّبعها الآباء.

ثم تبين الآيات بان الشكر الحقيقى هو التسليم المطلق لله تعالى، لأن الهدف الأسمى من نعم الله هو أن يعبد الإنسان ربه: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ و ان تكون علاقته بالناس من خلال هذه النعم هى الإحسان و العطاء، و هذا ما تؤكد هذه السوره الكريمه، و إذا ما توفرت هاتان الصفتان فى البشر فقد استمسك بالعروه الوثقى التى لا تنفصم.

أما الكفار فان كفرهم يعود إليهم بالضرر العظيم حيث يخبرهم الله بعد عودتهم إليه بما عملوا من ظاهر العمل و نياتهم، أو ليس ربنا عليما بذات الصدور؟! و على المؤمن الا يحزن عليهم لأن متعه هؤلاء في الدنيا قليله و عذابهم في الآخره غليظ.

و يذكرنا السياق بأسماء ربنا لتزداد إيماننا و شكرا، و يبين عشره من أسماء الله سبحانه بشواهدا الظاهره و أولها: أنه الخالق لما في السموات و الأرض، و أن الحمد كله له بالرغم من أن أكثرهم لا يعلمون.

الثاني: انه سبحانه الغنى. أو ليس يملك ما في السموات و الأرض، و الثالث:

انه الحميد في غناه.

و الرابع و الخامس: أنه-تعالى اسمه-عزيز حكيم و شواهد عزته، و كلمات حكمته لا تحصى، حتى و لو كانت الأشجار أفلاما و البحار مدادا.

و في الدرس القادم يذكرنا السياق بان ربنا هو السميع العليم، و انه هو الخبير و العلى الكبير.

بينات من الآيات:

(٢٠) تحيط بالبشر حقائق لو استوعبها وعيه أوتى الحكمة و اهتدى إلى السبيل.

و لكن يعيش و يموت أكثر الناس في ضلال. لماذا؟ لان بينهم و بينها حجب متراكمه، و إنما القرآن هدى لأنه يثير العقل، و يرفع الحجب، فاذا بالقلب المحدود يفتح على الآفاق الرحيبه.

ص: ١٥٩

حقًا ما أبعد غور العلم عند المؤمن الذى ينظر إلى الخليقه من دون حجاب، و بفؤاد فارغ من العقد و الأوهام و التمنيات، فاذا أبصر البدوى الموعل فى الصحراء مع سفينته التى يحبها و يرتل لها الاشعار على نغم الحدى فاذا بينه و بينه إبله أكثر من مجرد صله ماديه.

هنالك يقول المؤمن: ما شاء الله كيف سخر هذا الحيوان الصبور للبشر، و جعل أفضل عابر للرمال المتحركه و الصحارى القفر.

و إذا رأى رجلا- شجاعا يمتطى ظهر جواده فى المعركه، فاذا بالجواد يستجيب لاشاراته الخاطفه و كأنه جهاز الكترونى حساس، هنالك يقول: الله أكبر كيف سخر الله لنا هذا الحيوان الذكى، و ما كنا عليه بقادرين.

و حين يجتاز البشر أعمده القرون و يمتطى صهوه الطائرات الأسرع من الصوت، و الصواريخ الفضائيه ذات الوقود الذرى، يقول المؤمن بذات النبره سبحانه الله الذى سخر لنا هذا و ما كنا له مقرنين.

ان من سخر لنا الإبل و الجواد هو الذى سخر لنا الحديد و الذره، و علمنا كيف نصنع من خرده حديد، و بضع كيلوات من ماده متفجره صواريخ مداريه.

ان مثل المؤمن مثل الفنان الذى يقف أمام لوحه بارعه الجمال فتغمر قلبه الحساس موجات من الاعجاب و الرضا و الانشراح، بينما الكافر كالأعمى لا تزيده اللوحه إلا ظلاما.

أغلب الناس ينشرون إذا زار و الاول مره مزرعه للورود، أو حقولا خضراء منبسطة على امتداد البصر، أو شاهدوا مصنعا عظيما أو إنجازا علميا باهرا، و لكنهم يعودون بعد لحظات محدوده إلى واقعهم الاول فتشغل قلوبهم الهموم، و يغرقون فى

بحر المشاكل الحياتيه. أليس كذلك؟ بينما المؤمن يرى كل شىء و كأنه ينظر اليه لأول مره، فاحساسه المرهف يجعله أبدا كالقائد العسكرى الذى يستعرض جيشه اللجب فى يوم عيد، كذلك المؤمن ينظر إلى الطبيعه من حوله و قد سخرت له كما ينظر ذلك القائد إلى جنده العظيم، انه يعيش أبدا كما لو ولد الآن أو جاء من كوكب بعيد، قلبه برىء، و نظراته عميقه، و فطرته نقيه.

أ رأيت الذى يزور-لاول مره-حديقه الحيوان فى لندن أو معرضا الكترونيا فى باريس، أو مصنعا عظيما فى اليابان، أو ناطحه سحاب فى شيكاغو أو مترو موسكو، أو أهرام مصر؟ هكذا حال المؤمن أبدا فى الحياه بينما غيره يشبه الذى يزور غرفه نومه لا يرى فيها جديدا.

و السؤال: ما الفرق بينهما؟ الجواب: أولا- قلب المؤمن صاف بينما الناس يعيشون هموما كثيره، كما أن أكثرهم يعيش العقيد و السليبات.

ثانيا: المؤمن يعلم ان كل شىء قائم بالله، و لو لا فضل الله المتوالى، و عطاؤه المستمر، و تدبيره و سلطانه لما قام شىء، و لا بقيت نعمه، و لا دام نظام، لذلك فهو يتعامل مع الأشياء و كأنها جديده و مثله فى هذا التعامل مثل من يعطيه الملك كل يوم مائة درهم من دون استحقاق و هو يعيش عليها، و انه متى ما شاء منعه منه فى أى يوم، فتراه يستلم كل يوم عطاءه بوجد و فرح، و لعل هذا الإحساس هو مصدر الشكر عند المؤمن فاذا به يسبح ربه بكره و عشيا، و فى المساء و عند الظهره، لان

استمرار وجوده أساسا عند هذه الساعات نعمه. أو ليس هناك البعض الذى عاش صباحا و كان عند المساء تحت التراب، أو امسى حيا و لكنه حرم رؤيه الشمس فى اليوم التالى و إلى الأبد.

ان المؤمن يملك من الثقة برحمه الله ما يجعله قادرا على التخطيط المستقبلى، و لكنه فى الوقت ذاته ينظر إلى الخليقه نظره بعيده عن الجمود و التحجر، فيخشى زوال النعم فى ايه لحظه، و يسعى أبدا لإبقائها، و قلبه بذلك يعيش طريا نظيرا و جديدا، و هكذا يعيش المؤمن بين الخوف و الرجاء و كذلك

وصى لقمان ابنه قائلا له:

«يا بنى! خف الله عز و جل خوفا لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت ان يعذبك، و ارج الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت ان يغفر الله لك» «فقال له ابنه: يا ابيه! كيف أطيق هذا ولى قلب واحد؟» «فقال له لقمان: يا بنى لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران، نور للخوف و نور للرجاء، لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذره» «ثم قال له: يا بنى! لا تركز إلى الدنيا و لا- تشغل قلبك بها، فما خلق الله خلقا هو أهون عليه منها، الا ترى انه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين، و لم يجعل بلاءها عقوبه للعاصين؟!» (1) ثالثا: ترى أغلب الناس يلبسون نظارات مختلفه الألوان، و ينظرون من خلالها إلى الأشياء، فلا- يرونها على حقيقتها. ان الثقافات البشريه و التفسيرات الماديه التى تبث إلى القلوب هى بمثابة عدسات ملونه لا تدع نور الحقائق يغمر القلب.

ص: ١٦٢

بينما نظرات المؤمن مباشره لا تمر بقنوات التفسيرات الماديه. انه ينظر ببراءه الطفل إلى الحقائق، و لذلك فان نظراته نافذه إلى العمق، فاذا نظر إلى حركه الفلك و ما فى السموات و الأرض من نعم نفذت بصيرته إلى الخالق الذى سخرها للإنسان.

و انما يبلغ المؤمن هذه الدرجات بالقرآن. أنظر إلى التعبير القرآنى هنا و كيف يجعلنا نرى الخليقه بواقعيه:

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ نَهَاجًا مَبْشُورًا، وَبَلَا عَقْدٍ، وَبَلَا جُمُودٍ، وَبَلَا نِظَارَاتٍ مِنَ الثَّقَافَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ.

ثم يقول:

وَ أَسْبِغْ عَلَيْنَا نِعْمَةً كَمَا سَبَّغْتَ عَلَى نَفْسِكَ دَرْعًا مُتَنَاسِبًا مَعَ جِسْمِكَ، أَوْ يَسْبِغُ الْوَاحِدُ مِمَّا ثَابَهُ الْمَقْدَرُ لَهُ عَلَى جِسْمِهِ، وَهَكَذَا النِّعْمَةُ تَحِيطُ بِنَا وَ لَكِن بِقَدْرٍ وَ دُونَ زِيَادَةٍ مُضِرَّةٍ أَوْ نَقْصَانٍ.

نِعْمَتُهُ ظَاهِرَةٌ كِنِعْمَةِ الْحَيَاةِ، وَ نِعْمَةِ الْعَافِيَةِ، وَ نِعْمَةِ الْأَمْنِ، وَ نِعْمَةِ الطَّعَامِ.

وَ بِإِطْنَةٍ كِنِعْمَةِ الْأَعْضَاءِ الَّتِي لَا تَرَى (القلب الكبد و الكليه و الاعصاب و.و.) وَ نِعْمَةِ الْوَقَايَةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَكَارِهِ وَ الْإِخْطَارِ، وَ نِعْمَةِ الْهُدَايَةِ إِلَى الْحَقِّ، وَ وَلايَةِ أُمَّةِ الْهُدَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ص: ١٦٣

و هناك حديث مفصل يتلو علينا نعم الرب، و قد رأينا إثباته هنا لأن هذه السوره هي سوره الشكر فيما يبدو لنا، و علينا ان نربى قلوبنا عليه أو ليس الشكر أساس الحكمة؟!

الحديث مأثور عن الامام الباقر عليه السلام انه قال:

حدثني عبد الله بن عباس، و جابر بن عبد الله الانصارى قالوا: أتينا رسول الله صلى الله عليه و آله فى مسجده فى رهط من أصحابه فيهم أبو بكر و أبو عبيده و عمر و عثمان و عبد الرحمن و رجلان من قراء الصحابه- إلى قوله حاكيا عن رسول الله صلى الله عليه و آله - و قد أوحى إلى ربى جل و تعالى أن أذكركم بالنعمة و أندركم بما اقتص عليكم من كتابه و أملى « وَ أَشَبَّحَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ » الآية ثم قال لهم: قولوا الآن قولكم، ما أول نعمه رغبكم الله و بلاكم بها؟ فخاص القوم جميعا، فذكروا نعم الله التى أنعم عليهم، و أحسن إليهم بها من المعاش و الرياش و الذريه و الأزواج إلى سائر ما بلاهم الله عز و جل من أنعمه الظاهره، فلما أمسك القوم أقبل رسول الله صلى الله عليه و آله على على عليه السلام فقال: يا أبا الحسن قل فقد قال أصحابك، فقال: و كيف بالقول فداك أبى و أمى و انما هدانا الله بك! قال: و مع ذلك فهات قل ما أول نعمه أبلاك الله عز و جل و أنعم عليك بها؟ قال: ان خلقنى جل ثناؤه و لم أك شيئا مذكورا، قال: صدقت، فما الثانى؟ قال: ان أحسن بى إذ خلقنى فجعلنى حيا لا مواتا، قال: صدقت، فما الثالثه؟ قال: ان انشأنى- فله الحمد- فى أحسن صورته، و أعدل تركيب، قال: صدقت، فما الرابعه؟ قال: ان جعلنى متفكرا، راعيا، لابلها ساهيا، قال: صدقت، فما الخامسه؟ قال: ان جعل لى سرا عن ادراك (1) ما ابتغيت بها، و جعل لى سراجا منيرا، قال:

ص: ١٦٤

١ - ٢) كذا فى النسخ و لا- تخلو عن التصحيف و فى البحار (ج) (٧٠) ص (٢١) قال: «ان جعل لى شواعر ادراك ما ابتغيت...» الحديث.

صدقت، فما السادسة؟ قال: ان هدانى الله لدينه، و لم يضلنى عن سبيله، قال: صدقت، فما السابعة؟ قال: ان جعل لى مردًا فى حياه لا انقطاع لها، قال: صدقت، فما الثامنه؟ قال: ان جعلنى ملكا مالكا لا مملوكا، قال صدقت، فما التاسعه؟ قال: ان سخر لى سماءه و أرضه و ما فيهما و ما بينهما من خلقه، قال: صدقت، فما العاشره؟ قال: ان جعلنا سبحانه ذكرانا قواما على حلائلنا لا إناثا، قال: صدقت فما بعدها؟ قال: كثرت نعم الله يا نبى الله فطابت « وَ إِنَّ تَعِيدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لِـ تَحْصُوهَا » فتبسم رسول الله صلى الله عليه و آله و قال: ليهنئك الحكمه ليهنئك العلم يا أبا الحسن فأنت وارث علمى و المبين لامتى ما اختلفت فيه من بعدى، من أحبك لدينك و أخذ بسبيلك فهو ممن هدى الى صراط مستقيم، و من رغب عن هواك و أبغضك و تخلاك (١) لقى الله يوم القيامه لا خلاق له (٢) و يبقى سؤال: لماذا سخر الله كل ذلك للإنسان؟ هل بقوته الماديه؟ كلا..

لأن السموات و الأرض و الجبال أقوى منه.

أم بقوت سمعه؟ كلا.. لأن الكلب أفضل سمعا منه.

أم لحدّه نظره؟ فالصقر أحدّ نظرا منه.

كلا.. ان قوه الإنسان التى جعلها الله يسخر بها ما فى السموات و الأرض، تكمن فى العقل و العلم الذى أنعم به الله عليه، فلما ذا اذن نترك العلم الذى يهدينا الى عباده الله، و نتبع الجهل الذى يقودنا الى غيره؟! ان الإنسان مطالب بتلك الصفه التى جعله الله بها يسير المخلوقات بان يكون سيد العابدين، إلا أن هناك حجابا تستر عنه نور العقل من بينها:

ص: ١٦٥

١-٣) تخلاه و منه و عنه: تركه.

٢-٤) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٢١٣-٢١٤).

١-الجدال:و هو من الناحيه اللغويه يعنى اللف و الدوران،و فى الاصطلاح:

هو الكلام بهدف التهرب من الحقيقه،و المجادل هو الذى يرى الحقيقه و لكنه لا يريد الخضوع لها.

وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْإِنْسَانَ لِلْحَقِيقَةِ يَجِبُ أَنْ يَتَّبِعَ أَحَدَ الطَّرِيقِ الثَّلَاثِ:

أ-ان يتبع علما كما لو كان يرى مصباحا أمامه،و هذا هو العلم بالشىء مفصلا.

ب-ان يتبع الهدى و مثال ذلك أن يهتدى لوجود المصباح عبر رؤيه النور المنبعث منه،و هذا ما يسمى بالعلم المجمل.

ج-ان يتبع الكتاب المنير،و هو معرفه الحقائق بالواسطه،كما لو أخبر إنسان آخر بوجود المصباح فى مكان ما،و كان ذلك الإنسان مورد ثقه،أو أخبره كتاب صدق،و لأن هؤلاء المجادلين لا يتبعون هذه السبل السليمه فإنهم لا يهتدون للحقيقه.

(٢١)٢-تقديس الآباء:حيث يترك الإنسان الهدى لأنه يتعارض مع اعتقادات آباءه و يعالج القرآن هذه العقده النفسيه التى تمنع عن الهدى و ذلك ببيان واقع اتباع الآباء،و انه ليس بدافع صالح كما يصوره الشيطان،حيث يوحى الى أوليائه ان تقديس الآباء نوع من الوفاء لهم،و أداء لحقهم.كلا..ان اتباعه ليس سوى ضلاله.

ص:١٦٦

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا وَ الْملاحظ ان الأجيال اللاحقه تتبع الجوانب السلبيه فى تراث الأولين، و القرآن يخالف المقاييس الجاهليه فى تقييم الأشياء، لان الإنسان الذى يتميز بالعقل ينبغى له ان يتبع المقاييس الصحيحه، و هى العلم أو الهدى أو الكتاب و يستنكر عليهم ذلك قائلا:

أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ فَهَلْ تَذُوبُ مَعَ الْآبَاءِ حَتَّىٰ لَوْ كَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ تَنْتَهَىٰ إِلَىٰ النَّارِ؟ (٢٢) قد يشعر الإنسان بنعم الله عليه، و من ثم يرى نفسه مسئولا عن أداء الشكر له عليها، و لكن يقف متسائلا: كيف يمكن لى ذلك؟ و نجيبه عد الى القرآن و اقرأ:

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ بَانَ يَخْضَعُ لَهُ خُضُوعًا مُّطْلَقًا، و بكل ما يملكه من الطاقات الماديه و المعنويه، و لكن اى خضوع ذلك الذى تدعو الآيه الإنسان اليه هل هو الخضوع الذى يدعوه الى السكون و الخمول؟ بالطبع كلا. انما تدعو إلى ذلك الخضوع الملئ بالنشاط و الحركه فصاحبه من جانب يتوجه إلى الله بكلمه، و من جانب آخر يتفجر إحسانا و عطاء لعباد الله فى سبيله.

و إذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجه من الكمال، بأن تصبح علاقته مع الله

علاقه تسليم و خضوع، و مع الناس علاقہ إحسان و عطاء.

فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ فَمَنْ جَانِبَ هَذَا الْإِنْسَانَ قَدْ تَمَسَكَ بِخَطِّ وَاضِحٍ وَ سَلِيمٍ فِي الدُّنْيَا فَحَظَى بِالسَّعَادَةِ، وَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ فَانْه سِيرَجٌ إِلَى اللَّهِ لِجَازِيَتِهِ عَلَى شُكْرِهِ بِتَسْلِيمِهِ لَهُ وَ إِحْسَانِهِ لِلْعِبَادَةِ.

و لعل تأكيد القرآن في آيات عديده بان التسليم لله هو التمسك بحبله المتين، و بالعروه الوثقى يهدف إلى علاج عقده مستعصيه عند البشر هي عقده الخوف من المخلوقات، هذا الخوف الذي يدفعه نحو الخضوع للمخلوقين و الشرك بالله العظيم، بينما الرب يؤكد بأن من يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروه الوثقى، و انه لا أمان للإنسان الا بالتوحيد الخالص.

التسليم لله-في الواقع- لا يتحقق من دون التسليم للقياده الشرعيه المتمثله في أئمه الهدى، و الرضا بولايه من أمر الله بولايتهم.

(٢٣) وَ مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَ مَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَمَّا ذَا يَحْزَنُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ، هَلْ لَانَ الْآخِرِينَ عَلَى خَطَأٍ؟! وَ إِذْ يَنْهَى اللَّهُ عَنِ هَذَا الْحَزَنِ فَلَانَ الْمُؤْمِنَ لَوْ أَدَامَ حَزَنَهُ عَلَى كُفْرِ الْكُفَّارِ فَلربما يجره هذا الحزن شيئاً فشيئاً إِلَى طَرِيقِهِمُ الْمُنْحَرَفِ، فَلِكِي لَآ- يَقَعُ الْمُؤْمِنُ فِي خَطَأٍ فَظِيْعٍ كَهَذَا يُوْجِهُهُ اللَّهُ إِلَى ضَرُورِهِ تَجَنُّبِ الْإِنْفِعَالِ النَّفْسِيِّ كَمَا يَفْعَلُهُ الْآخَرُونَ.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

ص: ١٤٨

فلا تخفى عليه خافيه، و انما خصص بالذكر «الصدور» بالذات لأن عمل الإنسان يخضع إلى مقياسين:

الاول:مقياس ظاهرى مثل كثره العمل و قلته،و عظمته و حقارته.

الثانى:مقياس باطنى،و هو نيه العمل.

و إذا زعم الإنسان أنه قادر على خداع الناس بظاهر عمله،فلا يظن بأنه يخفى عن ربه شيئا و هو العليم بذات الصدور.

(٢٤)بلى.هناك بعض المكاسب الظاهره لمثل هؤلاء،و لكنهم هم الخاسرون أخيرا لأن عاقبتهم النار.

نُمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٥) يتلو علينا القرآن عشره أسماء لربنا الكريم،و ببلاغه نافذه يستثير الذكر وجدان البشر بذكر الآيات التى تشهد على تلك الأسماء الحسنى.

و لعل مناسبة الحديث عنها التذكرة بمفردات الشكر.أو ليس بدايه الشكر معرفه المنعم؟و كيف نعرف الله أو ليس بأسمائه؟! على ان القرآن ذاته تذكره بالله،و يهدف ترسيخ دعائم الايمان فى القلب،بيد أنه بالاضافه إلى هذا الهدف العام هنالك حكمه خاصه وراء كل ذكر لله و لاسمائه و آياته،تتعلق بالموضوعيه الخاصه،مثلا:هنا يجرى الحديث عن الشكر،و لا بد ان يجرى حديث عن صاحب النعمه،لأن الشكر لا معنى له من دون معرفه من نشكره،و هكذا كل الحقائق تتصل مباشره بمعرفه الله و أول أسمائه تكشف عن أعظم نعمه علينا و هو الخلق.

وَلَيْسَ سَيِّئًا لَّهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ انْهَافِطْرَه التّى يشترك الناس فيها، وحتى المشركون يعترفون بان الله خالق كل شىء الا انهم يخشون غيره، و يشركون به لجهلهم بان الله الفعال لما يريد.

و ما دام الجميع يعترفون بأن نعمه الخلق و هى أصل سائر النعم من الله فالحمد كله لله، و علينا ان نحمده بكل معانى الحمد.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ و لعلنا نستوحى من هذا السياق ان الحمد بدايه الشكر، و أول كلمه فى القرآن بعد البسملة هو الحمد، لقد كان النبيون و الأئمة و الصديقون يفتتحون حديثهم بحمد الله و الثناء عليه.

يَلِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فَمِم يحمدون المرءون و لا- يعلمون ان الحمد كله لله. أو ليست النعم جميعا منه؟! أو ليس الناس انما يعملون الحسنات بحوله و قوته، فان استحقوا حمدا فبما حوّلهم من نعمه؟! و يبقى السؤال: لماذا يكفرون بالله و هم يزعمون بأنه خالق السموات و الأرض؟ ان هذا التناقض نابع من ذات البشر، و سبحانه الله ان يكون مصدرا لهذا التناقض، فله الحمد فى السموات و الأرض، و من له الحمد ليس ناقصا البته.

كلا.. فأياته مبثوثة فى الأنفس و الآفاق، فلا ينكره من ينكر لقله الآيات، و لا حجه لهم عليه فقد أركز فى أفئدتهم معرفته بالفطره.

بلى. ان جهلهم الذاتى، و ظلمهم، و تراكم العقد النفسى على قلوبهم هو مصدر التناقض بين اعترافهم بالخالق و بين عدم شكرهم له.

(٢٦) لان الله هو الخالق فهو المالك و من هو أعظم ملكا ممن خلق و لا يزال يتصرف فى خلقه بما يشاء، دون أن يسأله أحد عما يفعل.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَهُوَ الْمَالِكُ الْحَقُّ، أما الناس فإنهم إنما يملكون الشيء بقدر تملكه و فى حدود منحهم صلاحية التصرف تكوينا و تشريعا.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ و من الناس من يملك -بحول الله و قوته- ملكيه محدوده فى تصرف فيه فهو غنى غير حميد، بينما الله حميد فى غناه لأنه يفعل الخير و ما يستوجب الحمد و الشكر.

و الملاحظ: ان خاتمه الآيه تكريس لفكرتها، كما أن فاتحتها شاهده على خاتمها. فان من يملك السموات و الأرض هو الغنى لأنه المالك لهما، و هو الحميد لأن كل نعم مصدرها السموات و الأرض ظاهرا، فلنحمد خالقهما بدل ان نحمد من يملك جزء منهما.

(٢٧) و ربنا العزيز المقتدر، لأنه السلطان القاهر فوق عباده، المهيم على حركة السموات و الأرض، و القائم بنظامهما، و تصدر كلماته النافذه (كن فيكون) بما لا تحصى عددا فى كل ساعه و لحظه و يهبط قضاءه الحتم فى كل حدث صغير أو كبير، حتى الورقه الواحده التى تسقط فى غابه كثيفه أيام الخريف انما

تسقط بعلم الله و أمره و كلمته، و ما تزداد الأرحام و ما تغيظ انما هو بعلم الله و قضائه و إمضائه، و حركة جزئيات الذره داخل عالمها الصغير العظيم، و مكونات الخليه المتواضعه و العظيمه، و خلجات الفكر، و نبضات الاعصاب و.و.

و هذه هي العزه. أو ليست العزه هي تجليات القدره، و تطبيقات المالكيه؟! ان التصوير القرآنى للعزه الالهيه بالغ الروعه، و رائع البلاغه، و لعمري ان هذا التصوير ذاته تجلّ لعزته بما يحمل من شواهد تطبيق القدره، و تجليات تحقيق الهيمنه فى عالم الكلمه المقروءه.

تدبر فى هذه الكلمات و فكر. أ ليس الأمر كذلك؟! وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ احصائيه تقريبيه لعدد أشجار الأرض المنتشره فى الغابات الكثيفه و الحقول الواسعه فى أنحاء الأرض، و لكن لا ريب انها هائله العدد، و إذا عرفنا أن الشجره الواحده تصبح مئات الألوف من الأقلام، و أن القلم لا يستهلك بسهولة عند الكتابه، لعرفنا ماذا تعنى هذه الأقلام من العدد.

وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ أَي تَكُونُ بَحَارُ الْأَرْضِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِبَعْضِهَا حَتَّى تَصْبِحَ بَحْرًا وَاحِدًا تَغْمَسُ فِيهِ تِلْكَ الْأَقْلَامُ ثُمَّ يَكْتُبُ بِبِلَلِهِ مَدَادًا.

مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ وَ السَّبْعَةُ تَعْبِيرٌ عَنِ الْكَثْرَةِ، وَ السُّؤَالُ إِذَا كَانَتْ ثَلَاثَةٌ أَرْبَاعُ الْكَرْهِ مَغْطَاهُ بِالْبَحَارِ الَّتِي سَمَاهَا الرَّبُّ بَحْرًا وَاحِدًا فَكَمْ هِيَ سَعَةُ الْأَبْحُرِ السَّبْعَةِ الْآخَرِي؟!

مَا نَفَعَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ و كيف تنفذ كلمات الله التي لا تحصى، و التصوير القرآني أهمل ذكر الدفاتر لعله لان أفق تفكيرنا يعجز عن تصور القرطاس الذى يمكنه ان يستوعب ما يمدده البحر، و يكتبه هذا العدد الضخم من الاعداد، أليس كذلك؟! إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ و كيف لا يكون عزيزا من لا يستوعب ذلك الحشد من الأقلام كلماته (أو قضاؤه و إمضاؤه).

و قد ذهب بعض المفسرين إلى ان معنى الكلمات العلوم، و الواقع ان علم الله ليس مما يخضع للاحصاء فانه قديم لا يعزب عنه مثقال ذره، و لكن المعلومات هي التي تعد و الكلمات هي المعلومات.

و خاتمه الآية تشهد بالتفسير الذى اخترناه للكلمات.

حَكِيمٌ فعزه الله المتجليه فى سلطانه، وسعه أبعاد قضاؤه و إمضائه تتصف بالحكمه، حيث انه سبحانه يحكم بالعدل و يقضى بالحق، و لا يتخذ من لدنه لعبا و لا لهوا، بل لكل كلمه يلقيها هدف معلوم، و أجل مسمى.

ص: ١٧٣

إشارة

مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهِمْ مَوْجٌ كَالظُّلُمِ اللَّيْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِآيَاتِهِ لَاحِقِينَ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

اللغة

٢٩ [يولج]: ينقص من النهار ليزيد على الليل أو يدخل ليله كل يوم في نهاره.

٣٢ [غشيهم]: علاهم و غطاهم.

[كالظلم]: الظلم جمع ظلّه، وهو ما أظلك كالسحاب والجبال.

[مقتصد]: عدل في الوفاء في البر عما عاهد الله عليه في البحر.

[ختار كفور]: الختر أفتح الغدر.

ص: ١٧٥

هدى من الآيات:

هل أن الأصل فى الحياه الكمال أم النقص؟ العدم أم الوجود؟ فإذا كان الأصل هو الكمال، فإن كل نقص يطرأ على الكون يخالف انتظارنا و توقعنا، و إذا كان العكس، فإن من واجبنا الشكر لله على كل اضافه جديده.

حسبنا عوده إلى الوراء توضح لنا الأمر، حيث أننا لم نكن شيئاً مذكوراً بالأمس، و أن الكمالات قد أضيفت لنا شيئاً فشيئاً، فصرنا إلى القوه بعد الضعف بقدره الله، و بعد الجهل إلى المعرفه برحمته.

هكذا كان العدم مهيمنا علينا من كل جانب و صوب، فمَنْ علينا ربنا بنعمه الخلق، و أسبغ علينا من نعمه الظاهره و الباطنه، حتى أن كل ذرات كياناتنا المادى و المعنوى هى نعم إلهيه علينا، فلما ذا نكفر و نتكبر و نطغى و نحن نعلم بأن هذه النعم لن تكون الا إلى فتره يسيره، و انها عرضيه تزول عند ما يقرر الإنسان ان لا يشكر ربه

عليها، أو حينما يكتب الله لها الزوال.

و يتجلى الفرق بين الإنسان الذى يتصور بان الكمال هو الأصل فى ذاته، و بين الآخر الذى يعرف انه لم يكن شيئاً، انما خلقه الله شيئاً ثم أضاف اليه من نعمه، يتجلى الفرق فى الصفات بين الصبّار الشكور و الختار الكفور، لأن كلا هذين الموقفين منطلق من إحدى النظرتين السابقتين، فمن يتصور بأن الأصل هو الكمال لا يرى ضروره للشكر أو الصبر، لأنه سيعتبر ذهاب النعمه من بين يديه شذوذا لا يطاق، بينما يشكر الآخر-الذى يعتقد بان الأصل هو النقص و العدم-عند النعم، و يستفيد منها فى تكامله، و يصبر عند البلاء لأنه يعتبر النعمه حينذاك أمانه استرجعها الله، و هذا الايمان يجعله يحير فى مهرجان الرضا بقضاء الله و التسليم بقدره، أما الكفور فاذا مسه الخير تراه منوعاً، أما إذا مسه الشر فهو جزوع، يدفعه شعوره الدائم بالنقص (الحقاره) الى التفتيش عن إضافات توصله إلى الكمال، دون التفكير فى الوسيله السليمه و دون معرفه.

و من أجل ان نخلق فى أنفسنا صفه الصبر و الشكر، يدعوننا القرآن إلى التفكير فى أنفسنا فى الكون، بحثاً عن الحقيقه العظمى فيه، و هى معرفه الله، و الإنسان غالباً ما يفكر فى مخلوقات الله بذاتها، دون ان يقوده تفكره فيها إلى معرفه ربه و هذا منهج خاطئ، و القرآن الكريم يوسع أفقنا و يأخذ بأذهاننا إلى ما وراء الحياه الدنيا، و يعطى لنا منهجاً ينتهى فى كل اتجاه إلى معرفه الله، ذلك أن هذه المعرفه تعطى الإنسان نظره سليمه إلى هذه الحياه، فى سرائها و ضرائها، و فى ظاهرها و باطنها.

بينات من الآيات:

إشاره

(٢٨) و يمضى السياق قدماً فى تذكره المؤمنين بأسماء ربهم و إتمام الحجه على الناس جميعاً، و يبين لهم جانباً من قدره الله، بعد أن صوّر لهم جانباً من عزته

ص: ١٧٧

و حكمته، و ذلك ببلاغه نافذه، أ رأيت كيف هدانا إلى عظيم عزته بأن كلماته لا تحصى؟ هكذا يهدينا إلى قدرته و لطف تدبيره بأنه يخلق الناس جميعا كما لو يخلق نفسا واحده، ثم يبعثهم كما لو يبعث نفسا واحده. أ رأيت كيف يقرب إلينا حقيقه قدرته و لطفه و احاطته بالأشياء خيرا! مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَذْكُرْنَا بِضُرُورِهِ خَشِيَّتَهُ وَيَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَسْمَعُ مَا نَقُولُهُ، وَيَرَى مَا نَصْنَعُهُ، وَهَذَا يَدْعُونَا إِلَى تَحْمِلِ مَسْئُولِيهِ كَلَامَنَا وَ أَعْمَالِنَا.

(٢٩) ان الله جعل الشمس و الأرض في حركه دائمه، من خلالها يحدث الليل و النهار و تتغير الفصول.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوسِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوسِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَالتعبير القرآني «يولج» دقيق جدا من الناحيه العلميه، إذ يشير إلى الحركه الفصليه على مدار السنه، فاذا ولج الليل في النهار-دخل فيه و أخذ منه-حتى إذا تعادلا صار الربيع، و هكذا يستمر دخوله في النهار حتى يصير أطول منه فيحيل الفصل شتاء، ثم يمتد النهار شيئا فشيئا-يلج في الليل و ينتقص منه-الى ان يصير أطول منه فيكون الفصل صيفا.

و كما أن للإنسان و سائر المخلوقات أجالا مسمى، فان للشمس و القمر أجالا مسمى، مما يدل على ان الشمس و القمر لم يكونا شيئا في يوم من الأيام-تماما

كالإنسان- وهذا يهدينا إلى انهما يجريان إلى نقطه الصفر فى النهايه،و إلى وجود خطه و تدبير لهما من قبل الله عز و جل.

وَ سَيَحْرَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى عِنْدَ اللَّهِ، وَ قَدْ ثَبِتَ فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثُ أَنَّ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ سَائِرَ الْكَوَاكِبِ وَ النُّجُومِ الْآخَرَىٰ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْإِنْتِهَاءِ.

وَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣٠) ما ذا ترى حولك فى الخلق، أو لست ترى سماء مبنيه بغير عمد،محبوكه من دون اى فطور،و أرضا مدحيه،و الليل و النهار يختلفان عليها،و كل شىء فيها بمقدار،فالى ما تهديك كل تلك الحقائق؟أو ليس إلى رب مقتدر دائم الملك،دائم القدره،لا يحد علمه شىء،و لا يبلى سلطانه الزمن،و لا يزيل عزته تنافس،و لا يمتنع عن قهره أحد-سبحانه- ذلك هو الله الحق،الثابت بلا تغيير،الدائم بلا زوال،المعطى بلا نفاذ،القاهر بلا نصب.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ أَمَا الْآلِهَةُ الَّتِي تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهِيَ الزَّائِلَةُ. أ رأيت كيف تغيب الشمس، و يافل القمر،و ينفجر النجم،أو ما تبصر اختلاف الليل و النهار و كيف يبليان كل جديد،و يقضيان على كل سلطان؟!فمن أراد أن يتمسك بالعروه الوثقى، و يعتمد على السند القوى،و يدخل فى حصن منيع فعليه بتوحيد الله الحق.

وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا ثَبَاتَ لَهُ وَ لَا اسْتِمْرَارَ.

وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الَّذِي تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، فَلَا زَوَالَ وَ لَا اِضْمَحْلَالَ، وَ لَا نَفَادَ وَ لَا تَحْدِيدَ، وَ لَا نَقْصَ وَ لَا عَجْزَ، وَ لَا سَنَةَ وَ لَا نَوْمَ سَبْحَانَهُ.

الْكَبِيرُ قُدْرَتَهُ وَاسِعَهُ، وَ عِلْمَهُ مَحِيطَ، وَ رَحْمَتَهُ شَامِلَهُ، وَ مَنَّهُ قَدِيمَ، وَ فَضْلَهُ عَمِيمَ، وَ آيَاتِهِ فِي كُلِّ أَفْقٍ، وَ شَهَادَتَهُ أَكْبَرَ شَهَادَةٍ. فَلَا شَيْءَ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا بِتَدْبِيرِ مَنْ سَبْحَانَهُ.

وَ هُنَاكَ عِلَاقَةٌ بَيْنَ دَعْوَةِ اللَّهِ لَنَا فِي أَوَّلِ الْآيَاتِ إِلَى النَّظَرِ فِي الْكَوْنِ، وَ دَعْوَتِهِ لَنَا فِي آخِرِهَا إِلَى النَّظَرِ فِي سَلُوكِنَا، عِنْدَ مَا يَخْبِرُنَا بِأَنَّهُ مَحَاطٌ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَ تَحْتَ سَمْعِهِ وَ بَصَرِهِ، وَ تَتَلَخَّصُ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ فِي ضَرُورِهِ انْعِكَاسَ نَظَرَتِنَا إِلَى الْكَوْنِ عَلَى سَلُوكِنَا فِي الْحَيَاةِ، كَمَا تَسُوقُنَا الْآيَةَ إِلَى حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ فِي هَذَا الْكَوْنِ، إِذْ تَهْدِينَا إِلَى أَنَّ الرَّبَّ الَّذِي يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَ الَّذِي سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ هُوَ الَّذِي يَدِيرُ الْإِنْسَانَ وَ يَرْعَاهُ، فَيَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ، وَ يَحَاسِبُهُ وَ يَجَازِيهِ عَلَيْهِ.

□
(٣١) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ الْفَلَكِ هِيَ السَّفِينُ الَّتِي كَانَتْ تَحْرِكُهَا الرِّيحُ، وَ ذَلِكَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَ رَحْمَتِهِ، إِذْ بَعَثَ هَذِهِ الرِّيحَ وَ اجْرَى السَّفِينُ الَّتِي عَبَّرَهَا جَعَلَتِ الرِّيحُ فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ.

وَ بِمَا أَنَّ الْهَدْفَ الْأَسْمَى مِنْ نِعْمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ تَكَامُلَ رُوحِهِ وَ مَعْنَوِيَاتِهِ، فَقَدْ قَالَ الرَّبُّ:

لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ

ص: ١٨٠

ان البحار تحتضن عجائب خلق الله من خليه اسفنجيّه متواضعه الحجم و التطور، الى الحيتان الضخمه التي تبلغ عين الواحد منها وزن فيل و هو أعظم حيوان برى.

الايمان صبر و شكر:

جاء فى الحديث:

«الايمان نصفان، نصف صبر و نصف شكر» (١) و الواقع: أن الشكر و الصبر يشعبان من مشكاه واحده هى التسليم لله و لقضائه، و الايمان بأنه الواهب المتفضل المنان، بيد أن الشكر هو تجلّ لهذه الحاله عند النعمه، و الصبر تجل لها عند النقمه، لذلك

جاء فى الحديث عن الامام الباقر عليه السلام:

«العبد بين ثلاثه: بلاء و قضاء و نعمه، فعليه فى البلاء من الله الصبر فريضه، و عليه فى القضاء من الله التسليم فريضه، و عليه فى النعمه من الله عز و جل الشكر فريضه» (٢) و لعل أعظم ما فى الشكر هو تنميه روح الرضا فى النفس بعيدا عن الغرور و الفخر و الكبرياء، و النفس الراضيه تستدر ثواب الله، و تسعد فى الدنيا.

يروى الامام الصادق (عليه السلام) عن الرسول (صلى الله عليه و آله):

«الطاعم الشاكر له من الأجر مثل أجر الصائم المحتسب، و المعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، و الغنى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم

ص: ١٨١

١- ١) المصدر/ص (٢١٧) نقلا عن مجمع البيان، و لم ينسب الحديث إلى أحد و الظاهر انه عن رسول الله (صلى الله عليه و آله).

٢- ٢) موسوعه بحار الأنوار/ج (٧١)/ص (٤٣).

القانع» (١) و لعل الحكمة فى ذلك أن الشكر يزيد فى الإيمان بالله، و بأنه المتفضل المَنَّان، و يمنع عن صاحبه الغرور، و يدفعه نحو الالتزام بواجبات النعمة.

هذا عن ثواب الله أما عن سعادته القلب فان أعظم ما فى النعم تحقيق طموحات النفس، أما لذته الجسد فانها تتلاشى بسرعة و هى لا تمنح البشر سعادته. أ رأيت لو حكم بالإعدام على شخص ثم أوتى أفضل أنواع الطعام، و هبَّت له اللذة الجنسية مع أجمل بنات العالم، فهل يهنئ بذلك؟! كلا..

كذلك لو كان القلق النفسى يؤرق الفرد لا يهنئ بلذته جسديه مهما كانت عارمه و متنوعه، ذلك أن المهم هو سعادته القلب و رضاه.

فمن كان ينتظر مليون دولار ربحا إذا حصل على نصف مليون تراه آسفا، أما إذا لم ينتظر شخص ربحا فربح نصف دولار فانه يعيش الفرح، كذلك لو تمنى شخص الرئاسة فى بلد فقدر له منصب نائب الرئيس لم يتحسس بالسعادة بقدر من لم يطمع فى منصب صغير فحصل عليه.

و هكذا الشاكر لأنعم الله يتحسس بالنعم، و يعرف أنه لم يكن يستحقها إلا بفضل الله، فهو كمن لا ينتظر أى مكسب بل ينتظر خساره فىأتيه الربح، كأنك تراه يسعد به أنى كان ضئيلا.

دعنا نقرأ حديثين يؤكدان هذه الفكرة الهامة التى اعتبرها مفتاحا هاما للإحساس بالسعادة دائما.

ص: ١٨٢

١-٣ المصدر/ص(٤١).

يقول محمد بن خلّاد: سمعت أبا الحسن صلوات الله عليه يقول:

«من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد أفضل من تلك النعمة» (١)

و يقول مالك بن أعيين الجهني: أوصى علي بن الحسين (عليه السلام) بعض ولده فقال:

«يا بني! اشكر الله لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعمة إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت و الشاكر بشكره أسعد منه بالنعمة التي وجب عليه الشكر بها، و قرأ علي بن الحسين: و إذ تأذن ربكم لأن شكرتم لأزيدنكم» (٢) و يكفي المؤمن دافعا الى الشكر انه ينظر الى البلاء ينزل على الناس و هو معافى عنه، و يقول في نفسه: ماذا لو قدر الله على هذا البلاء، فيتلاّأ قلبه نورا و شكرا.

هكذا

أجاب الامام أمير المؤمنين رجلا سأله: بماذا شكرت نعماء ربك؟ فقال:

«نظرت الى بلاء قد صرفه عني، و أبلى به غيري، فعلمت أنه قد أنعم على فشكرته» (٣) و كلما رأى المؤمن مبتلى ازداد لربه شكرا على انه لا يزال معافى.

هكذا علمنا ديننا أن نشكر الله حين نرى مبتلى، و هكذا

يقول إمامنا الباقر عليه

ص: ١٨٣

١-٤ المصدر/ص (٣١).

٢-٥ المصدر/ص (٥٠).

٣-٦ المصدر/ص (٤٣).

«تقول ثلاث مرات إذا نظرت الى المبتلى من غير ان تسمعه، الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به، ولو شاء فعل، قال: من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبدا» (١) والشكر يقى النفس من الانزلاق فى مهوى الفخر و الغرور، لأنه يوحى الى النفس أن النعمه ليست ذاتيه له بل هي اضافه خارجيه ذات عوامل خاصه لا بد من المحافظه عليها حتى تستمر، فالغرور يضحى تواضعا، و الفخر سعيًا، و الكسل اجتهادا، و كل ذلك مما يحفظ النعم و يزيدها.

جاء فى الحديث: قال الامام الصادق عليه السلام:

«ما أنعم الله على عبد نعمه، فعرفها بقلبه، و حمد الله ظاهرا بلسانه فتمّ كلامه، حتى يؤمر له بالمزيد» (٢) بينما عدم الشكر يورط أصحاب النعم فى الجوانب السلبيه لها، بل تتحول النعمه عندهم الى وبال و نقمه.

أرأيت كيف بادت حضارات كانت سائده. لماذا؟ لأنها لم تشكر ربها، بل غرقت فى بحر الغرور و التجبر، و بالتالى عاثت فسادا فى الأرض فكبت بها أخطاؤها، و دمرت تدميرا.

من هنا

جاء فى الحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال:

ص: ١٨٤

١-٧ المصدر/ص(٤٣).

٢-٨ المصدر/ص(٤٠).

«ان الله أنعم على قوم بالمواهب فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً، وابتلى قوما بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمه» (١) و من أبرز أخطار ترك الشكر أنه ليس فقط يسبب في زوال النعم، بل و يتحول الى و بال يمنع عوده النعم عادة. مثلاً: إذا أنعم الله على عبد فأصبح قائداً، و أبطره المنصب فأقيل منه لا- يعود اليه هذا المنصب بسهولة، لأن الناس يرفضونه بسبب تجربته الفاشله فى الحكم، كذلك ينبغى التشبث بالنعم عبر الشكر حتى لا تزول ثم لا تعود أبداً.

قال الامام الصادق عليه السلام حسبما جاء فى روايه زيد الشحام:

«أحسنوا جوار النعم، و احذروا أن ينتقل عنكم إلى غيركم، أما إنها لم ينتقل عن أحد قط فكادت ان ترجع اليه و أضاف عليه السلام قائلاً: و كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: قلّ ما أدبر شىء فأقبل» (٢) و الذين يشكرون النعم يعرفون أنها قد تكون البدايه لسلسله متكامله من فضل الله، و هكذا يستدرجونها لأنفسهم بشكرها، بينما غيرهم يبطرون بها فلا- تستكمل النعم عندهم، فمن حصل على ألف، و شكر النعمه بالسعى و النشاط، و أداء حقوق الناس استدرج الألف، بينما الذى يطر بها فهو لا يحصل على المزيد بل يفقد الموجود.

هكذا

يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام):

ص: ١٨٥

١- ٩ المصدر/ص (٤١).

٢- ١٠ المصدر/ص (٤٧).

«إذا وصلت إليكم أطراف النعم، فلا تنفروا أقصاها بقله الشكر» (١)

كيف نشكر الله على النعم

؟ هناك عدة وسائل لشكر النعم:

أولاً: ينطلق الشاكر من قاعده الإيمان بأن النعم من الله لذلك فإن إذعان قلبه بأن النعمه من الله عنوان شكره عليها.

قال الامام الصادق عليه السلام:

«من أنعم الله عليه بنعمه، فعرفها بقلبه فقد أوتى شكرها» (٢) ثانياً: ذكر «الحمد لله» على لسانه، هكذا

روى عمر بن يزيد عن الامام الصادق (عليه السلام) قال سمعته يقول:

«شكر كل نعمه - و ان عظمت - ان تحمد الله عز و جل» (٣) ثالثاً: اجتناب المحرمات، وبالذات تلك التي تقتضيها النعمه مثل الفخر و التجبر أو الإسراف و البخل أو الفساد الجنسي.

هكذا

روى عن أمير المؤمنين عليه انه قال:

«شكر كل نعمه الورع عما حرم الله» (٤)

ص: ١٨٦

١- ١١ المصدر/ص (٥٣).

٢- ١٢ المصدر/ص (٣٢).

٣- ١٣ المصدر/ص (٤٣).

٤- ١٤ المصدر/ص (٤٢).

رابعاً: أداء حقوق النعمه، والالتزام بالحدود التي شرعها الدين لها.

دخل سدير الصيرفي على الامام الصادق (و كان ذا غنى حسب الظاهر) قال له:

يا سدير! ما كثر مال رجل قط إلا عظمت الحجه لله عليه، فان قدرتم [على أن تدفعونها] كذا [على أنفسكم فافعلوا.

فقال له: يا ابن رسول الله بماذا؟ قال:

بقضاء حوائج إخوانكم من أموالكم، ثم قال: تلقوا النعم- يا سدير- بحسن مجاورتها، واشكروا من أنعم عليكم، وأنعموا على من شكركم، فإنكم- إذا كنتم كذلك- استوجبتم من الله الزيادة، و من إخوانكم المناصحه، ثم تلا:

« لَيْسَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » (١) خامساً: بالاجتهاد في سبيل الله، و ابتغاء مرضاته، ذلك ان النفس الشاكره تنبعث عفويا نحو الطاعه، و الاجتهاد في العباده لا لأداء حق الله الذي عليها، لأن حق الله أعظم من ان يؤديه شكر العبد، أو ليس العمل- بالتالي- يكون بحول الله و توفيقه مما يقتضى المزيد من الشكر، انما حباً لله و شوقا الى لقائه الكريم.

تعال معي الى الرسول الأعظم محمد بن عبد الله- صلى الله عليه و آله- لنرى كيف كان يجهد نفسه في العباده شكراً لله.

يدخل عليه عمر بن الخطاب و النبي محموم، فقال له عمر: يا رسول الله! ما أشد

ص: ١٨٧

وعكك أو حماك؟! فقال:

«ما معنى ذلك ان قرأت الليله ثلاثين سوره فيهن السبع الطوال» فقال عمر: يا رسول الله غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، و أنت تجتهد هذا الاجتهاد؟! فقال:

«يا عمرا! فلا أكون عبدا شكورا» (١) سادسا: القناعه بما يجده المرء، و الابتعاد عن الحرص و الشره. ان الشكر ليس وليد الرضا بأمر الله فقط، و انما يساهم- أيضا- فى تنميه روح الرضا و القناعه، و يجعل الإنسان يركز أبدا على الجوانب الإيجابيه للحياه، و يتمتع بها، و يستفيد منها، و ينطلق للحصول على المزيد منها بخطى ثابتة و واقعيه و نفس راسخه العزم و هو مطمئن البال.

و القصه الطريفه التاليه تعكس طبيعه النظره الإيجابيه عند أولياء الله الشاكرين، فهذا الصحابى الجليل سلمان (الفارسى) يدعو أبا ذر رحمه الله عليهما ذات يوم الى ضيافه، فيقدم اليه من جرابه كسر يابس و بلها بركوته.

فقال أبو ذر: ما أطيب هذا الخبز لو كان معه ملح، فقام سلمان و خرج و رهن ركوته بملح و حملة اليه، فجعل أبو ذر يأكل ذلك الخبز و يذر عليه ذلك الملح، و يقول: الحمد لله الذى رزقنا هذه القناعه، فقال سلمان: لو كانت قناعه لم تكن ركوتى مرهونه.

(٢)

ص: ١٨٨

١- (١٦) المصدر/ص (٤٨).

٢- (١٧) المصدر/ص (٤٦).

و الصبر- كما الشكر- تجلّ لروح الإيمان عند النوائب، و فى لحظات عصف الشهوات، و عند تحمل الصعاب.

و الآيه تربط بين الصبر و الشكر، و تجعلهما وجهان لروح واحده، كما يتبين ان آيات الله تتجلى عند أصحاب هذه الروح.

بلى. لأن النفس التى تنساب مع النعم أو النقم لا تملك استقلاله فى الرأى، و لا وضوحا فى الرؤيه، لأنها تميل مع رياح الظروف أنى مالت، فاذا عصفت بها الشهوات طغت و تجبرت، و استأثرت بالنعم، و تعالت على الآخريين، و إذا توالى عليها المصائب انهارت و أظلمت الدنيا عندها و جزعت، لذلك تتجلى الآيات الإلهيه للصبار الشكور أكثر من غيره.

و الواقع ان الصبار الشكور هو الحرّ حقًا، الذى ينظر الى الحقائق نظره موضوعيه و مجردة عن المصالح.

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام:

«ان الحر حر على جميع أحواله ان نابته نائبه صبر لها، و ان تداكت عليه المصائب لم تكسره، و إن أسر و قهر و استبدل باليسر عسرا كما كان يوسف الصديق الأمين لم يضرر حريره ان استعبد و قهر و أسر، و لم يضرره ظلمه الجب و وحشته و ما ناله أن منّ الله عليه فجعل الجبار العاتى له عبدا بعد إذ كان مالكا فأرسله و رحم به أمه، و كذلك الصبر يعقب خيرا، فاصبروا و وطنوا أنفسكم على الصبر تؤجروا» (١)

ص: ١٨٩

هكذا الصبر عنوان الإنسان الحر، ومفتاح الفرج بعد الشده، وهو - كذلك - صلاح العمل. أو ليس الزمان جزء من فطره الخليقه؟! فمن لا صبر له لا يمكنه ان يوظف عامل الزمن لمصلحته، فيكون سببا لفساد أعماله. أ رأيت الفلاح الذى لا ينتظر الموسم المناسب لزراعته، والتاجر الذى لا يصبر حتى تزدهر السوق لبيع سلعته، والتائر الذى يستعجل تفجير ثورته. أو ليس يفشل هؤلاء، بينما ينجح الصابرون؟! بلى. كذلك

قال أمير المؤمنين عليه السلام للرجل الذى رآه على باب المسجد كئيبا حزينا فقال له: مالك؟! قال: يا أمير المؤمنين أصبت بابى و أخى، و أخشى ان أكون قد وجلت، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام):

«عليك بتقوى الله، والصبر تقدم عليه غدا و أضاف الامام عليه السلام قائلا: والصبر فى الأمور بمنزله الرأس من الجسد، فإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور» (١) وبالذات الايمان فان رأسه الصبر، لأن أعظم خصائص الايمان الاستثمار لليوم الآخر، ولا يبلغه من لا صبر له.

يقول الامام على بن الحسين عليهما السلام:

«الصبر من الايمان بمنزله الرأس من الجسد، ولا ايمان لمن لا صبر له» (٢) و حقيقه الصبر الاستفادة من عامل الوقت، و استشراف المستقبل، و التخطيط له، و توظيف الطاقات لأجله، و بالنسبه إلى المؤمن يعتبر اليوم الآخر الحياه الحقيقه، و لذلك فهو يعمل له أبدا، و لكنه يقتطع من كل مساعيه جزء مناسباً

ص: ١٩٠

١- ١٩ المصدر/ص (٧٣).

٢- ٢٠ المصدر/ص (٨١).

للدنيا، حسب وصيه ربه له حيث يقول:

وَابْتِغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (١) و لذلك فان المؤمن يستسيغ الصبر في كل الظروف، و في مواجهه مختلف الاحتمالات، و قد قسم الشرع الصبر على ثلاثه: الصبر عند النوائب، و الصبر على الطاعات، و الصبر على المعاصي، و وضع لكل واحد منها درجه من الثواب. تعال نستمع الى

الامام على عليه السلام يحدثنا عن حبيبه رسول الله (صلى الله عليه و آله) و يقول:

«الصبر ثلاثه:

صبر على المصيبه، و صبر على الطاعه، و صبر على المعصيه.

فمن صبر على المصيبه حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائه درجه، ما بين الدرجه الى الدرجه كما بين السماء الى الأرض.

و من صبر على الطاعه كتب الله له ستمائه درجه، ما بين الدرجه الى الدرجه كما بين تخوم الأرض الى العرش.

و من صبر على المعصيه كتب الله له تسعمائه درجه، ما بين الدرجه الى الدرجه كما بين تخوم الأرض الى منتهى العرش» (٢) ان ميزه الصبار الشكور و عيه لآيات الله، و اهتداؤه بها الى حقائق الخلق، فهو لا يعيش لحظته العابره بل يعيش -بوعيه الواسع- المستقبل فيصبر على

ص: ١٩١

١- (٢١) القصص / (٧٧).

٢- (٢٢) المصدر / ص (٧٧).

نوائب الحاضر انتظاراً للفرج، و معرفه بأن هناك نوائب أخطر لَمَا تحل به، و أنّ عليه أن يشكر ربه حتى لا تحل به أبداً، و هكذا

جاء فى النص المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام :

« كان رسول الله صلى الله عليه و آله إذا أتاه أمر يسره قال: الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، و إذا أتاه أمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال» (١) و هو يعيش كذلك الماضى، فيشكر الله على نعمه و على دفع النقم عنه.

بينما الختار الكفور الذى لا يملك وفاء و لا شكراً، فانه يتعامل مع اللحظة الراهنه و كأنها أبدية فيتغير حسبها، فاذا افتتن بالنوائب تراه يجأ الى ربه، فاذا نجاه الله منها عاد الى غيّه و نسى ما ألمّ به.

□ و إذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ ان غشيان الموج امر رهيب. إذ معناه الظاهر إحاطته بهم من كل صوب و حذب، ثم يعبر القرآن عنه انه «كالظلمل» بصيغه الجمع لأن الموج يتعاقب و يتكاثف.

□ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حيث أخلصوا التسليم و الانقياد لرب العالمين، و انقشعت عن أبصارهم غشاوه الغفله، و تلاشت العقد النفسية التى منعت عنهم الايمان، و انزاح عن قلوبهم خوف الشركاء أو الرجاء فيهم، حيث لا يقدرّون على شىء فى تلك الساعه الرهيبة عند تكاثف الموج، و تزايد خطر الموت.

ص: ١٩٢

١- ٢٣) بحار الأنوار/ج (٧١)/ص (٤٧).

ان هذه الحاله تتكرر عند الإنسان فى أوقات عديده، عند ما يحيط به حريق هائل، عند ما يدخل عزيز له الى غرفه الانعاش و يشير الأطباء انهم لا يملكون من أمره شيئاً، و حين ترتطم سيارته فى طريق مهجور فيتدفق الدم من جوارحه، و.و.

إن تعلق القلب آئذ بالرب الحق وحده لا شريك له لشاهد صدق على زيف الشركاء، و لكن الإنسان يفقد هذا الايمان النقى بعد مرور الخطر.

و ينقسم الناس فريقين: فمنهم من تبقى عنده آثار تلك الساعه فيشكرون الرب، و يصبرون على بلائه و هؤلاء هم المقتصدون.

فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَ هُوَ الْمَعْتَدِلُ وَ الْمَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ.

و هؤلاء تبقى فى نفوسهم آثار تلك الشعلة الإلهيه، التى أوقدتها حاله الانقطاع الى الرب، و منهم الجاحدون الذين يفقدون الوفاء و الشكر للنعماء.

وَ مَا يَجْعَدُ بِالْيَأْتِدُ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ وَ الْخِتَارُ هُوَ الَّذِى يَنْكُثُ عَهْدَهُ كَثِيرًا، وَ لَعَلَّ الْكَلِمَةَ تَقَابُلُ الصَّبَارِ لِأَنَّ حَالَهُ الصَّبْرُ تَعْنَى الْإِسْتِقَامَةَ، وَ الْبَقَاءَ عَلَى الْعَهْدِ، وَ بِالتَّالِىِ عَدَمُ تَبَدُّلِ الْمَوَاقِفِ حَسَبِ الظُّرُوفِ أَوْ حَسَبِ الْمَصَالِحِ، وَ الْكُفُورُ صِفَةٌ مُقَابِلَةٌ لِلشُّكْرِ.

(٣٣) لكى يتسع و عى الإنسان المستقبل لا بد أن يتصوره باستمرار، و يعرف مدى خطورته، و لرب مستقبل أعظم ثقلا و حضورا و شهاده من اللحظه الراهنه لأهميته القصوى كذلك اليوم الآخر.

و حين يعيش الإنسان ذلك اليوم الرهيب يحافظ على توازن قلبه عند الشدائد، و عند تواتر النعم، فلا يجزع عند المصائب، و لا تبطره الآلاء.

و لعل ذلك هو مناسبة التذكرة بالقيامه فى خاتمه السوره.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَ اخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ هَكَذَا لَا يَجُوزُ الْخُضُوعُ لِلْوَالِدِينَ إِذَا خَالَفَ أَمْرَهُمَا أَمْرَ اللَّهِ.

و لَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْعَى الْإِنْسَانُ لِإِسْعَادِ ابْنَائِهِ عَلَى حِسَابِ دِينِهِ.

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا.

فَلَا تُعَزِّنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الَّتِي تَحْجُبُ الْبَشَرَ عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِ الْآخِرَةِ، وَ عَنِ الْعَمَلِ لَهَا.

و الواقع: ان القريب يحجب البعيد ان لم يتسلح الإنسان بالبصيره النافذه، لذلك

جاء فى الحديث:

«حب الدنيا رأس كل خطيئه» و يفسر النص التالى هذا الحديث بصوره رائعه فقد

روى محمد بن مسلم بن شهاب قال: سئل على بن الحسين (عليهما السلام) أى الأعمال أفضل عند الله عز و جل؟ فقال:

ص: ١٩٤

ما من عمل بعد معرفه الله عز و جل و معرفه رسوله -صلى الله عليه و آله- أفضل من بغض الدنيا، و ان لذلك لشعبا كثيره، و للمعاصي شعبا، فأول ما عصى الله به الكبير، و هى معصيه إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين، و الحرص و هى معصيه آدم و حوا حين قال الله عز و جل لهما: «فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» فأخذوا مالا حاجه بهما اليه، فدخل ذلك على ذريتهما الى يوم القيامة، و ذلك أن أكثر ما يطلب ابن آدم مالا حاجه به اليه، ثم الحسد، و هى معصيه ابن آدم حين حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حب النساء، و حب الدنيا، و حب الرياسه، و حب الراحة، و حب الكلام، و حب العلو و الثروه، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلهن فى حب الدنيا، فقال الأنبياء و العلماء بعد معرفه ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئه، و الدنيا دنياان: دنيا بلاغ و دنيا ملعونه (١) وَ لَا يُغْرِنُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ان بعض الناس يتحدى الغرور الذى ينتابه بسبب حب الدنيا لأنه غرور مباشر، أو لأنه لا يملك شيئا منها، و لكنه يغوى عبر المغرورين بالدنيا، مثل الملايين الذين تضلهم اليوم أجهزه إعلام المترفين، فهم يخسرون آخرتهم ليحصل غيرهم على الدنيا، فهم خسروا الدنيا و الآخره.

(٣٤) و لكى تترسخ دعائم الايمان بالله و اليوم الآخر فى النفس، و يعلم البشر انه لا يملك مستقبله بل و لا حاضره، فتطمئن نفسه الى قضاء الله، و يصبر على بلائه، و يشكر نعماءه و فى ذات الوقت يزداد إحساسا بمسؤوليته عن مساعيه، من أجل ذلك و غيره ذكرت الآيه الأخيره من هذه السوره بإحاطه قدره الله و علمه

ص: ١٩٥

بالإنسان، فهو الذى يملك علم الساعه-و هى أخطر-حين يمر بها أبناء آدم، ثقلت فى السموات و الأرض.

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَنِ تَسَوَّاهُ عَلَى الشَّاطِئِ الْأَخِيرِ. لا أحد يعلم ذلك، بل لم يحدد ربنا لذلك وقتا-حسب بعض النصوص-انما يقررها الرب متى شاء، وقد قال عز من قائل: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۚ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۚ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (١) وَ يُنَزَّلُ الْعَيْثُ بِقَدْرَتِهِ، فيحى الأرض بعد موتها. ان قدرته أيضا محيطه بالبشر كما علمه.

وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۚ حَيْثُ تَنْعَقِدُ نطفه البشر على أسس بيولوجيه بالغه الدقه، و خاضعه لعوامل متشابهه لا يعلمها الا الله، و لا يقدر أحد على التحكم بتفاصيلها أبدا، و هنالك ترى أسس شخصيته ظاهره و باطنه، جميل أم قبيح، طويل أم قصير، قوى أم ضعيف، حاد الطبع أم لين، و ما هى توجهاته العلميه و الادبيه و الفنيه، و ما هى مواهبه، و أهم من كل ذلك هل فى طينته نزعه شريره أم لا.

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام عن الآيه:

«يعلم الله سبحانه ما فى الأرحام من ذكر أو أنثى، و قبيح أو جميل، و سخى أو بخيل، و شقى أو سعيد، و من يكون للنار حطبا، أو فى الجنان للنبين مرافقا،

ص: ١٩٤

فهذا علم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلا الله» (١) و «مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا لَأَنَّ الْعَوَامِلَ الَّتِي تَوَثِّرُ فِي سَلُوكِ الْإِنْسَانِ لَا تَحْصِي عِدْدًا، فَكَيْفَ يَتَحَكَّمُ فِيهَا بِصُورِهِ جَازِمَةً، بَلَى. هُنَالِكَ تَخْطِيطٌ وَ تَقْدِيرٌ وَ اطمئنان نسبي، و لكن علم الغد خاص بالرب.

و حين لا- يعلم البشر ما يفعله غدا فبالأكيد لا- يعلم ما يفعله الآخرون، و ما قد يقع مستقبلا، و أفضل الخبراء عاجز عن معرفه المستقبل تفصيلا، مما يدل على ان المدبر للحياه ليس الإنسان نفسه.

كذلك

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، و حل العقود، و نقض الهمم» (٢) و «مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ وَ هَكَذَا تَكُونُ النِّهَايَةُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَلَمَّا ذَا الْغُرُورِ؟!»

يقول الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ النَّطْفَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّحْمِ، بَعَثَ اللَّهُ عِزَّ وَ جَلَّ مَلَكًا فَأَخَذَ مِنَ التُّرْبَةِ الَّتِي يَدْفَنُ فِيهَا فَمَاتَهَا (٣) فِي النَّطْفَةِ فَلَا- يَزَالُ قَلْبُهُ يَحْنُ إِلَيْهَا حَتَّى يَدْفَنَ

ص: ١٩٧

١- (٢٦) المصدر/ص (٢١٩).

٢- (٢٧) نهج البلاغه قصار الحكم/رقم (٢٥٠).

٣- (٢٨) مآثها: أذابها.

فيها» (١) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

ص: ١٩٨

١- ٢٩) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٢٢٠).

سوره السّجده

اشاره

ص: ۱۹۹

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم:

فى أربع سور فى القرآن يجب السجود عند الأمر به، و هى التى تسمى بالعزائم.

و هذه السوره أولها فى الترتيب، و لذلك حقّ ان تسمى بذلك، و قد تسمى ب(الم السجده).

لعلّ آيه السجده (١٥) هى محور السوره، و هى تبين أعظم صفات المؤمنين المخلصين، المتمثله فى تجلّى الله لقلوبهم الزكيه، حتى أنهم يخزّون سجداً لله إذا ذكروا بآياته، و تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم.

و تترى آيات السوره للوصول الى هذا المحور، انطلاقاً من اسم الربوبيه لإله العالمين، فهو الله الذى خلق السموات و الأرض فى ستة أيام، مما يوحى بترتيبها خلقاً بعد خلق، و طورا بعد طور. ثم هو الذى يدبر الأمر من السماء الى الأرض، و إليه يرجع العباد و أعمالهم، و هو عالم الغيب و الشهاده، يحيط علماً بالخلق، فلا

يعزب عن علمه شىء فى السموات و الأرض.

و يذكرنا السياق بتجليات اسم الرب فى خلق الإنسان الذى بدأ خلقه من طين، و تعاهد أمره طورا بعد طور حتى جعله بشرا سويا، و يتقلب فى تقدير الرب و تدبيره ما دام حيا، ثم يتوفاه ملك الموت الذى و كل به من عند الرب، و حين يتحول ترابا، و تنتشر أجزاءه فى الأرض، لا- يكون بعيدا عن هيمنه الرب و تقديره، و حين يبعث إلى محكمة العدل الإلهيه، ترى المجرمين ناكسى رؤوسهم، يتضرعون إليه، و يدعونه ان يرجعهم ليعملوا صالحا.

كلّا.. ان الله أقسم صادقاً أن يملأ جهنم من الجنه و الناس أجمعين، و لذلك تركهم يختارون طريقهم بحريه تامه، فاذا شاؤوا اختاروا الجنه، و لكن كيف النجاه من ذل ذلك الموقف، حين يندم المجرمون على أعمالهم؟ إنما بالتضرع اليه، و هكذا يحصر القرآن المؤمنين بآيات الله. أولئك الذين إذا سمعوا خروا سجدا، و سبحوا بحمد ربهم.

و جزاء هؤلاء عظيم الى درجه لا يمكن وصفه، حيث يقرّ الله أعينهم بالجزاء الحسن.

و إن من هؤلاء من يختارهم الله للإمامه، لأنهم يهدون بأمر الله، و يصبرون على الأذى فى جنبه، و لأنهم كانوا بآيات الله يوقنون.

و لعلّ الهدف الأسمى للسوره بناء هذه الطائفه المختاره، و هذا هو محور السوره الأساس- فيما يبدو لى- إلا أنّ هناك بصيره أخرى تعطىها آيات السوره هى:

نسف التمنيات التى يحلم بها الإنسان، و يريد ان يكون المؤمن و الفاسق سواء.

كلّا.. لا يستونون. إن للمؤمنين جنات المأوى، بينما مأوى الفاسقين النار

خالدين فيها، و دليل الفرق فى الآخرة عذاب الله الذى يصيب الفساق بأعمالهم فى الدنيا، الفقر، و الذل، و الأمراض، و الحروب، و الزلازل، و الفيضانات و..و..

كل ذلك دليل مسئوليه البشر عن أعمالهم السيئه، و انها لن تمر بلا حساب.

و ميزان الله دقيق، يفصل به يوم القيامة بين هؤلاء و هؤلاء، و نظره الى التاريخ تهدينا الى نكال الله الذى يصيب الكفار، و هو- برغم عظمتة- يعتبر عند الله عذابا أدنى، فكيف يهرب الفاسقون و المجرمون الذين يعرضون عن آيات الله عن الانتقام بالعذاب الأكبر؟! و فى خاتمة السوره يذكرنا الربّ بآيات رحمته، و انه يسوق الماء الى الأرض الجزر لينبت لهم و لأنعامهم زرعاً.

و يحذر أولئك الذين ينتظرون الآيات الواضحه التى تجبرهم على الإيمان و ينذرهم بأنه فى يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم فى ذلك اليوم.

ثم يأمر المؤمنين بالإعراض عنهم، و الانتظار، كما ان الكفار ينتظرون. ليرى الجميع جزاء أعمالهم، إن خيراً فخير، و ان شراً فشر.

[سوره السجده (٣٢): الآيات ١ الى ١١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)

اللغة

٢ [الريب]: الشك.

٣ [افتراه]: اختلقه من تلقاء نفسه.

٤ [استوى]: استولى على العرش بالقهر والاستعلاء.

٥ [يعرج إليه]: يصعد و يرتفع إليه.

ص: ٢٠٤

٨[سلاله]:السلاله الخلاصه،وقيل الصفوه التي تنسل من غيرها،و يسمى ماء الرجل سلاله لانسلاله من صلبه.

[ماء مهين]:منى حقير لقذارته و رائحته.

ص:٢٠٥

هدى من الآيات:

تذكرنا الآيات هذه بأن الربّ الذى يجب أن يسجد له من فى السماوات و الأرض، هو الله ربّ العرش، و أن ما يعبد من دونه ليس سوى أوهام و أساطير أبتدعتها أفكار الناس، و أن القرآن كتاب حكيم لا- ريب فيه لأنه من عند الله، و لكن لماذا يقول القرآن عن نفسه لا- رَيْبٌ فِيهِ ؟ الجواب: إنّ الشك نوعان: الأول ينبعث من العقل لعدم توفر الحجج و الآيات الكافية، و الثانى ينبعث عن هوى الإنسان بسبب كبره أو حجب الغفله التى تعمى قلبه، لذلك نجد القرآن يقول فى إحدى الآيات عن الكفار: فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (١) ناسبا الشك الى الكفار أنفسهم، أما القرآن ذاته فهو لا ريب فيه، لأنه صورته أخرى لعقل الإنسان المحض و المجرد عن المؤثرات السلبيه، كما أن

ص: ٢٠٦

العقل هو الآخر صورته باطنيه للقرآن، وإذ يشير الوحي الالهي عقل البشر فإن هذا العقل يؤيد حقيقته القرآن، للتطابق التام بين الذي يذكره القرآن وبين العقل البشري، ولذلك تتكرر في الآيات كلمته: لَا رَيْبَ فِيهِ .

ثم يستمر السياق في الحديث عن القرآن نفسه، مؤكداً بأنه لا يمكن أن يكون افتراءً كما يتقول البعض، لأن هدف القرآن هو إنذار الناس وهدايتهم للحق، ولا يمكن أن يتحقق الهدى بالكذب، كما أن القرآن ليس مجرداً عن الأدلة والبراهين حتى يكون موضعاً للريب والشك، ومن أنصح الأدلة أن الكاذب إنما يكذب لمصلحته نفسه، ونحن لا نرى من جاء بالقرآن وهو الرسول صلى الله عليه وآله يدعو إلى نفسه أبداً بل إلى ربهم، وهذا دليل على صدق الرسل، بل والدعوات الاجتماعية التي تأخذ هذا المنحى وتتبع منهج الرسل، والتي تتمحور حول العقل وعبادة الله فهي الصادقة، وأنصارها هم الصادقون، أما الدعوات التي تنتهي إلى الأشخاص لا إلى القيم، وتعتمد غير الله هدفاً وغاية فهي خاطئة، وأنصارها كاذبون.

والأنبياء من أول نظره إليهم يعرفون بأنهم إنما جاؤوا من عند الله، فالرجل الذي يلبس الخشن، ويأكل الجشب، ولا يجمع من حطام الدنيا شيئاً، ولا يدعو الناس إلى نفسه، ويتحمل كل الأذى من أجل خير الناس ليس أنانياً، إنما يضحى لإيمانه فهو صادق لا ريب فيه.

ثم يذكرنا القرآن بخلق السماوات الذي تم في ستة أيام، مثبِّتاً بخلقه الإنسان التي تمت على مرحلتين: الأولى: خلقه من الطين، والثانية: خلقه في الأرحام، وهذا قد يشير إلى عالم الذر حيث خلق الإنسان مرة واحدة على صورته (موجودات صغيرة) ثم وضعت في أصلاب الرجال، وخلق مرة أخرى عبر النكاح، ونمى في بطن أمه، ثم يشير إلى نفخ الروح فيه وهذا خلق آخر بعد ذلك الخلق، ويوصل

كل ذلك بقضيه النشور بعد الموت.

بينات من الآيات:

(١-٢) الم ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ كلمه الرب توحى بالعطاء المتدرج (كالترييه) والله رب السماوات و الأرض أى يعطيها كمالا بعد كمال، و خلقا بعد خلق و كما أشار الله لذلك حين قال:

وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (١) و كيف يعترى الريب كتابا أنزله رب العالمين، المهيمن على خلقهم و تدبير شؤونهم؟! إن فطره البشر جبلت على الثقة بالله، و تزداد هذه الثقة بتنامى معرفتهم بربهم، لذلك فإن المنهج الصائب لبعث الثقة بالكتاب فى النفوس تذكيرهم أولا بالله الذى أنزله، كما نجده هنا و فى سوره الفرقان و غيرهما.

(٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ و يرد الله على الكفار بأن القرآن ليس مفترى و ذلك لسببين:

الاول: أن المحور فى هذه الدعوه هو الحق، و ليس ذات الرسول مثلا، كما يفترض فى الدعوات الكاذبه التى هدفها تأكيد مصلحه أنصارها و أصحابها.

بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الثانى: أن ما تنتهى إليه هذه الرساله و هو الهدايه دليل على صحتها، ذلك أن الدعوه الكاذبه لا يمكن أن تنتهى الا الى إضلال الناس.

ص: ٢٠٨

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ و الكتاب يهيئ الفرصه للهدايه، و لا يحققها بصوره إكراه، فإن شاء الإنسان اهتدى بالكتاب، و إن شاء جحد.

(٤) ثم يذكر السياق بخلق السماوات و الأرض الذى تم فى ستة أيام، و لعل سائلا يقول: لماذا فى ستة أيام و ليس عشره؟ إلا أن الجواب الفطرى على ذلك أنه لو قال القرآن عشره أيام لقالوا: لماذا لم تكن ستة؟ و هذا لا ينفى وجود حكمه يعلمها الله تفسر هذا العدد. و مع ذلك فإننا نجد السياق يبين بأن الحساب عند الله يختلف عنه عند الناس إذ يقول: **وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**، و عموما فان فى الآيه اشاره الى حقيقه التكامل فى الخلق.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ يتطور خلالها الخلق يوما بعد آخر.

بالاضافه الى دلالة هذه الآيه على نظريه التكامل الاسلاميه، فانها تدل على دور الزمن فى واقع الأشياء، إذ هو جزء منها، و هذا ما نستوحيه من عدده آيات قرآنيه من بينها قوله تعالى: **مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى (١) أَى و بأجل مسمى، و لعل الباء المحذوفه هنا هى نفسها التى فى كلمه بالحق و تعنى الاستعانه.**

و إذ خلق الله الخلق لم يتركه سدى كما تدعى ذلك اليهود، مستوحيه من النظريات الفلسفيه البائده، بل هيمن عليه بتدبيره.

ص: ٢٠٩

١-٣) الأحقاف/(٣).

ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنِ الْقُدْرَةِ وَالْهَيْمَنَةِ. وَمَا دَامَ الْكَوْنُ خَلْقًا بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وَيُدَبِّرُ بِمَشِيئَتِهِ فَلَا بَدَّ أَنْ نَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَنُعْبُدَهُ، لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَقِفُ دُونَ تَنْفِيزِ إِرَادَتِهِ، وَاجْرَاءِ قَضَائِهِ.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ مَغْرُوزَةٌ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ، وَآيَاتُهَا مَبْثُوثَةٌ فِي الْخَلْقِ، وَلَكِنْ يَنْسَاهَا الْبَشَرُ مِمَّا يَجْعَلُهُ مَحْتَاجًا إِلَى التَّذَكُّرِ.

(٥) ثُمَّ تَوْكِدُ الْآيَاتِ هَيْمَنَةَ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ، وَتَدْبِيرَهُ لَهُ مِنْ مَرَاكِزِ أَمْرِهِ فِي السَّمَاءِ:

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ أَى يَجْعَلُهُ مَحْدَدًا، وَكَلِمَهُ تَدْبِيرٌ مَأْخُذُهُ مِنَ الدَّبْرِ أَى النِّهَايَةِ، وَتَدْبِيرُ الْأُمُورِ أَى مَعْرِفَةُ عَوَاقِبِهَا، وَ مَا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ حِينَمَا يَتَدَبَّرُ الْأَمْرَ لَا- يَعْنِي أَنَّهُ انْتَهَى، بَلْ أَنْ أَى عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ الْإِنْسَانُ يَحْدُدُهُ اللَّهُ ثُمَّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ عِنْدَ مَا يَكْتَسِبُهُ الْعَبْدُ. وَنَسْتَوْحِي مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ لَا يَنْعَدَمُ، فَالْكَوْنُ يَشْبَهُ الشَّرِيطَ السَّيْنِمَائِيَّ وَهُوَ يَتَحَرَّكُ مَعَ الزَّمَنِ، وَمَا نَعْتَقِدُ حَدْثًا وَانْتَهَى لَيْسَ كَذَلِكَ، فَهُوَ مَوْجُودٌ فِي هَذَا الشَّرِيطِ، وَيَعُودُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ . (١)

ص: ٢١٠

و الآيه هنا صريحه فى ان مقدار يوم القيامه الف عام، بينما نجد فى آيه أخرى ان مقداره خمسين الف سنه، لماذا؟ لعله لأن ساعات يوم النشور خمسون، و يدبر الله فى كل ساعه امرا، و ان عروج الأعمال اليه انما يتم فى ساعه واحده منه، بمثل هذا جاءت روايه مأثوره عن الامام الصادق عليه السلام:

«إن فى القيامه خمسين موقفا، كل موقف مثل الف سنه مما تعدون».

ثم تلا عليه السلام هذه الآيه:

«فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (١) (٦) و بعد أن تعرفنا الآيات على ربنا، لتنتهى بنا الى أن القرآن لا ريب فيه، باعتباره من عنده تعالى، تؤكد لنا بعض صفاته الحسنى:

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ يعلم خفيات الأمور و ظواهرها، فان كان الإنسان أحسن فى عمله، جزاه الله برحمته، و إن أساء عاقبه بعزته، أو تاب عليه برحمته.

(٧) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ و لعل هذه الآيه تشير الى أن كل مخلوق يحس و انطلقا من وظائفه الحياتيه و ظروفه بالكمال فى خلقه، فلو أبدلت أسنان الأسد بأسنان الإنسان أو منقار الغراب لما كان صالحا و لا مناسبا، فكل شىء تجده متناسقا و متكاملا فى حدوده، و بالنسبه الى وسطه و طبيعته.

ص: ٢١١

١-٥) تفسير نمونه ج (١٧) / ص (١١٧).

ثم يبدأ الحديث عن خلق الإنسان، و المراحل التي يمرّ بها، و دوره الذي يؤديه في الحياه منذ البدايه حتى الموت و الى الرجعه.

وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٨) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ لِلْإِنْسَانِ بَدَايَتَانِ: الأولى عند خلق آدم عليه السلام و ذريته في صورته ذره، و لقد تم خلقهم مباشرة من الطين، و الثانيه عند خلق سائر البشر من أصلاب الرجال، و ذلك من ماء مهين، يحتقره الإنسان و لكنه أساس خلقه، و فيه انطوى سرّ حياته.

بلى. من الطين و من الماء المهين خلق الله هذا البشر السويّ، الذي اضحى خصيما مبينا، و يتكبر في الأرض بغير الحق. أو لا ينظر إلى أصل خلقه المهين فيرعوى عن غيّه؟ اقال تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . (١)

(٩) ثم أن الله بعد أن كون هيكل الإنسان الاول و هو آدم و حواء، نفخ فيهما من روح انتسبت اليه لفرط عظمتها، ليصبحا بشرا سويا، حيث يكون الإنسان من جسد و روح، إكراما للإنسان في مقابل الماء المهين.

ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ثُمَّ أَحْسَنَ هَذَا الْخَلْقَ إِذْ مِنْ عَلَيْهِ بِنِعْمَةِ الْحَوَاسِ وَ الْعَقْلِ.

وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ

ص: ٢١٢

و كان من واجب البشر أمام هذه النعمة أن يشكروا ربهم و يتبعوا رسالاته، و لكن غالبيتهم كفروا بأنعم الله.

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ و هذا يدل على أن الطبيعة الطيبه فى الإنسان هى التى تغلب عليه فى أكثر الأحيان، و لهذا نجد فى القرآن أمثال و قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ أَوْ مَّا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ .

إن الشكر الحقيقى هو تحسس الإنسان بأن النعم من عند الله، و من ثم التسليم المطلق له، و

فى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام :

«أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام يا موسى! اشكرنى حق شكرى، فقال:

يا ربّ كيف أشكرك حق شكرك، و ليس من شكر أشكر به الا و أنت أنعمت به علىّ؟! فقال: يا موسى شكرتنى حق شكرى حين علمت أن ذلك منى» (١) (١٠) و لعلّ من عوامل كفران النعم الجحود بيوم البعث، لماذا؟ لأنّ النعم عند من يشكرها عباره عن مسؤوليات، و شكرها الوفاء بحقوقها، و من يجحد القيامه يتهرب عن مسؤوليه النعم، و بالتالى لا يشكرها. بل لعلّ السبب النفسى لجحود البعث التهرب عن مسؤوليه النعم و حقوقها المفروضه علينا.

و قَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتَوَزَعْتِ أَشْلًاؤُنَا، و تناثرت اعضاؤنا.

ص: ٢١٣

١-٧) بح ج (١٣) / ص (٣٥١).

أَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ هذا هو ظاهر الاعتراض على دعوته الرساله، ولكن الواقع هو التشكيك في قدره الله سبحانه، والكفر بقاء الله.

بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ و لعل الآيه تشير الى أنّ الكفار إنما ذكروا هذا الاعتراض جدلاً فثم عقدوا العزم على الكفر بقاء ربهم، خشية تحمل المسؤولية في الدنيا، فأخذوا يتشبهون بأدله جدليه لتبرير كفرهم هذا.

(١١) ولكن الله يؤكد أنه هو الذي يدبر شؤون الحياه، وليست الصدفة، وما دامت الحياه قائمه على تدبير الهى فلما ذا التشكيك فى يوم المعاد، وهو مما تقتضيه الحكمة؟! ولماذا يستغرب الإنسان من فكره البعث، وقد خلقه الله و لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أنه هو الذى يميتة بمشيئته وليست الصدفة.

قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ و لقد وُكِّلَ الله الملائكه بإجراء قضائه بما آتاهم من قوته، و حسب ما يهبط إليهم من أمره، دون ان يسبقوه بالقول، و وُكِّلَ بنى آدم ملك الموت ليقبض أرواحهم و ليتوفاهم دون نقيصه.

و ملك الموت أعظم زاجر لأبناء آدم الذين لا يمكنهم الفرار منه،

جاء فى حديث مأثور عن سيد المرسلين -صلى الله عليه و آله-:

«الأمراض و الأوجاع كلها بريد الموت، و رسل الموت، فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال: يا أيها العبد! كم خبر بعد خبر، و كم رسول بعد رسول؟ و كم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر الذى ليس بعدى خبر» (١)

ص: ٢١٥

١-٨ تفسير نمونه ج (١٧) / ص (١٤١).

اشاره

وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصِرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَ لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَ لَكِنِ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنََّّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حُزُوا وَ سَجَدُوا وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضْجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَ فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَ لَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)

اللغة

١٦ [تتجافى]: تتباعد و ترتفع.

[المضاجع]: المضجع موضع الاضطجاع أى الفراش.

هدى من الآيات:

تشير فينا السور القرآنيه التي تتحدث عن مشاهد القيامه،مزيجا من الرغبه و الرهبه،و تدعوننا الى السعى الحثيث نحو عمل الصالحات،حتى لا نكون من ضحايا الغفله،و فى هذا الدرس يصور لنا القرآن المجرمين-الذين يعتقدون بأن الجريمه و الخط المنحرف هو السبيل لإشباع الغرور فى الدنيا-و هم منكسى الرؤوس، بما نسوا و تغافلوا عن يوم القيامه،تاركين الاستعداد لهذا اليوم،فنسيهم الله.

ثم يؤكد السياق على أن الاتكاء على الأحلام و الامنيات من دون العمل الصالح و المستمر لتحقيق ذلك خطأ كبير،و أنه من عمل الشيطان،فالجته لا تنال الا بالايان،و العمل بما يقتضيه هذا الايمان،أما أن يتصور الإنسان بأن الله رحيم و رؤف لا يعذب أحدا فذلك خطأ.

و القرآن يبرر هذه الأميّه بثلاثه أمور:

ص:٢١٨

الأول: القسم الالهي بأنه تعالى سوف يملأ النار من الجنه و الناس، و يكفيننا هذا خوفا و حذرا.

الثاني: إن العذاب الدنيوي يعطينا فكره تخالف الاماني و الأحلام الساذجه، فكما أن نعم الله الظاهره و الباطنه تدلنا على أنه رحيم و رؤف بعباده، فان جانب العذاب فيها يدلنا على أنه جبار متكبر، يغضب، و ينتقم، و يعذب، و يدمر تدميرا.

الثالث: يخبرنا القرآن بأن عداله الله تأبي أن يستوى المحسن و المسىء، و المؤمن و الكافر. و هذه من الأفكار الحساسه فى تربيته النفس، أن يطرد الإنسان عن ذهنه حلم التساوى مع الصادقين من دون عمل و سعى أم لِلِإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (١) فكيف مثلا يستوى عند الله الساكت عن جرائم الظلمه، و الآخر الذى يقاسى أنواع العذاب بسبب معارضته لهم؟! ثم تذكرنا الآيات ببعض صفات المؤمنين، و التى من أهمها و أبرزها خضوعهم للحق، و تسليمهم له فى مختلف الظروف و الأحوال، خوفا و طمعا، فاذا بك تجدهم يقاومون سلبيات النفس البشريه بذكر الله، فهم كما

وصفهم الامام على عليه السلام :

«عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم» (٢) كما أن من صفات المؤمنين أنهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يهجرون الفراش، و يتوجهون الى ربهم بالعباده و التبتل، و الإنفاق فى سبيله، مما يجعلهم أهلا لثوابه، و هذا مما يخالف التمنيات و الآمال، و يؤكد أن العاقبه الحسنی لا

ص: ٢١٩

١- ١) النجم/ (٢٤).

٢- ٢) نهج البلاغه/ خ (١٩٣) / ص (٣٠٣).

تكون إلا بالسعى و العمل.

بينات من الآيات:

(١٢) المؤمن هو الذى يرى المستقبل البعيد رؤيه واضحه،فاذا به يجتنب المهالك لأنه يستضىء بنور عقله الذى يتقد بالوحى، فيعلم يقينا بالنتائج التى ينتهى إليها منهج الانحراف عن رساله.

أما الكافر الذى أطفأ البصيره فى نفسه-لكثره مخالفته عقله و ضميره-فهو لا يستفيد من رساله ربه فى معرفه الحقائق،و يكون عرضه للاخطاء و المخاطر،لأنه بمنطقه المادى البحث لا يهتدى الى النتائج الا بالتجربه،و ماذا ينفع الإنسان لو اكتشف خطأ فى مرحله لا ينفعه ذلك كالآخره؟! وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ تَعْبِيرًا عَنِ الذلّه و الحسره الشديدين.

رَبَّنَا أَبْصَرْنَا الْآنَ فِي الْآخِرَةِ إِذْ رَأَيْنَا الْحَقِيقَةَ.

وَ سَمِعْنَا لَعْلَٰ مَعْنَاهُ:رَأَيْنَا بِأَعْيُنِنَا،و سمعنا عن ما رآه غيرنا،أو معناه:رَأَيْنَا الْحَقَائِقَ، و سلمنا لها تسليمًا.

فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ لَقَدْ كَانَ بِالْإِمْكَانِ أَنْ يَصِلَ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ هَذَا الْيَقِينِ فِي الدُّنْيَا، لو استفادوا من

عقولهم، أو اتبعوا رساله الله، ولكنهم لم يفعلوا، والله يؤكد على هذه الحقيقه فى سوره التكاثر إذ يقول: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ و لأن المتقين استفادوا من عقولهم و وحى ربهم فإنهم عرفوا بأن منهج الكفر ينتهى الى النار، بينما ينتهى منهج الايمان الى الجنة:

«فهم و الجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، و هم و النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون، و لو لا الأجل الذى كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفه عين أبدا، شوقا الى الثواب، و خوفا من العقاب» (١) (١٣) وَ لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَ لَكِنَّ الْهُدَايَةَ الَّتِي تَنْفَعُ الْإِنْسَانَ، وَ تَتَّفِقُ مَعَ الْحِكْمَةِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هِيَ الَّتِي يَصِلُ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِعَقْلِهِ وَ إِرَادَتِهِ، وَ بِالِاسْتِفَادَةِ مِنْ رِسَالَةِ رَبِّهِ إِلَيْهِ. وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ جَبَرَ النَّاسَ عَلَى الْهُدَى، وَ كَانَتْ تَنْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ.

وَ لَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ وَ هَذَا الْقِسْمُ يَدْعُونَا إِلَى الْجَدِّ فِي الْحَيَاةِ، وَ السَّعْيِ لِكَسْبِ الْجَنَّةِ، وَ اجْتِنَابِ النَّارِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ مِنْ دُونِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

(١٤) ثم يؤكد القرآن أن حقيقه الآخرة مسجله فى ذاكره الإنسان الفطريه، كما يمكن له أن يستنتجها بإعمال عقله، و تصديق رساله ربّه، إلا أنه ينساها

ص: ٢٢١

بسبب حجب الشهوات، و الأفكار الباطله، و من ثم لا يستعد لذلك اليوم بل يتمادى فى الانحراف و العصيان، فيستحق بذلك العذاب.

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ فَلَاحِقَ يَوْمِكُمْ هَذَا مَا لَمْ يَلْحَقْ بِكُم مِّن قَبْلِهِ وَلَٰكِن كُنْتُمْ غَافِلِينَ ﴿١٠٠﴾
بما يقتضيه العلم، خلافا لمعنى النسيان عند البشر كسائر الكلمات، مثلا الغضب بالنسبه للإنسان يعنى وجود حاله من الثوران فى نفسه، بينما يعنى بالنسبه الى الله النتيجة المترتبه على الغضب كالعذاب، ذلك أنه تعالى تصدق عليه الغايات دون المبادئ.

و لعل نسيان الله للعبد أشد من أى عذاب آخر، قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١)**

و فى الدعاء:

«فهبنى يا الهى و سيدى و مولاي صبرت على عذابك؟! فكيف أصبر على فراقك؟! او هبنى صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر عن النظر الى كرامتك؟! أم كيف أسكن فى النار و رجائى عفوك؟!» (٢) و من تضاعيف الآيه يتبين وجود نوعين من العذاب، الاول: هو العذاب النفسى المتمثل فى نسيان الله، و يشير اليه الشطر الاول منها و هو جزاء لنسيان الإنسان ربّه، و الثانى: هو العذاب المادى، و نجده فى ختام الآيه:

ص: ٢٢٢

١- (٤) آل عمران/ (٧٧).

٢- (٥) دعاء كميل.

وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ثم يأتي الحديث عن بعض صفات المؤمنين المهمة:

الاولى:التسليم و الخضوع للحق:

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّجُودِ هُنَا لَيْسَ مَعْنَاهُ الظَّاهِرِيُّ وَ حَسَبٌ، بل حاله التسليم للحق التي يرمز لها هذا السجود،و المؤمنون الحقيقيون لأنهم يبحثون عن الحق و الهدى فإنهم يسلمون له بمجرد أن يذكروا به، مهما كان ذلك مخالفا لاهواء النفس و المصلحه.

و توحى كلمه خَرُّوا -التي جاءت من أصل خرير الماء، و هو صوته عند نزوله (مثل صوت الشلال) كما يقول الراغب- إلى أنّ المؤمنين يتلقون الأرض بمساجدهم، كما يخر الشلال، و هم يولولون بالتسيح لعمق تأثير الذكر فيهم، بلى.

كلما زادت معرفه البشر بربه ازداد معرفه بصغر نفسه و مدى حاجته، و انعكس ذلك فى صورته وقوعه لربه ساجدا.

و هكذا وجبت السجده لله فى أربع سور هذه واحده منها، اقتداء بأولئك الرجال الكرام الذين يخرون لربهم ساجدين.

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ فَلِسُجُودِهِمْ مَظَاهِرٌ خَارِجِيَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الصِّفَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَخْلُقُهَا، وَ مِنْ أَبْرَزِ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ التَّوَاضُّعُ الْجَمَاعِي، الَّذِي يُمَثِّلُ امْتِدَادًا لِلتَّسْلِيمِ

الثانيه: التبتل الى ربهم فى الأسحار:

(١٦) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ انهم يقاومون النوم، لعلمهم بأن الدنيا دار العمل، و ليس دار الاسترخاء و الراحة، و أنها الفرصه الوحيدده التى يحدد الإنسان فيها مستقبله الأبدى، و لان المضجع هو حاله التوقف عن السعى و العمل فإنهم يرفضونه، و كلمه تتجافى آتیه من الجفاء، و هو بمعنى انقطاع العلاقه بينهم و بين النوم، و هذه الصفه نابعه من نظرتهم الجديّه للحياه، فكيف يصير الإنسان أسير الفراش و هو يعلم بأن مستقبله قائم على ما يقدمه فى هذه الحياه؟! يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا مِنَ النَّارِ فلا يقتربون من المعاصى، لأنها تنتهى بهم إليها.

وَ طَمَعًا فى الجنه. فتجدهم يبحثون عن كل عمل يوصلهم إليها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام فى وصف المؤمن:

«لا يدع للخير غايه الا أمها، و لا مظنه الا قصدها» (١)

الثالثه: الإنفاق فى سبيل الله:

وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

ص: ٢٢٤

الامكانات و النعم التي يمن الله بها عليهم، يفكرون في تحويلها الى زاد للآخرة، أكثر من تفكيرهم في استهلاكها، و صرفها على أنفسهم، و هكذا ينبغي للإنسان أن يفكر في آخرته قبل تفكيره في دنياه: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ . (١)

(١٧) و بعد ذلك يشجع القرآن على الاقتداء بهذا الفريق من الناس، حينما يذكر جزاءهم الحسن عند الله بإبهام، و الذي هو في موارده أمضى أثرا من التوضيح.

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فكلما و صفت الجنة كانت دون واقعها. أو ليس فيها ما لا عين رأت، و لا - أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر؟! بلى. و إن نعم الجنة تقرّ عين أصحابها، لأنها صافية من الأكدار، و نفوس أهلها زاكية، لا غل فيها، و لا حقد، و لا طمع.

و جاء في الحديث في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ما من حسنة إلا - و لها ثواب مبین في القرآن، إلا صلاة الليل، فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها» (٢) (١٨) و يذكرنا الرب بحكمته البالغة لنسف تمنيات البشر التي توهمه بأنه من أهل الجنة، و أنه آمن من أن يكون من الفاسقين، فيفقد الضابط الحق لسلكه.

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا

ص: ٢٢٥

١-٧ القصص / (٧٧).

٢-٨ نور الثقلين / ج (٤) / ص (٢٣٠).

يعمل الصالحات، ويستجيب لله و لأوليائه، ويتحلّى بتلك الصفات التي ذكرت آنفاً.

كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا يَقْتَرِفَ السَّيِّئَاتِ وَالْجَرَائِمِ.

و يجب القرآن أن ذلك محال، و يخالف حكمه الله التي تتجلى في الخليقه أنى بصرنا بها.

لَا يَسْتَوُونَ وَ هَذِهِ هِيَ الْإِجَابَةُ الْفَطْرِيَّةُ عَلَى التَّمَنِّيَّاتِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَغْزُو فُؤَادَ الْإِنْسَانِ بَعِيدًا عَنِ ضَوْءِ الْعَقْلِ وَ قِيمِ الْوَحْيِ.

(١٩) و يفصل القرآن الحكيم القول ببيان الفروق العظيمة بين الفريقين:

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَةِ اللَّهِ، فَاتَّخَذُوهَا مِنْطَلِقًا فِي حَيَاتِهِمْ..

وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَقِينًا مِنْهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي لِخِلَاصِ الْإِنْسَانِ، وَ ضَمَانِ مُسْتَقْبَلِهِ.

فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ النَّتِيْجَةُ كَانَتْ ثَمْرَهُ لِلْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَ لَيْسَ لِلتَّمَنِّيَّاتِ.

(٢٠) ثم يحدثنا السياق عن الفريق الآخر:

وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَدَ قُورًا فَمَ أُوَاهُمُ الذَّارُ وَ الفاسق هو الخارج عن الصراط المستقيم، الصراط الذى ينتهى الى جنبه اللّٰه و رضوانه، فالفاسقون إذن يصيرون الى النار، و فى الآيتين فكره هامه هى: أنّ مستقبل الإنسان رهين عمله فى الدنيا، فهو يستطيع أن يجعل مأواه الجنة، كما يستطيع أن يجعله النار.

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا لِأَنَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ هُوَ إِيمَانُهُ بِاللَّهِ وَ عمله الصالح، و هؤلاء لا يملكون شيئاً من ذلك، و لهذا فلن يستطيعوا الخروج منها، و يبدو أنّ أهل النار لا يأسون من الخروج منها، فاذا بهم يحاولون المره بعد الأخرى الخلاص، و لكن دون جدوى.

و فى الحديث:

«يقول المؤمنون- لأهل النار-: انظروا الى هذه الأبواب، فينظرون الى أبواب الجنان مفتحة، يخيل إليهم أنها الى جهنم التى فيها يعذبون، و يقدرّون أنهم ممكنون أن يتخلصوا إليها، فأخذون فى السباحة فى بحار حميمها، و عدوا بين أيدي زبانياتها، و هم يلحقونهم و يضربونهم بأعمدتهم و مرزباتهم و سياطهم، فلا- يزالون هكذا يسيرون هناك، و هذه الأصناف من العذاب تمسهم، حتى إذا قدرّوا أنهم بلغوا تلك الأبواب، وجدوها مردومه عنهم، و تدهدهم الزبانيه بأعمدتها فتتكسهم الى سواء الجحيم»

(١)

ص: ٢٢٧

١- ٩) بح ج (٨) / ص (٢٩٩).

وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ (٢١) كان بإمكان هؤلاء أن يستدلوا على عذاب الآخرة بالعذاب الذى يجدونه فى الدنيا، و من ثم يقاومون عوامل الغفلة و النسيان، فيثوبون الى رشدهم، و يرجعون الى الحقيقه كلما ابتعدوا عنها، و لكنهم لم يفعلوا ذلك.

وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ

فى تفسير نور الثقلين عن المجمع عن الامام الصادق عليه السلام :

«و أما العذاب الأدنى ففى الدنيا» (١) و الذى من أهم أهدافه هدايه الإنسان الى الحقيقه:

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

ص: ٢٢٨

١- (١٠) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٢٣٢).

اشاره

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تُكِنُّ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَلَّا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظَرُونَ (٣٠)

اللغة

٢٣] مريه]: شك.

٢٥] يفصل]: الفصل هو الحكم.

٢٦] أو لم يهد لهم]: أو لم يبصرهم و يبين لهم.

[القرن]: الأجيال الماضية.

ص: ٢٢٩

٢٩ [ينظرون]: يمهلون.

ص: ٢٣٠

هدى من الآيات:

فى الدرس الأخير من سورة السجده، يؤكد ربنا على صفه اليقين التى تجمع اراده الإنسان، و عقله، و قوه تصورهِ و خياله على محور الحق، حتى لا يبقى لديه أدنى أثر من الهوى و ضعف الاراده، فالإنسان يعرف الحقائق بعقله و فطرته، و لكنه يشكك فيها بهواه و أفكاره الباطله، و يحتاج الى اليقين حتى يزول هذا الشك، ذلك ان مراحل العلم عند الإنسان هى التاليه:

الاولى: المعرفه، فالإنسان يعرف أن للكون خالقا مدبرا و لكنه يبقى مشككا.

الثانيه: الايمان، حيث يسيطر العقل فى معركته مع الهوى فتتبعه الاراده، و لكن دون أن ينتهى الشك و الهوى عنده، بل يبقى لهما أثر معنوى لا فعلى، فتجد إنسانا ما يشكك نفسه فيها، لكنه يستمر يؤديها، و يلتزم بها ظاهريا بأفعالها و أذكارها، فهذا الرجل مؤمن أى أن نفسه سلمت لعقله تسليما عمليا.

الثالثه:اليقين،حين يزول الشك عن قلب الإنسان،و يبقى مسلماً عمليا و نفسيا تسليما محضا للمعرفه،و لليقين بدوره درجات ثلاث
هى:اليقين،و حق اليقين،و عين اليقين،التي إذا وصلها الإنسان حق له أن يقول كما

قال الامام عليه السلام :

«و الله لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا » أو

كقوله عليه السلام :

«ما رأيت شيئا قط الا و رأيت الله قبله و معه و بعده » أو

كقوله عليه السلام :

«الهى ما عبدتك خوفا من نارك،و لا طمعا فى جنتك،و انما وجدتك أهلا للعباده فعبدتك » أما كيف يحصل الإنسان على
اليقين،فان ذلك يكون بالمزيد من النظر الى آيات الله و التفكير فيها،لان هذه الآيات إشارات ظاهرية الى الحقائق الكبرى فى
الحياه،و التفكير السليم هو الذى يعبر بالإنسان من خلال هذه الآيات الى الحقائق، ذلك أن النظره التى تنقل الإنسان الى اليقين
هى النظره العبريه لا الشئيه،و التى يمتزج فيها بصر الإنسان مع بصيرته و عقله.

فى البدايه يجعلك التفكير تؤمن بربك،و شيئا فشيئا يتحول هذا الايمان الى يقين، و منه الى أعلى درجاته.

و فى الحديث:

«طوبى لمن كان نظره عبره،و سكوته فكره »

ص: ٢٣٢

و بالاضافه الى ما تعطيه هذه النظرة من اليقين، فانها تعطى الصبر كثره لهذا اليقين، ذلك أن الذى يطمئن للعاقبه الحسنى، التى يوصل إليها طريق الحق، يصبر على عقبات الطريق، و المؤمن يصبر على الصعاب بسبب يقينه مما يجعله أهلا لامامه الحق التى تقابل أبدا إمامه الباطل.

بينات من الآيات:

اشاره

(٢٢) الإنسان مزود بفطره الايمان بالله، إلا أنه ينسى أو يغفل بسبب الشهوات أو الأفكار المضلّه، و إذ يبعث الله الرسل و من يتبع نهجهم الى البشر لتذكيرهم، و إزاله الحجب المختلفه عن فطرتهم، و اثاره عقولهم الدفينه، و أمام هذه التذكرة ينقسم الناس الى فريقين:

الاول: المؤمنون الذين يستجيبون للتذكرة، لما يجدونه من توافق بينها و بين فطرتهم، و ما تهدى اليه عقولهم، و الآيات من حولهم.

الثانى: المعرضون، و لا- ريب أن لتلك الاستجابه و هذا الاعراض أثرا على نفس الإنسان و تفكيره و سلوكه، فبينما يتجلى ذلك التصديق فى صورته الشخصيه الربانيه، التى تسعى نحو الخير و العمل الصالح، يبرز هذا الاعراض فى صورته الشخصيه الشيطانيه التى تسعى نحو الظلم و الجريمة.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا و لكن لماذا يصف القرآن المعرضين عن آيات الله بالظلم؟ الجواب: لان الذى يحفظ الإنسان عن الجريمة هو الدين، بما يتضمنه من قوه معنويه، و تشريعات صائبه تبعده عن الظلم بصوره المختلفه، فاذا أعرض عن الدين سقط فيه. ثم أن الاعراض عن الدين بذاته ظلم ذاتى و عظيم لا يقع على الذات

فقط، و انما يتجاوز الى الآخريين أيضا، أ رأيت من يشرب سما كيف يظلم نفسه بإهلاكها، و يظلم أقرباءه الذين يفجعهم بموته، كذلك الذين يسكر ثم يسوق سيارته أو لا يحطم نفسه و سيارته، و يلحق الأذى بالآخرين.

هكذا المعرضون عن آيات الله، سوف يعرضون أنفسهم لنقمات الله العزيز الجبار، لأنهم يقتربون-باعتراضهم عن آيات الله، و عدم تسليمهم لأحكام الدين و حدود الشرعيه-يقتربون أعظم الجرائم، التي لا بد ان ينتقم الله منهم بسببها.

إِنَّمَا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَّقِمُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ إِنْ أَسْمَى هَدَفَ لِرِسَالَاتِ اللَّهِ هُوَ رَفَعَ الشَّكَّ عَنِ قَلْبِ الْإِنْسَانِ، و الأخذ بقلبه الى مدارج اليقين بكل الحقائق التي يذكر بها الله في كتبه، اليقين بلقاء الله، و اليقين بالموت، و اليقين بالجزاء، و..و..و ذلك يعنى تصفيه العقل و النفس من آثار الأهواء.

و لن يؤدى المصلح هذا الهدف الا إذا كان بنفسه بعيدا عن الشك ليكون قدوه للناس، و لذلك نهى السياق من المريه فى لقاء الله، بعد أن انبأنا عن الكتاب الذى آتاه موسى لان كتاب الله يهدف التذكرة بالله، و تأكيد حقيقه اللقاء بالله، و هذا القرآن تذكره بآيات الله فلا يحق لأحد أن يعرض عنها. فيعرض نفسه لانتقام الله الشديد.

و احتمل المفسرون معانى أخرى فى ضمير «من لقائه» أ يعود الى موسى و يدل على التقاء رساله محمد برساله موسى-على نبينا و آله و عليه السلام-أم يعود الى الكتاب، لأن الرسول يتلقى القرآن كما تلقى موسى التوراه، أو الى التوراه. أو

ليس تلقى موسى كتاب ربه.

بيد أن سياق سورة السجده-بمجمليها- يؤكد ما قلناه، بالرغم من انه لا ينفى ما قالوه. أو ليس للقرآن تخوم و آفاق عديده؟ وَ جَعَلْنَا أَيُّ كِتَابِ التَّوْرَةِ.

هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ

شروط الامام:

(٢٤) بعد ذلك يبين الذكر صفات الامام (القائد) وهي ثلاث:

الاولى: الهدى الى الله و بأمره، و ليس الى نفسه أو حزبه أو وطنه، أو.. أو..

و ما أشبه من الدعوات الجاهليه.

الثانيه: الصبر، و تحمل الشدائد، فالقائد هو الذى تتبلور شخصيته فى ميادين العمل الجهادى، و سوح القتال فى سبيل الله، و ليس الذى يركب الموجه، أو يتسنى صهوه الانتصار من دون عمل و خلفيه جهاديه، و ربما لذلك كان الله يختار الأنبياء و الرسل و الأئمه من رحم الشدائد، و عند اجتياز أصعب العقبات.

الثالثه: اليقين، و ذلك يعنى وصوله الى مستوى رفيع من الايمان بالله، لا- يهن بعده، و لا- يرتاب فى طريق الحق، سواء انتصر أو انتكس مرحليا.

وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَعْنِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَعَلَّ كَلِمَهُ فَلَا تُكُنْ فِي مَرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي

الآية السابقة هي الرابط بين هاتين الآيتين، فكما كان موسى على درجة من اليقين أهله للنبوّه، فإن أصحابه الذين اتبعوا هداه كانوا على مستوى من اليقين جعلهم الله أئمه.

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام:-

إن الأئمه فى كتاب الله عز و جل -إمامان: قال الله تبارك و تعالى:

« وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » لا بأمر الناس، يقدمون أمر الله قبل أمرهم، و حكم الله قبل حكمهم.

قال: « وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » يقدمون أمرهم قبل أمر الله، و حكمهم قبل حكم الله، و يأخذون بأهوائهم خلاف ما فى كتاب الله عز و جل (١) (٢٥) و لكن بالرغم من وجود أئمه صالحين فى أصحاب موسى عليه السلام كان هناك فريق يكفرون بالحق، و هذا الاختلاف بين أتباع الرسل من بعدهم من الحقائق التى سجلها التاريخ بعد كل رسول، و بينها الذكر لنمى بين الخطوط المختلفه، عبر بصيره الايمان التى توحى بالمقاييس المبدئيه، و التى هى عند الله ثابتة لا تتغير و سوف تتجلى يوم القيامة.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ مَعْرِفَةَ الْإِنْسَانِ بِوَجْهِهِ عَادِلَةٌ سَتَقْضَى بِالْحَقِّ تَزِيدُ مَنْ قُوَّةَ عَقْلِهِ أَمَامَ

ص: ٢٣٦

(٢٦) أما عن سبب الاختلاف بعد الرسل، فهو كما صرح القرآن في موضع آخر: الأهواء و المصالح، إذ قال: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ.... (١)

و في هذه الآيه يحذر الله الامه الاسلاميه من الاختلاف، و يدعونا للنظر في التاريخ، لنعرف مصير الذين اختلفوا عن رسالات الله، و ابتعدوا عن نهجها السليم. مؤكداً أنه كما يفصل بينهم في الآخرة، فقد يفصل بينهم في الدنيا بهلاك المنحرفين أو بنصر المؤمنين عليهم كما في الآيه (٢٨-٣٠).

أَوْ لَعْنَمُ يَهْدِي لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِنَا وَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ عِبْرَةً فِي حَيَاتِهِمْ، فيجتنبوا عن الخطأ حتى لا يصطدموا بذات النتيجة- و هذه هي الآيه الماديه الظاهره- ثم أن القرآن هو الآيات المعنويه التي تكشف عن الواقع، و التي يجب الاستماع إليها و العمل بها.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ فتلک يرونها بأعينهم، و هذه يسمعونها بآذانهم، و لكن المطلوب أن تعقلها ألبابهم، و تنعكس على حياتهم و واقعهم في صورته هدايه.

(٢٧) و كما أن آيات الله في عالم الإنسان تهدي الى هيمنته على الحياه، و تدبيره لشؤونها، فان آياته في الطبيعه تهدي الى ذات الحقيقه.

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ هُنَا يَقُولُ: أَفَلَا يَسْمَعُونَ لِأَنَّ الْوَسِيلَةَ الَّتِي تَنْقُلُ لِلإِنْسَانِ التَّارِيخَ هِيَ حَاسَةُ السَّمْعِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَسِيلَةٍ أُخْرَى، وَ هُنَا يَقُولُ: أَفَلَا يُبْصِرُونَ حِينَمَا يَتَحَدَّثُ عَنِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي يَبْصُرُهَا الْإِنْسَانُ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ عَنْهَا.

و هذا من أساليب المنهج الالهى للوصول الى اليقين، أنه يدعو الى النظر و التفكير فى الآيات من حوله، فخلفيات الاحداث التاريخيه و الاجتماعيه، كما تجليات الحكمه فى آيات الكون، و كدوره المطر منذ البدايه حتى سقوطه، كلها تشير الى إله يدبر الحياه، و يقدر أحداثها و شؤونها بقدره مطلقه، و حكمه بالغه.

(٢٨) فهو تعالى لا يستجيب لتحديات الكفار و المعاندين متى شأؤوا، انما حيث شاء و متى أراد، حسبما تقتضيه حكمته سبحانه.

و يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ تَحَدِّثُ الْمُؤْمِنِينَ، وَ تَكْذِبُ بِرِسَالَةِ اللَّهِ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُنَبِّئُونَ عَلَى خَطِّهِمْ، وَ لَا يَرْتَابُونَ فِى وَعْدِ اللَّهِ حَتَّىٰ لَوْ تَأَخَّرَ بَعْضُ الْوَقْتِ، خِلَافًا لِلطَّرْفِ الْآخِرِ الَّذِى يَزِيدُهُمُ الْإِهْمَالَ رِيْبًا، وَ يَشْكَلُ لَهُمْ عَقْبَهُ فِكْرِيَهُ.

(٢٩) و ينسى هؤلاء أن الامهال لا يعنى الإهمال، انما يعنى أحد أمرين:

الاول: أن الله يتيح لهم فرصه العوده للحق.

الثانى: إذا لم يستفيدوا من هذه الفرصه، فان الامهال سيكون وبالاً عليهم، لأنه حينئذ يستتبع مزيداً من العذاب - كما و نوعاً - تبعاً لتماديهم فى العصيان - كما و نوعاً أيضاً - وَ لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُؤْتِيهِمْ لَهْمٌ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُؤْتِيهِمْ لَهْمٌ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . (١)

و يؤكد الله هذين المعنيين، حيث يقول مخاطباً نبيه صلى الله عليه و آله :

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ، وَ تَحَدُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الْمُؤْمِنِينَ، حِينَما تَقْتَضِي حُكْمَهُ اللَّهُ نَصْرَ أَوْلِيَاءِهِ.

إِيمَانُهُمْ لَانِ الْإِيمَانَ الَّذِي يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، هُوَ الْإِيمَانُ النَّابِعُ مِنَ الْوَعْيِ بِضُرُورَتِهِ، لَا مِنَ السَّيْفِ أَوْ الْعَذَابِ أَوْ الْمَصْلَحَةِ.

وَ لَا - هُمْ يُنْتَظَرُونَ - انِ الْإِيمَانَ النَّاتِجَ لَ - عَنْ وَعْيِ بِضُرُورَتِهِ، بَلْ بِسَبَبِ عَامِلٍ مُؤَقَّتٍ يَذْهَبُ أَدْرَاجَ الرِّيحِ بِمَجْرَدِ زَوَالِ ذَلِكَ الْعَامِلِ، فَالَّذِي يَكْفَى عَنِ السَّرْقَةِ وَ الْجَرِيمَةِ لَ - مِنْ أَنْظَارِ النَّاسِ تِرَاقِبِهِ وَ لَيْسَ لَوَازِعِ نَفْسِي أَوْ دِينِي، فَانْه يَعُودُ إِلَيْهَا بِمَجْرَدِ عِلْمِهِ أَوْ رُبَمَا ظَنَّهُ بِأَنَّهُ صَارَ بَعِيداً عَنِ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَ هَكَذَا لَا يَقْبَلُ اللَّهُ ذَلِكَ الْإِيمَانَ الَّذِي يَبَادِرُ إِلَيْهِ الْكُفَّارُ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ.

(٣٠) و فى نهايه السوره يؤكد القرآن على المؤمن، أن لا - يربط مصيره بمصير الكفار، فاذا رأى مجموعه لا يؤمنون، يتركهم و يستمر على خطه الايماني، و ذلك

ص: ٢٣٩

١-٣) آل عمران/ (١٧٨).

حينما يوجهه الرسول لهذا الأمر.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ اتركهم ولا تتأثر بهم.

وَ اُنْتَظِرْ وعد الله و نصره.

إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ و من هاتين الآيتين نستفيد ثلاث أفكار:

الفكره الاولى: أن انتظار الفرج من الواجبات الشرعيه، و من الأعمال الصالحه، و

فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله :

«أفضل أعمال أمتى انتظار الفرج» لان الانتظار الذى يعنيه الحديث، هو البقاء على الخط السليم، صمودا أمام المشاكل و المصاعب، من دون التشكيك فى الحق، و هو أحد معانى الصبر الذى لا يمكن الا بالانتظار، لان الذى ينتظر المستقبل، و يتألق قلبه بأمل الانتصار لا- يضيق صدره. فيكون صابرا، بل و يستهين بالمشاكل، إذ يعتبرها خيرا له من حيث أنها تصقل إرادته و فكره و شخصيته.

الفكره الثانيه: من الخطأ أن يقتصر إيمان الإنسان على الأشياء الظاهره، أو يعتقد بأنه مسئول عن ذلك فقط، فقد من الله عليه بنعمه العقل لكى يرى به المستقبل من خلال الظواهر و المقدمات المنطقيه، و إلا فما هى الحاجه الى العقل!؟

ص: ٢٤٠

و الله يرفض الايمان الذى يكون وليدا للواقع المفروض كالعذاب، و لا يعطى أصحابه فرصه أخرى إذ يفترض فى الإنسان أن يستفيد من عقله، و يتعرف على النتائج من خلاله، أو بتصديق رساله ربّه، أما الذى لا يهتدى لا بالعقل و لا بالوحي و يرفض الاثنين فان مصيره العذاب، لأنه لم ينتفع من موهبه عقله الذى هو بدوره جوهر انسانيته.

الفكره الثالثه: أن الدنيا فرصه إذا خسرها الإنسان فسوف لن تعود له مره أخرى، و

الامام على عليه السلام يقول:

«اغتنموا الفرص فانها تمر مرّ السحاب» اذن فموقف الإنسان من النتائج-بعد السعى-هو الانتظار، أما موقفه من الفرص و الزمن فهو الاستعجال مع التخطيط.

ص: ٢٤١

سوره الأحزاب

اشاره

ص: ۲۴۳

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره:

روى عن الامام الصادق عليه السلام انه قال:

«من كان كثير القراءه لسوره الأحزاب كان يوم القيامة فى جوار محمد صلى الله عليه وآله و أزواجه» (تفسير نور الثقلين/ج

٤/ص ٣٣٣)

ص: ٢٤٥

و اتخذ اسم الأحزاب لهذه السوره من قصه حرب الخندق، حيث تخربت قريش و اليهود ضد المسلمين، فردّ الله كيدهم، و لعلها كانت أعظم خطر درأه الله سبحانه عن رسالته.

حقائق شتى تذكرنا بها سوره الأحزاب الا ان محورها-فيما يبدو للمتدبر فيها- ترسيخ دعائم القيادة الرساليه فى الامه، التى هى ذروه الدين، و سنام الشريعه، و الامانه الكبرى التى عجزت عن حملها السموات و الأرض و الجبال، و حملها الإنسان فظلم نفسه بها.

و تجرى آيات السوره عبر هذا الإطار لتذكرنا بشخصيه القائد الرسالى، الذى يتعالى-بتوفيق الله و عصمته-على قوى الضغط الاجتماعيه، فهو يتقى الله و لا يطيع الكافرين و المنافقين، و يتبع وحى الله، و يتوكل عليه.

و ينقل لنا السياق قصتين، إحداهما شخصيه و الثانيه عامه:

الف: فمن خلال قصه زيد الذى تبناه الرسول ينفى الذكر الحكيم عاده جاهليه كانت ساريه حتى نقضها الإسلام بالقرآن و عبر تحدى شخص الرسول لها، و هى إلحاق الولد بمن تبناه، دون من كان من صلبه، و نستوحى منها أمرين:

أولاً: إنّ الرسول ليس أبا لزيد، و لا يحق له ان يدعى القيادة بهذا العنوان.

ثانياً: إنّ النبى يتحدى شخصيا عادات الجاهليه، و يتحمل الأذى فى ذلك مما يبين صفه التحدى عند القائد الرسالى.

و يكمل السياق بيان شخصيه القائد بأنّ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، و أن أزواجه أمهات المؤمنين، و أنّ أولى الأرحام - و هم هنا أبناء الرسول من صلبه - بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله، و هكذا يرسم الخط القيادى للامه من بعد الرسول.

و يؤكد على الميثاق الذى أخذه الله من النبى كما أخذه من أولى العزم من الرسل قبل ان يحملهم رساله، و لعل أعظم بنود الميثاق: عدم الخضوع للمنافقين و الكافرين، و إخلاص الطاعه لله.

باء: و من خلال قصه الأحزاب، يبين السياق صفات القيادة الرساليه و كيف يجب ان تتبع فى الساعات الحرجه، و الا تخور عزيمه المؤمنين فى طاعتهم لها بمجرد تعرضهم لابتلاء شديد، و كيف ينبغى أن يتخذ الرسول أسوه حسنه.

بلى: إنّ الطاعه حقاً تتبين عند مواجهه الأخطار، و على الناس أن يرفعوا بطاعتهم للرسول الى هذا المستوى، و لا يكونوا كالمنافقين الذين يستأذنون الرسول

قائلين: إن بيوتنا مكشوفه، ففضحهم الله بأنهم لا يريدون إلا فرارا.

و من خلال كشف القرآن لصفات المنافقين يحذرننا من الوقوع فى مهلكه النفاق عند مواجهه الخطر.

كما انه يبين لنا مدى رسوخ إيمان المؤمنين الصادقين، عند ما قالوا- وهم يرون أمواج الأحزاب تترى على المدينة لاقتحامها:-
هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا .

و بعد بيان صفات المؤمنين الصادقين و جزاءهم الحسن، يبين كيف رد الله الكافرين على أعقابهم، و كيف أنزل اليهود من قلاعهم و أورث المسلمين أرضهم و ديارهم.

و يعود السياق لبيان أحكام نساء النبى، و يخيرهم بين التشرف بخدمه الرسول أو التعلق بزينه الدنيا، و ان من يرتكب منهن فاحشه يضاعف لها العذاب ضعفين (لمكانتها من رسول الله) كما ان من تقنت منهن و تعمل صالحا تحصل على الأجر مرتين.

و نستلهم من كل ذلك كيف يجب أن يكون بيت القائد الرسالى نظيفا من الطمع، و بعيدا عن اختراق القانون.

ثم يأمر القرآن نساء النبى بأوامر مشدده فى عدم الخضوع بالقول، و يأمرهن بأن يقولن قولا معروفا، و ألا يخرجن من بيوتهن، و لا يتبرجن تبرج الجاهليه الاولى.

و يبين السياق فضيله آل بيت الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس، و طهرهم تطهيرا، ليبين الخط الرسالى بعد رحيل النبى الذى لا بد ان يلتف المسلمون

حواله.

و يعود الى نساء النبي و كيف يجب عليهن أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله و الحكمه.

و يذكر القرآن صفات المؤمنين و المؤمنات، لتكون مثالا أمامنا و مقياسا لمعرفة الناس، و يبين ان ابرز صفاتهم جميعا: التسليم لقضاء الله و رسوله، و لعل التسليم للقضاء أسمى مراتب التسليم للقياده، و أعلى درجات الايمان بعد الثبات في الحرب.

و يبين الذكر قصه زواج الرسول من مطلقه زيد، لينقض الله عاده جاهليه كانت تقضى بان الدعى ابن، و انه لا يجوز النكاح من مطلقته.

و يبين ان النبي بشر، و انه لا حرج عليه فيما فرض الله له.

و يصف النبي و من مضى على نهجه ممن يبلغ رسالات ربه بأنهم يخشونه وحده، و لا يخشون أحدا غيره.

و يبين ان أعظم علاقه توصل الامه برسولهم هي رسالته إليهم، و انه ليس محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) أبأ أحد من رجالهم، و لكنه الرسول و خاتم النبيين.

و لكي يتقرب الناس الى مقام الرسول فعليهم ان يتقربوا الى ربهم زلفى، و عليهم ان يذكروا الله كثيرا و يسبحوه بكره و أصيلا، فهو الذى يصلى عليهم و ملائكته ليخرجهم من الظلمات الى النور.

و يعود الى ذكر صفات النبي الساميه فهو الرسول الشاهد، و المبشر النذير، و الداعى الى الله بإذنه، و السراج المنير، و ان من آمن بالله و برسوله يحصل على فضل

ص: ٢٥٠

كبير.

و يكرّر ما ذكر به فى أوّل السوره من رفض طاعه الكفار و المنافقين، و ترك أذاهم.

و بعد ذكر حكم شرعىّ عام فى الطلاق يقضى بضروره إعطاء المهر (لدى الاتفاق عليه) و إعطاء شىء تمتع به المطلقه لدى عدم الاتفاق على المهر، فلا بد إذا من ثمن للبضع، بعدئذ يبين ميزه للرسول هى: إنّ المرأه لو وهبت نفسها للرسول كان له ان يتقبلها من دون مهر، بعكس سائر المؤمنين، و انه- صلى الله عليه و آله -يرجى من نسائه من يشاء، و يأوى اليه من يشاء، و انه لا يحل له النساء من بعد.

و يؤدب السياق المسلمين و يأمرهم بأن لا يذهبوا إلى بيت الرسول ينتظرون الطعام، و لا يجلسوا بعد دعوتهم اليه و إطعامهم مستأنسين لحديث، و يبين أنّ ذلك يؤذى الرسول، و ان عليهم الا- يطلبوا من نساء النبى حاجه إلا من وراء حجاب، و يبدو أنّ ذلك أيضا مما يخصّ نساء النبى إذ يجوز لغيرهن التحدث مع الرجال مباشره إذا حافظن على سترهن.

و تختصّ نساء النبى أيضا بحرمة نكاحهن بعد وفاه الرسول.

بلى. لا جناح عليهن فى التعامل مع الأقرباء، و مع نسائهن أو أمهاتهن.

و هكذا يسرد السياق خصائص الرسول، مما يكشف عن جانب من عظمته، ثم يأمر بضروره التواصل معه عبر الصلاه عليه، أو ليس الله و ملائكته يصلون عليه، فيجب الصلاه و السلام عليه، و لا بد من التسليم له و طاعته.

ص: ٢٥١

و يلعن القرآن الذين يؤذون رسول الله، سواء بيث الشائعات ضده أو ضد نسائه أو بأذى ذريته و يتوعدهم بعذاب أليم فى الآخرة.

و يبين جانباً من أذيه المنافقين للرسول، و ذلك حين ينهى نساء النبى و سائر نساء المسلمين من عدم مراعاة الستر تماماً، مما يجعلهن يعرفن و يؤذين.

و فى ذات الوقت يوجه تهديداً شديداً الى المنافقين، و مرضى القلوب، و المرجفين من الاستمرار فى أذى الرسول، و ينذرهم بطردهم و قتلهم، و لكى ينصحهم يحذرهم من القيامه و يبين ان الناس يسألون عن الساعه، فيقول: لعل الساعه تكون قريباً، و يبين لعن الله للكفار حيث يخلدون فى السعير، لا- يجدون ولياً و لا- نصيراً، هنالك حين تقلب و جوههم فى النار، و يتمنون لو كانوا يطيعون الله و الرسول، و يحاولون إلقاء اللوم على السادات و الكبراء الذين أضلّوهم السبيل.

و ينذرهم السياق- مره أخرى- بعاقبه الذين آذوا موسى فلم يحصلوا على شىء، لان الله كان قد جعل موسى و جيهها، فما قيمه أذاهم؟! و يأمر الله المؤمنين بالقول السديد (البعد عن التهمه و السب)، و يعدهم بالمغفره، و يبين أنّ من أطاع الله و رسوله فقد فاز فوزاً عظيماً.

و يبين أنّ الطاعه للرسول، و لأولى الأمر من بعده هى الأمانه الكبرى التى أشفقت السموات و الأرض و الجبال من حملها، بينما حملها الإنسان و كان ظلوماً جهولاً، حيث ان المنافقين و الكافرين فشلوا من احتمال الامانه، فعذبهم الله بينما تاب على المؤمنين و المؤمنات، و كان الله غفوراً رحيماً.

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١ الى ٦]

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ لِلأَبْنَىٰ تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَ أَرْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَ أَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكُمْ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)

اللغة

٤] ادعيتكم]: الأدياء جمع دعى و هو الذى يتبناه الإنسان.

هدى من الآيات:

تبحث سورة الأ-حزاب فى معظم آياتها الثلاث و السبعين،موضوع المنافقين فى المجتمع الاسلامى، كما تتناول فى جانب منها الإقدام و الشجاعه الإيمانيه فى الحروب،و التحديات التى تواجه الامه.

تبدأ السوره بحثّ الرسول على تقوى الله،ثم تذكره ببعض تعاليم الإسلام حول الاسره،و الخطاب بدوره يعنى كل مسلم يتلو القرآن و يؤمن به،و تؤكد السوره فى مطلعها ضروره التقوى للرسول(القياده)،و ان لا- يطيع الكافرين و المنافقين،لأن القيادات على نوعين:الاول:القياده الرساليه،و الثانى:القياده السياسيه.

القياده السياسيه هى تجسيد لمجمل الأوضاع السياسيه و الاقتصاديه و الاجتماعيه و النفسيه و الثقافيه التى تعيشها المجموعه التى تظلمها هذه القياده و تشرف عليها، و نجد اشاره لهذه الحقيقه

فى الحكمه المعروفه «كما تكونون يولى عليكم»،فالقياده

التي تتحكم فى المجتمع صورته اخرى لما هو عليه تتجلى فى شخص أو حزب أو جماعه.

أما القيادة الرساليه فهى التى تشرف على الناس، تربيته و تعليما، من دون ان تتأثر بسلبياتهم، و مثالها قياده الأنبياء و الأئمه و من يتبع خطهم. و هذه القيادة تصطدم بعقبه كأداء هى سلبيات المجتمع، فبينما تريد قيادته أن تفرض الرساله الالهيه باتجاه معين، تضغط عليها المتغيرات اليوميه فى الاقتصاد و السياسه و المجتمع و..و.. باتجاه آخر، و هنا تواجه القيادة إشكاليه كبيره، فهى اما تلتزم بخطها الرسالى فينفض الناس من حولها، و اما تخضع لاهوائهم و ضغوطهم، فتحافظ على تأييدهم، و لكنها تنحرف عن مسيرتها الحقه.

و الامام على عليه السلام حينما واجه هذه الإشكاليه أثناء حكمه، كان بإمكانه تفريق الأموال و الرشاوى على الناس، و إخضائهم رغبا و رهبا، و لكنها كانت تفسد ضميره-حاشا لله- لذلك لم يفعل و

قال:

«و انى لعالم بما يصلحكهم، و يقيم أودكم، و لكنى لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى» (1) فالقيادة إذا أخرج ما تكون الى التقوى حتى تستقيم أمام الضغوط، و إنما تؤكد هذه الآيات على التقوى، لأنها تبحث موضوع الحرب التى تجسد ذروه الصراع، و أصعب ما يواجه البشر فى حياتهم، و من ثم أبرز و أهم قضيه تتعرض فيها القيادة لضغوط المنافقين و الكفار، و حتى بعض أبناء المجتمع المسلم، و لكى تتحصن القيادة ضد هذه الضغوط لا بد من التقوى، و التوكل على الله.

و بعد ذلك يعطف السياق نحو قضيه أسريه، مما يثير السؤال: ما هو الرابط بين

ص: ٢٥٦

١- ١) نهج البلاغه/خ(٦٩)/ص(٩٩).

القضايا الأسريه، وقضيه اجتماعيه كتحدى ضغوط الكفار و المنافقين فى الحرب؟! و الجواب: إنَّ الاسره هى المدرسه الأولى التى تصوغ حياه الإنسان فى بعديها المادى و المعنوى، و يجب ان يكون هدفها فى المجتمع الاسلامى بناء الإنسان الصلب الذى لا يتأثر بالضغوط الخارجيه، و لا يخضع للشهوات، و القادر على خوض الحروب باستقامه و وعى، دفاعا عن المبادئ و المجتمع، فى حال تعرضهما للخطر. لذلك حينما يحدثنا القرآن عن الاستقامه، و عن الإيمان الكامل و القياده الرساليه، يحدثنا كذلك عن الاسره، التى ينبغى ان تربي المؤمن المستقيم.

و فى سوره «المؤمنون» رأينا كيف أنّ ربنا حينما حدثنا عن الطراز المتكامل للإنسان المؤمن، كان يحدثنا أيضا عن الأسره الصالحه، و هى منبت الإيمان، و مزرعه التقوى، و مدرسه الأخلاق الفاضله فى سوره «النور».

و فى نهايه الدرس يؤكد القرآن على أنّ الاسره نظام فطرى يزكّيه الإسلام و يؤكده، و ليست نظاما اعتباريا أو قانونيا فقط، و بتعبير آخر لا- يمكن طريق القانون، أو ما يسمّى فى لغه الحقوقيين الاتفاق أو العقد الاجتماعيه أن تلغى الاسره، لأنها من الحقائق الفطريه، فزوجه الإنسان لا تضحى أمه أو أخته.

و بذلك يخالف الإسلام العاده الجاهليه التى كانت تقضى، بأن يتعامل الإنسان مع زوجته، كتعامله مع امه أو أخته، بمجرد ان يقول لها: أنت علىّ كظهر أمى، أو كظهر أختى، أو العاده الاخرى التى تقتضى بأن يكون الواحد ولدا للآخر لأنه ربّاه، حتى لو كان قد عثر عليه فى الطريق، و يبين القرآن انه لا يكون ولدا له، بلهى. انه أخ له فى الدين، و تربطه به علاقه الولايه، ان لم يعرف والده.

و لعل تأكيد القرآن على هذا الأمر يهدف إيجاد حدود للاسره، و إعطائها

اعتبارها الحقيقي ككيان فطري، يتكون من أم و أب و أولاد، يجب الالتزام به، بعيدا عن التلاعب بالألفاظ بأن نضع أشياء جديدة، ونسميها أسره، و بعيدا عن الاستهانه بالروابط الفطريه، بأن نوجد روابط خارج هذا الإطار.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كما سبق و ان ذكرنا، بان للبسمله معانى عديده و دقيقه فى كل سوره، تتصل بموضوعها، و ما يؤكد ذلك انها تنزل مع كل سوره بصوره مستقله، و هى هنا تعنى:

باسم الله تبدأ طريقك متوكلا- عليه، و باسمه تدخل الصراع فلا تخضع للضغوط، و لا تستجيب للإغراءات، و باسم الله تبنى الاسره الصالحه.

(١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ و عاده حينما تأتى فى القرآن أوامر صعبه، و هكذا فى النصوص الاسلاميه يسبقها أو يلحق بها الوصيه بالتقوى، و السبب ان تطبيق الأوامر الصعبه و الاستقامه عليها يحتاج الى دافع قوى و إراده صلبه، يجدها المؤمن فى تقوى الله.

و إذ يستهل القرآن الحديث بهذه الآيه الحاده، و يسمى من يحاولون تشييط الرسول عن مواجهه مع الكفار- فى ظرف أحوج ما تكون الأمه إلى الدفاع عن كيانها- بالمنافقين و الكفار، لان الاستجابه لهؤلاء خطيره جدا، و من شأنها القضاء على الامه و رساله الاسلاميه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا و تفيد الخاتمه هذه أمرين:

١- إن الله يعلم أهداف المنافقين و الكافرين، من ضغوطهم على الرسول، و ما ينتهى اليه الأمر من فساد لو يطيعهم، فهو حكيم إذ ينهى نبيه صلى الله عليه و آله عن الخضوع لهم.

٢- إن الله حين يذكر هاتين الصفتين بعد ان يأمر بالتقوى و ينهى عن طاعة المنافقين و الكافرين، فلأنّ التقوى تنبع من إحساس الإنسان بإحاطه الله له علما، و لأنّ الطاعة تأتي من الاعتقاد بأنّ الذى يأمره حكيم فى أمره.

(٢) إن هدف هؤلاء من الضغط على الرسول هو صدّه عن رساله ربه لهذا حتّ القرآن بعد ان نهى النّبى عن الطاعة لهم، على الالتزام بالوحي فقال:

وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ مِنْ رَبِّكَ يَتَجَلَّىٰ وَاقِعَ الْقِيَادَةِ فِي الظُّرُوفِ الصَّعْبَةِ فَيَعْرِفُ مَدَىٰ تَوَكُّلِهَا عَلَى اللَّهِ، وَ وَعِيَهَا لِلْأُمُورِ، وَ تَصْدِيحَهَا لِمَسْئُولِيَّاتِهَا.

فالقيادة الرساليه هى التى تتبع أمر الله و رسالته و تستقيم عليها، فى مختلف الظروف، دون أن تستجيب لما يقوله الآخرون مما هو مخالف للرساله، و هنا تؤكّد بان الضغط الذى تواجهه القيادة داخليا، من قبل المجتمع بقطاعيه العام أو الخاص، أشدّ و أصعب من الضغط الخارجى، لان انهيار الجبهه الداخليه التى تعتمد عليها القيادة أخطر من أى شىء آخر، و دور القيادة و أهميتها تبرز فى تصديها لعوامل هذا الانهيار و علاجها له، و ليس الانسياق معه. و حينما يعتبر القرآن الشورى ضروريه و يأمر بها القيادة الرساليه، لا يغفل حقيقه هامه، إذ يقول:

وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَالْقِيَادَةُ هِيَ الَّتِي تَعَزَّمُ وَ تَقْرُرُ، وَ لَكِنْ لَيْسَ وَفْقَ أَهْوَاءِ الْآخَرِينَ وَ لَا - حَتَّىٰ أَهْوَائِهَا، انما وفق هدى الله و وحيه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَ كفى بهذا باعثا للإنسان نحو تقوى الله و خشيته.

و لعل اسم الخبير يوحى بمعرفه حقيقه العمل صالح أو فاسد.

(٣) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لِكى تَتَمَكَّنَ مِنَ الْاِسْتِقَامَةِ، وَ تَحْدَى ضَغُوطِ الْاٰخِرِينَ.

وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً. وَ قد تكررت هذه الفكره عشرات المرات فى القرآن، أن يذكر الرسول بالتوكل و عدم اتباع أهواء الآخرين، فليست مشكله القائد ان يتبع هواه، بمقدار ما هى اتباع أهواء المحيطين به، لأنه يجسد الروح الجمعيه فى من يقودهم، فهو عاده ما يتجرد عن هواه، و لكنه يخضع لاهواء تلك الروح التى يجسدها بقيادته، و لذلك نجد التعابير القرآنيه تؤكد على هذا الخطر: وَ لَا تَطْعَمِ الْكٰفِرِينَ وَ الْمُنٰفِقِينَ (١)، وَ لَا تَتَّبِعْ اَهْوَاءَهُمْ وَ اٰخِذْهُمْ اَنْ يَفْتِنُوْكَ (٢)، وَ لَا تَتَّبِعْ اَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ (٣)... إلخ.

(٤) ثم يظهر السياق رفض الإسلام للازدواجيه فى الشخصيه إذ يقول:

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ

ص: ٢٦٠

١- ٢) الأحزاب/ (١).

٢- ٣) المائدہ/ (٤٩).

٣- ٤) المائدہ/ (٤٨).

فاما ان يتلقى توجيه المنافقين و الكفار، أو يتبع رساله الله، أما الالتقاط فهو مرفوض فى منطق الإسلام، فكما ان قلب الإنسان واحد و عواطفه واحده، كذلك يجب ان تكون حياته منسجمه مع بعضها، و بتعبير آخر يجب ان يرعى البشر الفطره التى خلقها الله فيه، و هو يضع القوانين لنفسه. و يربط القرآن بين هذه الفكره و بين قوله تعالى حاكيا عن الاسره:

وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ فَكَمَا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِرَجُلٍ لِقَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحِبَّ وَ يَكْرَهُ رَجُلًا بِصُورِهِ شَامِلِهِ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَ لَا- ان يفكر فى أمور متعدده فى وقت واحد، كذلك لا- يمكن ان يجعل زوجته امه امرأه واحده، فيجب ان يكون الأمر حسب الواقع الفطرى الطبيعى لا حسب ما يقرر الشخص نفسه.

و الظهار الذى تشير اليه الآيه هو قول الرجل لزوجته: أنت على كظهر أمى، أو كظهر أختى. و هذه من العادات الجاهليه، كما توجد عاده أخرى و هى جعل الآخرين ابناء لمن يتبناهم، لكن القرآن لا يقرها بل يرفضها.

وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ فَالابن لا يصير دعياً لوالده، و الدعى لا يصير ولدا لمن يدعيه، و تبين الآيه ان هذه العاده ليست مما يتفق مع تعاليم الله، و لا فطره البشر، انما هى من بنات أفكار الناس أنفسهم:

ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَ لَوْ عَدْتُمْ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَ فَطَرْتُمْ لِرَفْضَتُمْ ذَلِكَ، وَ قَلْبَ الْإِنْسَانِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْسَ

فى داخله بان الدعى ولداله، و لو قال ذلك الف مره بلسانه، لان القلب شىء آخر يميز الابن الحقيقى عن غيره، و لا يتمكّن ان يخرق القوانين الفطريه، ببعض القوانين الاعتباريه، لأنها تفقد قدره التنفيذ باعتبارها ظاهريه لا قلبيه.

□
وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَ الْحَقُّ هُوَ الْقَانُونُ الْفَطْرَى، وَ الْحَقِيقَةُ الْخَارِجِيَّةُ، وَ هَذِهِ صِفَةُ الْقُرْآنِ فَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِى يَنْطَبِقُ عَلَى كِتَابِ الطَّبِيعَةِ، فَكَمَا تَذَكَّرْنَا الطَّبِيعَةَ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ وَ تَهْدِينَا لَهَا، فَانَ اللَّهُ يَذَكِّرُ عِبْرَ آيَاتِهِ بِسُنَنِهَا وَ قَوَانِينِهَا.

وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ السَّلِيمَ، وَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَ (ال) التَّعْرِيفَ تَحَدَّدَ هَذَا السَّبِيلَ، أَنَّهُ لَيْسَ أَى سَبِيلٍ كَانَ، بَلْ هُوَ السَّبِيلُ الْقَوِيمُ.

(٥) ثم يبين القرآن حكم اللقيط، و هو يخالف ما عليه الجاهليه من نسب اللقيط الى من يريه و يتبناه حيث يقول:

أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمُ الْحَقِيقِينَ الَّذِينَ انْحَدَرُوا مِنْ صُلْبِهِمْ.

□
هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ أَصْحَحَ لَانْسِجَامِهِ مَعَ شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَ فِطْرَةِ الْبَشَرِ، بَيْنَمَا كَانَ الْجَاهِلِيُّونَ يَخَالِفُونَ هَذَا الْأَمْرَ وَ يَنْسُبُونَ الرَّجُلَ إِلَى مَنْ تَبَنَاهُ، حَتَّى لَوْ كَانَ أَبُوهُ شَخْصًا آخَرَ، وَ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ إِذَا افْتَقَرَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَدْفَعَ أَوْلَادَهُ إِلَى مَنْ يَعُولُهُمْ فَيَصِيرُ الْآخَرُ وَالِدَهُمْ فِي عَرَفِ

الناس، و لكن هل يغير هذا من الواقع الفطرى شيئاً؟ كلا.. فأبو طالب حينما اعطى ولده عليا عليه السلام للنبي صلى الله عليه و آله بسبب فقره، لم يصبح عليا ولد الرسول، و كذلك الأمر بالنسبه لزيد ابن حارثه، الذى نسبه الناس للنبي، فأنزل الله آيه فى أمره. (١) فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ وَ تَعْرِفُوهُمْ.

فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ إِخْوَةٌ سَبِيئُونَ وَ لَيْسَ نَسِيبِينَ، فهم لا يرثون منكم.

وَ مَوَالِيكُمْ وَ الْمَوْلَى هُوَ الشَّخْصُ الَّذِى يَنْتَمِى إِلَى عَشِيرَةٍ أَوْ أُسْرَةٍ، لَأنه لا عشيره له، فيسمى مولى لهم، و يختلف عن العبد بأنه صاحب ولايه، و له تسميات أخرى كالدخيل و اللحيق. اذن فعدم معرفه والده، لا يغير من الواقع شيئاً.

وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَى ذَنْبٍ.

فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ أَيَّامَ الْجَاهِلِيَّةِ، لَأنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، أَوْ إِذَا أَخْطَأْتُمْ الْآنَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ عَمْدٍ.

ص: ٢٤٣

١-٥) الأحزاب/ (٣٧).

وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ فِي نَسَبِ الْأَبْنَاءِ إِلَى غَيْرِ آبَائِهِمُ الْحَقِيقِينَ، فَذَلِكَ مُحَاسِبُونَ عَلَيْهِ.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا يَغْفِرُ لِلْعَبْدِ إِخْطَاءَهُ، أَمَا الْإِنْحِرَافَاتُ الْمُتَعَمِّدَةُ، وَالتِّي يَصْرُّ عَلَيْهَا فَانَهَا لَا تَغْفِرُ.

(٦) وَفِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ مِنْ هَذَا الدَّرْسِ يَرْكُزُ الْقُرْآنُ عَلَى فِكْرِهِ حَسَّاسُهُ وَذَاتِ أَهْمِيَّةٍ بِالنَّسَبِ لِلْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، فِي أَبْعَادِ حَيَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ، حَيْثُ يَبِينُ أَنَّ الْقَانُونَ الرَّسَالِي يُقْتَضِي أَنْ تَكُونَ الْقِيَادَةُ الرَّسَالِيَّةُ مُقَدِّمَةً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، أَمَا الْأَسْرَةُ فَهِيَ تَأْتِي فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، فَإِذَا مَا تَعَارَضَ قَرَارُ الْقِيَادَةِ مَعَ قَرَارِ الْأَسْرِ فَالْوَاجِبُ اتِّبَاعُ الْقِيَادَةِ، لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَجْتَمَعِ وَالتَّجْمَعِ، بَلْ هِيَ أَقْرَبُ لِلْفَرْدِ مِنْ نَفْسِهِ، وَ

فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ «لَمَّا أَرَادَ غَزْوَهُ تَبَوَّكَ أَمْرَ النَّاسِ بِالْخُرُوجِ قَالَ قَوْمٌ: نَسْتَأْذِنُ آبَاءَنَا وَ أُمَّهَاتِنَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ» (١) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَفِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ تَكُونُ الْعِلَاقَةُ الْأَسْرِيَّةُ هِيَ الْأَسْمَى.

وَ أَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ أَمَا الرَّحْمُ الَّذِي لَا يَتَّصِلُ مَعَكَ بِعِلَاقَةِ الْبَيْنِ فَهُوَ مُقَطَّوعٌ فِي الْإِسْلَامِ، كَالْأَرْحَامِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَهَاجِرُ أَوْ الرَّحْمُ الْكَافِرَةَ، وَ لَا يَعْنِي هَذَا أَنْ يُؤْذَى الْمُسْلِمُ وَالِدِيَّةً أَوْ

ص: ٢٤٤

عموم رحمہ لکفرہم، بل ان القرآن یحثّ علی الإحسان إلیہم، فہم ان انقطعت معہ علاقۃہم الدینیہ فإنہ تجمعه بہم علاقہ
الانسانیہ الی یقرّہا الإسلام.

□
إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أَوْلِيَاءَ كُمْ مَعْرُوفًا فَذَلِكَ يَقْبَلُهُ اللَّهُ، وَيَشْجَعُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ.

□
كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا إِنَّهُ قَانُونٌ مَسْطُورٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ.

ص: ٢٦٥

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْئَلَ
 الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
 رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ
 الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِمَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
 مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّاهَا
 وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥)

١٤ وَمَا تَلَّيْتُمْ مَا أَحْتَسِبُوا وَمَا تَرَيْتُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى الْكُفْرِ.

ص: ٢٤٧

هدى من الآيات:

الميثاق الذى أخذه الله عز و جل من النبيين، و عبرهم من الصديقين و الأولياء، هو العهد الذى وافق عليه كل إنسان فى عالم الدّر، حيث استنطقه الله بعد ان ألهمه العقل « وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا » و كان الهدف من هذا الميثاق- كما توضّحه نفس الآية- هو إقامة الحجة على الخلق أن تقولوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . (١)

و كل من لبى قبل الآخرين كان أقرب الى الله، فيزوده بنور العلم و الرساله، و كانوا هم الرسل و الأنبياء و الأوصياء و الأولياء، قال الامام الصادق عليه السلام :

«لما أراد الله ان يخلق الخلق نثرهم بين يديه فقال لهم: من ربكم؟ فأول من

ص: ٢٤٨

نطق رسول الله صلى الله عليه وآله و أمير المؤمنين و الأئمة عليهم السلام فقالوا: أنت ربنا، فحملهم العلم و الدين، ثم قال للملائكة: هؤلاء حملة ديني و علمي، و امنائي في خلقي، و هم المسؤولون» (١) ثم اتخذ الله ميثاقا آخر من رسله قبل ان يعثهم بالرساله، و كان هذا الميثاق بقوه الميثاق الاول.

و من يعث رسولا- يتخذ منه الميثاق، لكي يتحمل الرساله بكلّ أمانه، و لان النبي يتعرض لانواع الضغوط، يجب ان لا يخضع للظروف و الوسط الاجتماعي، فان الله يذكره بين الحين و الآخر بذلك الميثاق عبر آياته، بالرغم من ان النبي منصور من عند الله بالوحي و بروح القدس، ذلك الملك العظيم الذي يؤيد الله به أنبياءه و الأئمه، و لعل الوحي كما روح القدس لم يكن أرفع شأننا من القرآن ذاته، لأنه كلام الله. و هل رفعه درجه الوحي الا بكونه الواسطه التي تحمل القرآن الى النبي؟ و هل منزله الرسول صلى الله عليه وآله الا بتجسيده كتاب الله و حملة له؟ و القرآن أعظم مؤيد للرسول و لمن يتبعه، لأنه يثبت قلوبهم، و يزيد في إيمانهم و توكلهم على الله، بما يذكر به من الآيات و السنن الالهيه، و الحوادث السابقه التي تكشف عنها، و القرآن موجود بين أيدينا، فيمكننا أن نستوحي منه بصائر الحياه و العمل، و نستمد منه العزيمه و الايمان و التوكل، و نحن نسير في خط الأنبياء. و لما كان الرسول يواجه ضغوط المنافقين و الكفار، و يستعد لحرب الأحزاب التي تجمعت و اتحدت ضده، جاء القرآن تأييدا له على الاستقامه أمام كل ذلك، فكان لا بد من تذكيره لميثاقه مع ربه، على العبوديه و الإخلاص له، مما يستوجب عدم الانهيار أمام هذه الضغوط، باعتبارها يناقض الميثاق.

ص: ٢٦٩

ثم يذكر السياق بقصه الأحزاب التي تشتمل على كثير من العبر و الحكم التي من بينها:

الحكمه الأولى: تأييد الله للمؤمنين، فقد أيد الله رسوله و المسلمين فى هذه الحرب بجنود لم يروها، قيل انها الملائكه، و قيل هى الريح التي سلطها على الأحزاب، و قد تكون الرعب الذي

قال عنه الرسول صلى الله عليه و آله :

«نصرت بالرعب مسيرة أربعين يوما» أو هذه جميعا.

المهم أن الإنسان مهما يهوى من الوسائل المادية، فقد تتأثر بعوامل لا يستطيع ضبطها، و هى ما نسميها بالصدف، أو هامش الاحتمالات.

و الكفار حينما ساروا لحرب المسلمين يومئذ كانوا قد أعدوا العده للقضاء عليهم، و لم يكن فى بالهم ان شيئا يمنعهم عن المسلمين، و لكنهم انهزموا و خسروا المعركة، و كان السبب المادى الظاهر هو الخندق الذي حفر حول المدينة، و عموم ما استخدمه و هتأه الرسول من الوسائل و الاساليب للمعركة، و لكن العامل الامضى و الأهم أثرا هو الجنود التي لم يلحظها المسلمون بأعينهم، و إنما جاءت إشاره القرآن الى هذا العامل الحاسم فى الانتصار بهدف إعطاء الثقة للرساليين عبر الأجيال، بأنهم يجب ان يعتمدوا بعد الاستعداد و بذل قصارى الجهود، على نصر الله لا على ذواتهم و وسائلهم الماديه.

الحكمه الثانيه: كما تؤكد الآيات على الابتلاء الذي يعرض الله له المؤمنين، و انه من أهم اهداف الحروب و الغزوات، فمنهم من يستفيد من البلاء و الابتلاء، فى تثبيت ايمانه، و منهم من يتزلزل و لكنه يعود ليصلح مسيرته، و منهم من ينهار

ص: ٢٧٠

تماما،و المؤمن الذى يسقط ثم يعود الى الصواب ثانيه،قد يكون أقدر على الاستمرار،من الآخر،الذى لم يسقط و لا مره،لأنه جرب السقوط،فعرف كيف يجب ان يقوم لو سقط مره أخرى،كالجسم الذى يبتلى بجرثوم معين،ثم يطيب منه،فانه يكتسب شيئا من المناعه ضده،لو عاوده من جديد، لكن هذا الجرثوم نفسه قد يفتك بالآخرين الذين لم يبتلوا به،و بالتالى لا يملكون مناعه ضده.

و الذى يصنعه الابتلاء للإنسان المؤمن،انه يظهر قلبه من أسباب الشك و التردد،و يمكننا ان نحدد أهم أهداف الابتلاءات و المصاعب التى يعانىها الإنسان فى حياته فى أمرين:

ألف:تمحيص قلوب المؤمنين.

باء:تمحيص المجتمع.ففى الظروف الصعبة كالحروب يفرز المؤمن عن المنافق،مما يكشف الواقع أمام القياده،و بالتالى يتسنى لها إبعاد المنافقين من تجمعها ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . (١)

الحكمه الثالثه:تبين لنا الآيات أنواعا من التبرير و الاعذار التى يتشبث بها المنافقون من أجل التستر على نواياهم،و فرارهم من المسؤوليه،و من بينها قولهم:

« إِنَّ يُبَوِّتْنَا عَوْرَةً » فرارا من الحرب،دون التفكير فى صحتها.و على القياده الرساليه ان تشخص الأفكار التبريريه و تدحضها.

بينات من الآيات:

(٧) لا يبعث الله النبى رسولا حتى يتعهد بعدم الخضوع لسائر الضغوط،سواء

ص: ٢٧١

النابعه من ذاته أو الآتيه من المجتمع.

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ جميعاً، ولكن هذا العهد كان أشد و أخص بالنسبه لأولى العزم من الرسل، و هم الذين ذكرت بهم الآيه فى قولها:

وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فالأنبياء أفضل من سائر الناس، و الرسل أفضل من الأنبياء، و أفضل الرسل هم أولوا العزم، و أكرم أولى العزم محمد صلى الله عليه و آله .

وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا و لعل وجه التخصيص أن أولى العزم أكرم الناس عند الله، فهم أكثرهم تعرّضا للبلاء و المصاعب.

(٨) ثم بعد هذا الميثاق الذى أخذه الله على الناس و من ضمنهم الأنبياء فأقروا بالربوبيه له (١) و عاهدوه بالتسليم، خلق الحياه الدنيا ليتبين الصادق من الكاذب فيهم.

لِيَسْتَبْلُغَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ فالإنسان لا يعرف حقيقه ما يدّعيه إلا عند الامتحان، فان كان صادقا أدخله الله فى جنته و رحمته، و إن كان كاذبا عذبه.

وَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا

ص: ٢٧٢

فَاللّٰهُ يَسْتَأْذِي الْمِيثَاقَ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً فِي الدُّنْيَا عِبْرَ الرِّسْلِ، وَمَرَّةً فِي الْآخِرَةِ بِالحِسَابِ الدَّقِيقِ، وَالمُؤْمِنِ الذِّي يَهْتَدِي إِلَى حِكْمِهِ الحَيَاةِ هَذِهِ هُوَ الذِّي يَصْمَدُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، لِأَنَّهُ يَعتَبَرُهَا سَبِيلَهُ إِلَى رِضْوَانِ اللّٰهِ، وَالذِّي يَتَحَقَّقُ فِي الوَفَاءِ بِمِيثَاقِهِ مَعَهُ -عِزٌّ وَجَلٌّ- يَوْمَ الذَّرِّ وَعِبْرَ الأنْبِيَاءِ وَالقِيَادَاتِ الرِّسَالِيَّةِ الَّتِي تَمَثِّلُ امْتِدَادَهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ وَهَذَا مَا تَهْدِي إِلَيْهِ الآيَاتُ مِنَ (٢٢) إِلَى (٢٤) حَيْثُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا هَاتِنِ الآيَتَيْنِ ارْتِبَاطًا عَضُويًّا، وَتَمَثِّلُ ظَلَالًا لِهَمَا.

(٩) أما بقیہ الآیات، فہی تذرنا بالحقائق الثلاث التي أشرنا لها في أول الدرس، و التي يستوحىها السياق من حرب الأحزاب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ.

إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا اقْتَلَعَتْ خِيَامَ الْكُفَّارِ، وَكَانُوا يَزْمَعُونَ اللَّبْثَ فِيهَا وَهُمْ يَحَاصِرُونَ الْمَدِينَةَ، الَّتِي مَنَعَهُمُ الخَنْدِيقُ مِنْ دُخُولِهَا، مِمَّا أَشَاعَ الفُوضَى وَ عَدَمَ الاستِقْرَارَ فِي نفوسِ العدو.

وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا مِنَ المَلَائِكَةِ.

و قد مر في تفسير سورة الأنفال القول: بأن أهم عمل قامت به الملائكة، كان تثبيت قلوب المؤمنين من جهة، و تثبيت قلوب الكافرين من جهة أخرى، و على ضوء هذا التفسير نستطيع القول بأن أهم قوه عسكريه تستطيع هزيمة العدو هي التي تتوفر فيها صفتي الوحده و الاستقامه، اللتان تؤديان الى الثبات في المعركة.

و نصر الله للمؤمنين لا يأتي الا إذا بذلوا قصارى جهدهم، و كل ما يوسعهم من اجله، فلو كان المسلمون يوم الأحزاب ينتظرون عون الله، من دون تهيئه الظروف المناسبه له، من استعداد لمواجهه العدو، و إعمال للعقل فى سبيل ذلك لما نصروا عليهم، و لعله لهذا يشير الى سعى المؤمنين.

وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا فَلَأُنْكُم بِذَلَّتُمْ مَا فِي وَسْعِكُمْ، و حفرتم الخندق فى أربعين يوما متواصله، و ارهقتم أنفسكم فى شهر رمضان، و فى حراره الصيف، و قد رأى الله منكم كل ذلك و علم بنواياكم الصادقه نصركم على الأحزاب.

(١٠) إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ أَيْ مِنْ فَوْقِ الْوَادِى- مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ- وَ هُمْ يَهُودُ بَنِي قَرِيظَةَ وَ بَنِي النَّضِيرِ وَ غُطْفَانَ.

وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ مِنْ نَاحِيَةِ مَكَّةَ- قَبْلَ الْمَغْرَبِ- وَ هُمْ قَرِيشٌ وَ مِنْ تَبَعِهَا مِنَ الْعَرَبِ، وَ كَانَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ أَنْ الْأَبْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لَمْ تَكُنْ تَرَى أَوْ تَسْتَقِرُّ، وَ هَذِهِ الْحَالَةُ تَصِيبُ الْإِنْسَانَ إِذَا وَاجَهَ أَمْرًا يَهْوِلُهُ وَ يَعْظُمُ فِي نَفْسِهِ.

وَ إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ كَمَا أَنَّ الْقَلْبَ يَظَلُّ يَنْبُضُ بِقُوَّةٍ وَ سُرْعَةٍ فِي مَوَاطِنِ الْفَزَعِ، بِحَيْثُ يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ وَ كَأَنَّهُ صَعَدَ إِلَى حَنْجَرَتِهِ.

وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَتَّظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا

فى ساعه العسره تأتى البشر مختلف التصورات حول ربّه، و ربما يكون الكثير منها سلبيا، فاذا به و هو يقف فى صف المؤمنين لمحاربه أعداء رساله يفقد الثقه بنصر ربه، و يظن انه لن ينصره.

(١١) لكن الله يجعل الاحداث تتصعد و تتأزم، و قد يؤخر النصر، و يعرض المجتمع لأنواع الابتلاء، و ذلك تمحيصا للقلوب، و فرزا للمجتمع، فاذا به فريقان، فريق المؤمنين و فريق المنافقين.

هٰنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ اما المؤمنون فقد كان الأمر بالنسبه إليهم امتحانا-أظهر ما يضمرونه فى قلوبهم على ألسنتهم- كما تسببت شدته، فى ذهاب الصفات التى لحقت بهم، و التى ليست من طبيعه الشخصيه المؤمنه، فاذا به يزيدهم ايمانا و صفاء.

وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا و يحتمل هذا الشطر أحد تفسيرين: فاما يكون وصفا لطبيعه الامتحان بأنه من الصعوبه يشبه الزلزال الشديد، و إما يكون حديثا عن نتيجة الامتحان، فيصير المعنى ان المؤمنين اهتزت مواقفهم و تأثروا، فيحمل تفسير الآيتين (٢٢)- (٢٣) مضافا لهذه الآيه: ان المؤمنين صاروا فرقتين، فرقه تأثرت بالامتحان سلبا فى بادئ الأمر، فاكشفت ضعفها و جبرته، و فرقه ما زادهم إلا ايمانا و تسليما.

(١٢) اما المنافقون فقد افترض أمرهم، و برزوا على حقيقتهم أمام القيادة رساليه يومذاك و أمام المجتمع، و لعل هذا الفرز من أهم أهداف و فوائد الأزمات التى يتعرض لها البشر فى حياتهم.

و المنافق هو الذى يعيش شخصيتين:شخصيه الإنسان المؤمن الصادق-و هذه يظهرها ليستر بها شخصيته الحقيقه الثانيه بما فيها من الأنانيه و الدجل-فاذا استوجبت الظروف تعرّض مصالحه للخطر،و وجد الالتزام و لو ظاهريًا بالشخصيه الإيجابيه يعرضها للزوال ظهر على حقيقته.

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعِقْدَ وَ الْحَسَدَ وَ الْاِسْتِكْبَارَ وَ..و..فى قلوبهم،فإن شأنهم شأن المنافقين،لأن هذا المرض سوف يسبب لهم الانهيار و الفرار فى ساعه المواجهه،فهم يلتقون مع المنافقين فى خور عزيمتهم،و طبيعه موقفهم من الشدائد، و الذى يتجسد فى فرارهم و سلبيتهم فى المجتمع بخلاف المؤمنين الصادقين-تماما- فبينما يقول أولئك:صدق الله و رسوله،و يزدادون ايمانًا و استقامه على الطريق، يقول هؤلاء:

مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَ يَسْتَدْلُونَ عَلَى ذَلِكَ بَانَ النَّصْرِ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِمْ.

(١٣) و ثمه مجموعه من المشككين لا يكتفون بهزيمتهم إنما يشيعون جوا من الهزيمه بهدف زلله عقائد الآخرين،و هذه من طبيعه المنافقين.

وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا حينما تتعرض الامه للخطر فهى أحوج ما تكون الى الثقه بنفسها و بقيادتها و بربها،و بالتالى فان الألسن و الأفلام التى توهن المجتمع،و تبث فيه روح الهزيمه لهى منافقه،و على المجتمع أن لا يستجيب لها،إنما يلتف حول قيادته الرساليه،

كما ان من واجب القيادة فضح هذه الشريحه و اقصائها عن موقع المسئوليه و التوجيه.

وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ وَيُغْتَابُونَ هَذِهِ الْهَزِيمَةَ بِمَجْمُوعِهِ مِنَ الْأَعْذَارِ وَ التَّبْرِيرَاتِ الْوَاهِيَةِ.

يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ قَالُوا: إِنْ بِيُوتُنَا مَكْشُوفَةٌ لِلْعَدُوِّ، وَ لَا نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِنَا مِنْهُ، فَلَا بَدَّ أَنْ نَبْقَى مَعَهُمْ نَحْمِيهِمْ، لَكِنَّ اللَّهَ فَضَحَهُمْ إِذْ قَالَ:

أولاً: ان بيوتهم ليست كما يدعون، و لكنهم يريدون الفرار من الحرب.

وَ مَا هِيَ بَعْوَرَةٌ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً (١٤) ثانياً: لو أنهم دعوا الى حرب فيها مصالحهم، غير هذه الحرب المقدسه التي فيها مصلحه الإسلام، لخاضها أكثرهم، و لما تخلف عنها أحد منهم، أو ليسوا في الجاهليه يحاربون بعضهم لمآت السنين و لأتفه الأسباب؟! وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَرْبُ.

مِنْ أَقْطَارِهَا جِهَاتِهَا وَ أَهْدَافِهَا الَّتِي يَرِيدُونَ، لِأَنَّهَا تَتَّفَقُ مَعَ أَهْوَائِهِمْ مِثْلًا.

ثُمَّ سُلِّمُوا الْفِتْنَةَ لِأَتَوْهَا وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً

(١٥) و ما كانوا يلتزمون و لا حتى يلتفتون لعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه و آله .

وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَ عَنِ رَسُولِهِ.

لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ دُونَ تَرَاجُعٍ أَوْ هَزِيمَةٍ، وَ كَانَ هَذَا الْعَهْدُ عِبْرَ الرَّسُولِ امْتِدَادًا لِمِيثَاقِهِمْ مَعَ اللَّهِ فِي عَالَمِ الذَّرِّ، وَ تَأْكِيدًا لِلْمَسْئُولِيَّةِ.

وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا

ص: ٢٧٨

إشاره

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ إِذَا لَا تُمَتُّونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشْجَحَهُ عَلَيْكُمْ فِإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَمَاذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُواكُمْ بِأَلْسِنِهِ حِدَادٍ أَشْجَحَهُ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْتَكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ عَنْ أَلْبَائِكُمْ وَ لَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)

اللغه

١٧ [يعصمكم من الله]: يدفع و يمنع عنكم قضاء الله.

١٨ [هلمم إلينا]: تعالوا و أقبلوا إلينا.

[و لا يأتون البأس]: لا يحضرون القتال.

١٩ [أشحه عليكم]: الشحه هي البخل، فهم بخلاء عليكم لا يبذلون مالا و لا نفسا.

[سلقوكم بألسنه حداد]: آذوكم بالكلام، و خاصموكم بألسنه سليطه ذريه.

٢٠]بادون فى الاعراب]: يكونون فى الباديه مع الاعراب.

ص: ٢٨٠

هدى من الآيات:

مرض النفاق الذى تظهره الأزمات الشديده التى تعصف بالأمه قضيه ذات أبعاد متعدده، و معرفه أبعاد النفاق الاجتماعى ضروره للسيطره على هذا التيار الخطر، حتى لا يجرف خيرات الامه، أو يستلب بركاتها و ايجابياتها.

و المجتمع الذى يترك المنافقين أحرارا، يستغلون طاقات الأمه و انتصاراتها، فينزون على السلطه على غفله من أبنائها، و لعدم وعيهم، فانه لن يدوم طويلا فى مسيرته الصاعده، و أبنائه يعلمون أن أعمالهم تنتهى الى جيوب المستغلين و المنافقين.

و القرآن الكريم يفضح فى أكثر من سوره-المنافقين الذين يبحثون عن المكاسب و المغانم، دون ان يقدموا من أنفسهم شيئا للحصول عليها، فهم فى الأزمات و الحروب يتهربون من المسؤوليه، و لكنهم يبرزون و يظهرون أنفسهم أبطالاً- حين المغانم و الانتصارات.

(١٦) كانت حرب الأَحزاب من الأزمات الصعبة التي مرت بها الأمة الاسلاميه، و كان من ايجابياتها- كما سائر الأزمات- انها كشفت واقع فريق المنافقين، و القرآن لا يذكر تفاصيل هذه الحادته فى هذه السوره، انما يذكر ببعض النقاط الحساسه منها.

فيؤكد لنا بأن الإنسان لا يستطيع ان يدعى القدره على الخلاص من الموت أو القتل بالفرار، أو أن ذلك ينفعه. كلا.. فهو قد يبعده عن ذلك لحظات و أياما، و لكنه لن يكون سببا للبقاء و الاستمرار، فما يدفعه المجتمع و حتى الإنسان الفرد عن الهزيمة يفوق ما يدفعه حين الاستقامه و الاستمرار أضعافا مضاعفه، فهو بالفرار من المعركه يعطى العدو زحما من القوه و الثقه بالنفس.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا بَيْنَمَا تَهْبِ الشَّجَاعَةُ لِلْإِنْسَانِ عَمْرًا طَوِيلًا، لَأَنَّ الشَّجَاعَةَ يَقَاوِمُ الْأَعْدَاءَ وَ مِنْ ثَمَّ يَضْمَنُ اسْتِمْرَارَهُ.

(١٧) و بالاضافه إلى أن الفرار من الموت لا يجدى نفعا، إذ انه يدر كهم انى كانوا، بالاضافه الى ذلك فانه يغضب الرب، و هم لا يملكون من دونه ولينا و لا نصيرا، فاذا أراد بهم سوء فلا عاصم لهم منه يمنعهم من عذابه، و إذا أراد بهم رحمه فلا أحد قادر على منع رحمته عنهم.

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً

ان الهزيمة امام الأعداء مظهر من مظاهر ضعف الايمان بالله و تعلق القلب بالشركاء من دونه،و هكذا ينسف القرآن هذه الفكرة بقوله:

وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٨-١٩) ثم يذكرنا القرآن بجانب من صفات المنافقين و هي:

أولاً: انهم يبحثون عن أمثالهم، أولاً- أقل مثلهم عملياً، فاذا بهم يشبطون أناس عن المواجهه مع العدو عند الحرب، حتى يكون المجتمع مثلهم فيتخلصون من اللوم و ممن يسمهم بالجبن.

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرِوفِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُكْمًا أَيِ الْمُبْطِنِينَ الَّذِينَ يَشُونَ رُوحَ الْهَزِيمَةِ وَ الضَّعْفِ فِي الْمَجْتَمَعِ، و«قد» تفيد التأكيد و ليس الإمكان و التحقيق.

ثانياً: الجبن و عدم الإقدام، و قليلاً ما يتواجدون حين المعارك الحاسمه، و هكذا فان الصعوبات و المشاكل هي التي تكشف المنافقين على حقيقتهم فاذا بهم- و قد ادعوا الشجاعه سابقاً- تخور عزيمتهم في لحظه المواجهه، و تدور أعينهم من الخوف، كما المغشى عليه من الموت، و إذا انجلى الخطر بصمود المؤمنين و استقامتهم في ساحه الصراع تجدهم مره أخرى بألسنتهم السليطه يشتمون و يحملون الآخرين المسؤولييه، و حده كلامهم تكون بمقدار هزيمتهم و جنبهم في الأزمات.

وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشْجَعًا عَلَيْكُمْ فَاذًا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَاذًا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ

ثالثاً: السعى من أجل المغانم، والأخذ من المجتمع الاسلامى بحرص شديد يوازى شحهم و بخلهم عن الإنفاق لصالح الإسلام و المسلمين، و أساسا لا ينتمى هؤلاء للمسلمين إلا سعيا وراء المصلحه.

أَشِدَّ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلِيَّتِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا وَ انما أحبط الله أعمالهم لأنها لا تقوم على أساس صحيح و اهداف مبدئية شريفه، كما نزع عنهم اسم المؤمنين لادن انتماءهم للمؤمنين ظاهري، و انتماءهم الحقيقى هو للكفار أو لذواتهم و شهواتهم.

(٢٠) رابعاً: و من خوف المنافقين انهم حتى بعد انتهاء المعركة لصالح المسلمين، و انسحاب الأحزاب لما تطمئن نفوسهم، فهم يزعمون أن المعركة لا زالت قائمه، و يعيشون حاله الخوف و الرعب، و كيف تطمئن نفوسهم و هى خاليه من الايمان و ذكر الله؟! يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا فَهُمْ وَ جُلُودٌ عَلَى مَصِيرِهِمْ وَ مَصَالِحِهِمْ مِنْ قَوَى الشَّرْكِ.

وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَتَمَنُونَ لَوْ كَانُوا بَعِيدِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، كما سكان البادية الذين همهم سماع الاخبار بعيدا عن المسئوليه، و هذه من صفات المنافقين انهم فى ساعه العسره و الخطر ينهزمون فى داخلهم.

يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ

خارجون الى (البدو) في الصحراء.

فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُونَ عَنْ أَسْبَابِكُمْ لِيَعْرِفُوا مَصِيرَ الْمَعْرَكَةِ حَتَّى يَتَكَيَّفُوا مَعَهُ، فَهَمَّ لَا يَصْنَعُونَ الْأَحْدَاثَ بَلْ يَتَقَلَّبُونَ مَعَهَا.

وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَنْهَضُونَ نَفْسِيًّا بِتِلْكَ التَّمَنِيَّاتِ، وَعَمَلِيًّا بِالْفِرَارِ مِنْ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ حِفَاظًا عَلَى حَيَاتِهِمْ، وَ لَوْ لَمْ يَحَالِفْهُمْ الْحِظُّ بِالْفِرَارِ وَالْهَزِيمَةِ مَا كَانُوا يُؤَثِّرُونَ فِي الْمَعَادِلَةِ أَبَدًا، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِلتَّضْحِيهِ وَ لَا لِلْقِتَالِ الْمُسْتَمِيتِ.

و تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ: مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا عَلَى أَحَدٍ مَعْنِيَيْنِ:

الاول: أنهم لو كانوا في المسلمين لم يقاتلوا الأحزاب-على افتراض عودتهم-لأنهم يبحثون عن المعارك التي يكون فيها العدو ضعيفا و قليلا، بحثا عن المغانم حيث يكون النصر فيها للمسلمين، و حتى في هذه الحالة فإنهم لا يؤدون دورا أساسيا، و لا يدخلون قلب المعركة.

الثاني: أنهم لو صادف مجيء الأحزاب للقتال مره ثانيه، و لم يتمكنوا من الفرار فإنهم لن يؤدوا مهامات خطره في القتال، بل سيكتفون بالأدوار الهامشيه التي لا تكلفهم شيئا من التضحية، كما أنها تحافظ على شخصياتهم و مكانتهم في المجتمع المسلم.

قصه غزوه الخندق:

و هذه النفوس المريضة أظهرتها ساعه الازمه في غزوه الخندق، التي نصر الله فيها

الامه الاسلاميه نصرًا عزيزًا، و كانت في أيام نشأتها، و الله يذكرنا بهذه الغزوه حتى نستفيد عبرًا منها، و يذكرنا بالنصر تذكيرًا للامه بأن ميلادها كان رهين تلك الحروب و بأولئك الابطال الذين خاضوها، و على سواعدهم جاء النصر، و مع أن الامه واقع قائم الآن إلا انها لا تستطيع ان تنكر فضل أولئك الرواد الأوائل الذين ساهموا في صناعه الامه و حافظوا على كيانها، لذلك يجب ان تبقى قصه غزوه الخندق و سائر الحروب التي شهدتها الامه في بدايه انطلاقتها و في أيام مخاضها راسخه في ذاكره كل فرد من ابنائها، و الإنسان يتأثر بالتاريخ فهو ابن له، و هو ينعكس عليه بصوره ما، فاذا عرف تاريخه معرفه حسنه و سليمه، و عرف محيطه بجميع أبعاده فان اخطاه سوف تقل، اما لو كانت رؤيته للتاريخ غامضه أو ناقصه فان حياته ستكون مليئه بالأخطاء، و لذلك يذكر القرآن بهذه القصص و العبر التي خلفتها لنا أحداث التاريخ، و نحن -بدورنا- نثبت هنا بعض ما جاء في السيره من تاريخ الواقع.

ذكر محمد بن كعب القرظي و غيره من أصحاب السير قالوا: كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود منهم سلام بن ابو الحقيق، و حبي بن اخطب في جماعه من بنى النضير الذين اجلاهم رسول الله صلى الله عليه و آله خرجوا حتى قدموا على قريش بمكه، فدعواهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه و آله و قالوا: إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم، فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول فديننا خير أم دين محمد، قالوا: بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين انزل الله فيهم: أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا إِلَى قَوْلِهِ: وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا فَسَّرَ قريشا ما قالوا، و نشطوا لما دعواهم اليه، فأجمعوا لذلك و اتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان فدعواهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه و آله و اخبروهم انهم سيكونون معهم عليه صلى الله عليه و آله و ان قريشا قد بايعوهم

على ذلك فأجابوهم فخرجت قريش و قائدهم ابو سفيان بن حرب، و خرجت غطفان و قائدها عيينه بن حصين بن حذيفه بن بدر فى فزاره، و الحرث بن عوف فى بنى مره، و مسعر بن جبلة الأشجعى فيمن تابعه من أشجع، و كتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل طليحه فى من اتبعه من بنى أسد- و هما حليفا أسد و غطفان- و كتب قريش إلى رجال من بنى سليم فأقبل ابو الأعور السلمى فيمن اتبعه من بنى سليم مددا لقريش،

فلما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه و آله ضرب الخندق على المدينة و كان الذى أشار عليه سلمان الفارسى (ره) و كان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه و آله و هو يومئذ حرّ، قال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه و آله و المسلمون حتى أحكموه، و

فى روايه اخرى: خط رسول الله صلى الله عليه و آله الخندق عام الأحزاب، أربعين ذراعا بين عشره، فاختلف المهاجرون و الأنصار فى سلمان الفارسى، و كان رجلا قويا، فقال الأنصار: سلمان منا، و قال المهاجرون: سلمان منا، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «سلمان منا أهل البيت»،

قال عمرو بن عوف: فكنت انا، و سلمان، و حذيفه بن اليمان، و النعمان بن مقرن، و سته من الأنصار، نقطع أربعين ذراعا. فحفرنا حتى إذا بلغنا الثرى، اخرج الله من بطن الخندق صخره بيضاء مدوره فكسرت حديدنا، و شقت علينا، فقلنا: يا سلمان ارق إلى رسول الله صلى الله عليه و آله فأخبره عن الصخره، فإما ان نعدل عنها فإن المعدل قريب، و إما ان يأمرنا فيه بأمره فإننا لا نحب ان نجاوز خطه- و هذا مما يدل على الانضباط- فرقى سلمان حتى أتى رسول الله صلى الله عليه و آله و هو مضروب عليه قبه، فقال: يا رسول الله! خرجت صخره بيضاء من الخندق مدوره، فكسرت حديدنا، و شقت علينا، حتى ما يحك فيها قليل و لا كثير، فمرنا فيها بأمرك، فهبط رسول الله صلى الله عليه و آله مع سلمان فى الخندق، و أخذ المعول (1) و ضرب به

ص: ٢٨٧

ضربه فلمعت منها برقه أضاءت ما بين لابتها (١)-يعنى لابتى المدنيه-حتى لكأن مصباحا فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله صلى الله عليه و آله تكبيره فتح، فكبر المسلمون، ثم ضرب ضربه اخرى فلمعت برقه اخرى، ثم ضرب به الثالثه فلمعت برقه اخرى، فقال سلمان: بأبى أنت و أمى يا رسول الله ما هذا الذى أرى؟! فقال:

«أما الاولى فإن الله عز و جل فتح على بها اليمن، و أما الثانيه فإن الله فتح على بها الشام و المغرب، و أما الثالثه فإن الله فتح على بها المشرق» فاستبشر المسلمون بذلك و قالوا: الحمد لله موعده صادق. قال: و طلعت الأحزاب، فقال المؤمنون:

« هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ » و قال المنافقون: ألا تعجبون يحدتكم و يعدكم الباطل، و يخبركم انه يبصر فى يثرب قصور الحيره (٢) و مدائن كسرى، و انها تفتح لكم و أنتم تحفرون الخندق، و لا تستطيعون ان تبرزوا؟!

و قال جابر بن عبد الله: كنا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كديه (٣) و هى الجبل، فقلنا: يا رسول الله إن كديه عرضت فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«رَشُوا عَلَيْهَا مَاءً» ثم قام فأتاها و بطنه معصوب بحجر من الجوع، فأخذ المعول أو المسحاه فسَمَى ثلاثا، ثم ضرب فعادت كئيبا أهيل فقلت له: ائذن لى يا رسول الله الى المنزل، ففعل، فقلت للمرأة: هل عندك من شىء؟ فقال: عندى صاع من شعير و عناق (٤) فطحننت الشعير، و عجنته و ذبحت العناق و سلختها، و خليت بين المرأه و بين ذلك، ثم أتيت الى رسول الله صلى الله عليه و آله فجلست عنده ساعه ثم قلت ائذن لى يا رسول الله، ففعل، فأتيت المرأه فإذا العجين و اللحم قد أمكنا، فرجعت الى

ص: ٢٨٨

- ١- (٢) اللابه: الحره و هى الأرض ذات الحجاره السود التى قد ألبستها لكثرتها، و المدينه المنوره ما بين حرتين عظيمتين.
- ٢- (٣) قال الحموى: الحيره مدينه كانت على ثلاثه أميال من الكوفه على موضع يقال له النجف.
- ٣- (٤) الكديه: قطعه غليظه صلبه لا يعمل فيها الفأس.
- ٤- (٥) العناق الأثنى من أولاد المعز قبل استكمال الحول.

رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: أن عندنا طعيما لنا، فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال: «وكم هو؟» قلت: صاع من شعير، و عناق، فقال للمسلمين جميعا: قوموا إلى جابر، فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، فقلت: جاء بالخلق على صاع شعير و عناق، فدخلت على المرأة، و قلت: قد افتضحت، جاءك رسول الله صلى الله عليه وآله بالخلق أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ قلت:

نعم، فقالت: الله و رسوله اعلم، قد أخبرناه ما عندنا، فكشفت عني غمًا شديدًا، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «خذى و دعينى من اللحم» فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يثرد و يفرق اللحم، ثم يحم هذا و يحم هذا، فما زال يقرب الى الناس حتى شبعوا أجمعين، و يعود التنور و القدر املأ ما كانا، ثم قال: رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلى و اهدى» فلم نأكل و نهدي قومنا أجمع. أوردته البخارى فى الصحيح، و عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينقل معنا التراب يوم الأحزاب و قد وارى التراب بياض بطنه و هو يقول:

«اللهم لو لا أنت ما اهتدينا، و لا تصدقنا و لا صلينا، فانزلن سكينه علينا، و ثبت الأقدام ان لاقينا، انّ الاولى قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنة أينا» يرفع بها صوته، و لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف و الغابه فى عشره آلاف من أحابيشهم و من تابعهم من بنى كنانه و أهل تهامه، و أقبلت غطفان و من تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا الى جانب أحد، و خرج رسول الله صلى الله عليه وآله و آلهم و المسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع فى ثلاثه آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره و الخندق بينه و بين القوم، و أمر بالذرارى و النساء فرفعوا فى الآطام، و خرج عدو الله حبي بن اخطب النصيرى، حتى أتى كعب بن أسد القرظى -صاحب بنى قريظه- و كان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وآله على قومه،

و عاهده على ذلك، فلما سمع كعب صوت ابن اخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى ان يفتح له، فناداه: يا كعب افتح لى، فقال: ويحك يا حبيى انك رجل مشؤوم، انى قد عاهدت محمدا صلى الله عليه و آله و لست بناقض ما بينى و بينه، و لم أر منه إلا- و فاء و صدقا. قال: ويحك افتح لى اكلمك! قال: ما انا بفاعل. قال: ان أغلقت دونى إلا- على حشيشه تكره ان آكل منها معك، فاحفظ الرجل ففتح له. فقال:

ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر و ببحر طام. جئتك بقريش على قاداتها و ساداتها، و بغطفان على ساداتها و قاداتها. قد عاهدونى أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا و من معه، فقال كعب: جئتنى و الله بذلّ الدهر. بجهام قد هراق ماؤه يردد و يبرق، و ليس فيه شىء، فدعنى و محمدا و ما انا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقا و وفاء، فلم يزل حبيى بكعب يفشل منه فى الذروه و الغارب، حتى سمح له على ان أعطاه عهدا و ميثاقا، لئن رجعت قريش و غطفان و لم يصيبوا محمدا أن ادخل معك فى حصنك، حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب عهده، و برىء مما كان عليه فيما بينه و بين رسول الله صلى الله عليه و آله فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه و آله بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرء القيس- أحد بنى عبد الأشهل- و هو يومئذ سيد الأوس، و سعد بن عباده أحد بنى ساعده بن كعب بن الخزرج- و هو يومئذ سيد الخزرج- و معهما عبد الله بن رواحه، و خوات بن جبير. فقال: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقا فالحنوا لنا لحننا نعرفه، و لا تفتوا أعضاد الناس، و إن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس» و خرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم، قالوا: لا عقد بيننا و بين محمد و لا عهد، فشاتمهم سعد بن عباده و شاتموه، و قال سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمهم، فإن ما بيننا و بينهم أعظم من المشاتم، ثم أقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و قالوا: عضل و القاره لغدره عضل، و القاره بأصحاب رسول الله خبيب بن عدى و أصحابه أصحاب الرجيع، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين» و عظم عند ذلك البلاء و اشتدّ

الخوف، و أتاهم عدوهم من فوقهم، و من أسفل منهم، حتى ظنّ المؤمنون كل ظنّ، و ظهر النفاق من بعض المنافقين، فأقام رسول الله صلى الله عليه و آله و اقام المشركون عليه بضعا و عشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبل، إلا ان فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود-أخو بني عامر بن لوى-و عكرمه بن أبي جهل، و ضرار بن الخطاب، و هبيرة بن أبي وهب، و نوفل بن عبد الله، قد تلبسوا للقتال، و خرجوا على خيولهم. حتى مروا بمنازل بني كنانة، فقالوا: تهيأوا للرحب يا بني كنانة، فستعلمون اليوم من الفرسان، ثم أقبلوا تعنق بهم خيولهم، حتى وقفوا على الخندق، فقالوا: و الله ان هذه لمكيدة، ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق، فضربوا خيولهم فاقتحموا، فجالت بهم فى السبخة بين الخندق و سلع، و خرج على بن أبي طالب عليهما السلام فى نفر من المسلمين، حتى أخذ عليهم الثغرة التى منها اقتحموا، و أقبلت الفرسان نحوهم، و كان عمرو بن عبد ود فارس قريش، و كان قد قاتل يوم بدر حتى ارتث و اثبته الجراح، و لم يشهد أحدا، فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده، و كان يعد بألف فارس و كان يسمى فارس يليل، لأنه اقبل فى ركب من قريش، حتى إذا كانوا بيليل -و هو واد قريب من بدر- عرضت لهم بنو بكر فى عدد، فقال لأصحابه: امضوا، فمضوا، فقام فى وجوه بنى بكر حتى منعهم من ان يصلوا اليه فعرف بذلك، و كان اسم الموضع الذى حفر فيه الخندق المذاد و كان أول من طفره عمرو و أصحابه فقيلى فى ذلك:

عمرو بن عبد كان أول فارس* جزع المذاد و كان فارس يليل و كان ينادى عمرو: من يبارز؟ فقام على عليه السلام و هو مقنع فى الحديد، فقال: «أنا له يا نبى الله» فقال: «انه عمرو اجلس» و نادى عمرو: ألا رجل؟! و هو يؤنبهم و يقول: اين جنتكم التى تزعمون ان من قتل منكم دخلها! فقام على عليه السلام فقال:

«انا له يا رسول الله». ثم نادى الثالث فقال:

و لقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز

و وقفت إذ جن المشجع موقف البطل المناجز

إنّ السّماحه و الشّجاعة في الفتى خير الغرائز

فقام على فقال: «يا رسول الله أنا» فقال: «انه عمرو» فقال: «و ان كان عمرو» فاستأذن رسول الله، فأذن له رسول الله، فألبسه رسول الله صلى الله عليه و آله درعه ذات الفضول، و أعطاه سيفه ذا الفقار، و عممه عمامه السحاب على رأسه تسعه أكوار، ثم قال له: «تقدم» فقال لما ولى: «اللهم احفظه من بين يديه، و من خلفه، و عن يمينه، و عن شماله، و من فوق رأسه، و من تحت قدميه» فمشى على عليه السلام اليه و هو يقول:

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيه و بصيره و الصدق منجى كلّ فائر

إنّي لأرجوا ان أقي م عليك نائحه الجنائر

من ضربه نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

قال له عمرو: من أنت؟ قال: «انا على» قال: ابن عبد مناف؟ فقال:

«انا على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف» فقال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو اسنّ منك، فإنى اكره ان أهريق دمك؟! فقال على عليه السلام: «لكنى و الله ما اكره ان أهريق دمك» فغضب و نزل وسلّ سيفه، كأنه شعله نار، ثم اقبل نحو على مغضبا، فاستقبله على بدرقته، فضربه عمرو بالدرقه فقدّها، و اثبت فيها السيف، و أصاب رأسه فشجّه، و ضربه على على جبل العاتق، فسقط و تسيف على رجليه من أسفل، فوقع على قفاه، و ثارت بينهما عجاجه فسمع على يكبر. فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «قتله و الذى نفسى بيده»

فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب، فإذا عليّ يمسح سيفه بدرع عمرو فكبر عمر بن الخطاب، وقال: يا رسول الله قتله، فحزّ عليّ رأسه، و أقبل نحو رسول الله و وجهه يتهلل، فقال عمر بن الخطاب: هالآ- استلبته درعه، فإنه ليس للعرب درع خير منها؟! فقال: «ضربته فاتقاني بسوأته فاستحييت ابن عمي ان استلبه» فقال النبي صلى الله عليه و آله: «أبشر يا علي، فلو وزن اليوم عملك بعمل امه محمد لرجح عملك بعملهم، و ذلك انه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا و قد دخله و هن بقتل عمرو، و لم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا و قد دخله عزّ بقتل عمرو» (١)

ص: ٢٩٣

١-٦) مجمع البيان/ج(٧-٨)/ص(٣٤٠).

إشاره

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)

اللغه

٢٣[قضى نجه]:النحب النذر، وقضى نجه أى قتل واستشهد فى سبيل إنجاز عهده.

بعد ان تعرض الدرس الماضى لصفات المنافقين يبين القرآن الحكيم فى هذه الآيات صفات المؤمنين الصادقين عند الصعوبات و الحروب، و الصور المتقابلة فى القرآن توضح بما فيه الكفايه الحقائق و بالخصوص فى الحقل الاجتماعى.

فالمؤمنون-على خلاف ما كان عليه المنافقون من العصيان-يتبعون رسول الله صلى الله عليه و آله و يستجيبون لقيادته، فهو أسوه حسنه لهم فى حياتهم بما جسده فى حياته من صفات الخير، و لا ريب أن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه و آله ليس عملا بسيطا، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصبح تابعا للرسول، و مهتديا بهداه إلا إذا تجرد عن شهواته و حبه للدنيا، و إنما يتجرد عن حب الدنيا ذلك الذى يذكر الله كثيرا بذكر نعمه و عظمته و أسمائه، و الشكر له دائما.

(٢١) يدعى بعض المنافقين أنهم قاده، و ان من صفات القائد فى تصورهم أن لا يدخل المعركه و لا يضحى بنفسه، بل يجلس بعيدا عن الصراع ليصدّر الأوامر فقط، لكن القرآن يؤكد بأن القيادة الحقيقيه تتمثل فى رسول الله صلى الله عليه و آله و أن حياته يجب ان تكون نموذجا لنا نقتدى به، و السبب انه كان الأمثل فى كل حقل فهو الأشجع و المقدام فى الحروب، و صورته مناقضه للمنافق فهو يعمل أولا ثم يأمر الناس،

و كان الإمام على عليه السلام المعروف بشجاعته و اقدمه يقول عنه:

«كنا إذا أحمر البأس اتقينا برسول الله -صلى الله عليه و آله و سلم- فلم يكن أحد منا أقرب الى العدو منه» (١) و

إذا قرر الحرب كان أول من يلبس لامتها، فبعد ان وضعت حرب الخندق أوزارها، و عادت قريش أدراجها منهزمه، عاد الرسول الى بيته -و كان الوقت بعد الظهر- فوضع الحرب و استحم لصلاه العصر، و قبل الدخول فيها نزل عليه جبرئيل عليه السلام و قال له: يا محمد! وضعت لامه الحرب و نحن (اي الملائكه) لم نضعها؟! فعرف النبي انه يجب ان يبادر لحرب بنى قريظه الذين ساعدوا كفار قريش فى حرب الخندق، و نقضوا بذلك عهدهم مع الرسول صلى الله عليه و آله فسرعان ما لبس لامه حربيه و قال للمسلمين: لا- نصلى العصر الا- فى بنى قريظه، فمشى المسلمون الى هناك، و حاصروا قلاعتهم خمس و عشرين يوما، الى ان استسلموا و عاد المسلمون الى المدينه، و هكذا كان الرسول هو السبّاق الى الخيرات، كما كان القمه السامقه فى كل فضيله و مكرمه، فهو الذى يحب التأسى و الاقتداء به لا المنافقين.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

ص: ٢٩٦

و لكن هل يتمكن من الاقتداء بالرسول كل أحد.. كلا.. بل الذى ارتفع بإرادته و روحه و سلوكه عن حطام الدنيا، و تطلع الى الآخرة.

لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ أَمَا الَّذِي يَكُونُ هَدْفَهُ شَهْوَاتِهِ أَوْ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَانْه لَا يَسْتَطِيعُ الْاِقْتِدَاءَ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ الَّذِي أَخْلَصَ نَفْسَهُ وَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، وَ زَهَدَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا، وَ زَخْرَفَهَا وَ زَبْرَجَهَا.

أما الصفه الاخرى لمن يتبع الرسول فهي: تذكر غايته الأساسيه و هي رضوان الله، و الاستقامه عليها، و حين يعرف الإنسان وجهته يعرف-بوضوح-سائر أهدافه، و تتوضح له استراتيجياته و معالم سلوكه، إذ يجد المعيار السليم لمعرفة كل ذلك. و هكذا يعطى ذكر الله ضمانه للإنسان حتى لا ينحرف عن أهدافه التي تجمعها كلمه واحده هي رضوان الله.

وَ ذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا (٢٢) و بعد ذلك يثنى السياق على أهم صفات المؤمنين، و التي تناقض صفات المنافقين و أهمها:

أولاً- انهم لا- تكسرهم الأزمات، و لا- ينهزمون أمام الصعوبات مهما كانت، فهم يعرفون بأن ذلك كله من طبيعه طريقهم (ذى الشوكه) فكلما رأوا المصاعب تتزاحم فى طريقهم كلما ازدادوا يقينا بصحة طريقهم، و تسليما لربهم و قيادتهم.

و لعل المؤمن يبحث عن ساعه حرجه يجرب فيها نفسه (إيمانه و إرادته) و بالتالى يظهر فيها كفاءته الرساليه الحقيقيه لوجه الله.

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَنْهَزُوا كَمَا فَعَلَ الْمُنَافِقُونَ، بَلْ أَزْدَادُوا يُقِينَا بِخَطِّهِمْ.

قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمِنْ هَذَا نَسْتَفِيدُ أَنْ تَرْبِيَهُ الرِّسَالِيهِ السَّلِيمِهِ هِيَ الَّتِي تَصَارِحُ الْإِنْسَانَ بِطَبِيعِهِ الْمَسِيرِهِ، وَانْهَاهَا مَحْفُوفَهُ بِالْمَخَاطِرِ عَلَى صَعِيدِ الدُّنْيَا، مِمَّا يَسَاعِدُ الْفَرْدَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ حِينَ الْأَزْمَاتِ وَالْمَصَاعِبِ، لِأَنَّهَا حِينَئِذٍ لَنْ تَكُونَ مَفَاجِئَهُ لَهُ، بَلْ سَيَعْتَبِرُهَا أَمْرًا طَبِيعِيًّا وَقَدْ اسْتَعَدَّ لَهَا فَهِيَ مِمَّا تَزِيدُهُ تَثَبُّتًا عَلَى طَرِيقِهِ، لِهَذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَزْدَادُونَ إِصْرَارًا عَلَى مُوَاصَلَةِ الدَّرَبِ بَرَّغْمِ الْوَاقِعِ الصَّعْبِ حَيْثُ كَانَ الْعَدُوُّ قَدْ جَمَعَ لَهُمْ، وَجَاءَ لِحَرْبِهِمْ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَبَرَّغْمِ الْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَشْنَاهَا الْمُنَافِقُونَ ضِدَّهُمْ.

وَحِينَ يَرَى الْمُؤْمِنُونَ الصَّعُوبَاتِ وَالْأَزْمَاتِ وَقَدْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهَا يَتَيَقِنُونَ بِالْفَرَجِ لِأَنَّهُمْ وَعَدُوا بِهِ أَيْضًا، وَتَحَقَّقَ الْوَعْدُ الْأَوَّلُ يَدُلُّ عَلَى تَحَقُّقِ الْآخَرِ.

قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ رَدًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَإِخْمَادًا لِأَهْوَاءِ النَّفْسِ.

أَلَمْ يَعِدْهُمْ الرَّبُّ سَبْحَانَهُ بِالْمُوَاجَهَةِ الَّتِي تَنْتَهَى بِالنَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ، أَنْ أَعْظَمَ عَامِلٌ لِلصُّمُودِ فِي الظُّرُوفِ الصَّعْبَةِ التَّنْبَأُ بِهَا، وَالِاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيَّ مُسَبِّقًا لِمُوَاجَهَتِهَا، وَهِيَ هِيَ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذَا الْمَسْتَوَى، وَكَمَا النَّارُ تَفْتِنُ الذَّهَبَ، وَكَمَا الْمَبْرَدُ يَلْمَعُ زَبَرَ الْحَدِيدِ، كَذَلِكَ مُوَاجَهَةُ الْمَشَاكِلِ تَسْتَخْرِجُ مَعْدِنَ الْمُؤْمِنِ الصَّافِي، وَتَجْلِي نَفْسَهُ مِنْ أَدْرَانِهَا، هَكَذَا زَادَتِ الْحَرْبُ مَعَ الْأَحْزَابِ إِيمَانَهُمْ وَتَسْلِيمَهُمْ.

وَمَا زَادَهُمْ

تجمع الأحزاب، و تخذيل المنافقين و توهينهم.

□
إِلَّا إِيمَانًا بِاللَّهِ، وَ رِسَالَاتِهِ، وَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ.

وَ تَسْلِيمًا لِرَبِّهِمْ وَ قِيَادَتِهِمْ، وَ حِينَمَا نَدْرُسُ حَيَاةَ الشُّعُوبِ نَجِدُهَا نَوْعَيْنِ: فَبَعْضُهَا حِينَمَا يَتَعَرَّضُ لِلضُّغُوطِ وَ التَّحْدِيَّاتِ يَنْهَارُ، وَ الْبَعْضُ الْآخِرُ عَلَى الْعَكْسِ تَمَامًا - يَزْدَادُ قُوَّةً وَ ثَبَاتًا، وَ تَحْدِيًا، وَ يَعُودُ هَذَا الْاِخْتِلَافُ لِنَوْعِيَةِ الثَّقَافَةِ الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا وَ يَمَارِسُهَا كِلَا النَّوْعَيْنِ. فِينَمَا يَمَارِسُ النَّوْعَ الْأَوَّلَ ثِقَافَةَ الْاِنْهَزَامِ، يَمَارِسُ النَّوْعَ الثَّانِيَّ ثِقَافَةَ التَّحْدِيِّ، وَ الْمُؤْمِنُونَ الْحَقِيقِيُّونَ هُمُ الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِثِقَافَةِ التَّحْدِيِّ، فَاِذَا بِهِمْ كَلِمَاتُ الْعُقُبَاتِ وَ الْمَشَاكِلِ أَمَامَهُمْ كَلِمَاتُ فَجْرٍ طَاقَاتِهِمْ، وَ سَدُّوا ثَغْرَاتِهِمْ، وَ اسْتَعَدُّوا لِمُوَاجَهَتِهَا، كَمَا أَنَّهُمْ عِنْدَ الْمَصَاعِبِ يَكْتَشِفُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَ الطَّاقَاتِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِيهِمْ، وَ يَسْتَثْمِرُونَ كُلَّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الْاِنْتِصَارِ عَلَى الْأَزْمَاتِ وَ التَّحْدِيَّاتِ.

(٢٣) ثَانِيًا: أَنَّهُمْ لَا يَفْكُرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ كَأَفْرَادٍ، أَمَّا كَقِيمٍ وَ تَجْمَعُ وَ أَمَّهُ، فَلَا يَفْكُرُ أَحَدُهُمْ فِي ذَاتِهِ، وَ أَنَّهُ رُبَّمَا يَقْتُلُ فِي الْمَعْرَكَةِ، أَمَّا يَقُولُ: إِذَا قَتَلْتُ فَسَوْفَ يَأْتِي الْآخَرُونَ وَ يَتَابِعُونَ مَسِيرَتِي (فَالْمَهْمُ عِنْدَهُ أَنْ تَنْتَصِرَ الْقِيمُ، لَا أَنْ يَنْتَصِرَ هُوَ نَفْسَهُ) وَ إِذَا بَقِيَتْ فَسَوْفَ أَرِثُ الشُّهَدَاءَ الَّذِينَ أَرِيقَتْ دِمَاهُمْ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَ أَتَابِعُ دَرَبَهُمْ، وَ أَفِي بِحَقُوقِهِمْ، فَأَنَا مَسْئُولٌ أَمَامَ اللَّهِ عَمَّا أَرِثُهُ مِنْ دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ. فَشُعُورُ الْمُؤْمِنِ اذْنُ شُعُورِ اجْتِمَاعِي لَا فَرْدِي.

□
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن

قَضَى نَحْبَهُ وَ صَار شَهِيداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ لِقَاءَ اللَّهِ وَ يَسْتَعِدُّ لَهُ، فَالْمُؤْمِنُونَ مَتَمَسِكُونَ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوعِ، بَعْضُهُمْ يَمْضِي وَ يَبْقَى الْبَعْضُ الْآخِرَ لِيَكْمَلَ مَسِيرَتَهُ، دُونَ أَنْ يَفْكَرَ أَحَدُهُمْ فِي نَفْسِهِ وَ شَهْوَاتِهِ، وَ يَقُولُ لِمَاذَا أَنَا الَّذِي أَقْتُلُ وَ لَيْسَ فُلَانٌ؟ وَ لِمَاذَا أَنَا الَّذِي أَقْتُلُ وَ يَبْقَى فُلَانٌ يَتَنَعَّمُ بِالنَّصْرِ وَ الْمَكَاسِبِ؟ كَلَّا.. فَالْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ صِرَاعٍ مُسْتَمِرٍّ كُلِّ وَاحِدٍ يُوَدِّي دَوْرًا مَعِينًا فِيهِ، وَ الْمَجْمُوعُ الْكُلِّيُّ هُوَ الْمَهْمُ عِنْدَهُمْ جَمِيعًا، وَ هَذَا نَائِعٌ مِنَ اعْتِقَادِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَهَا، وَ لَا يَحِقُّ لَهُمْ أَنْ يَفْكَرُوا فِي مَصَالِحِهَا، أَمَّا يَتَصَرَّفُ فِيهَا رَبُّهُمْ وَ قَائِدُهُمْ حَسَبًا تَقْتَضِيهِ الْقِيَمُ الْإِلَهِيَّةُ، فَهُمْ مُسَلِّمُونَ الْأَمْرَ لِلَّهِ وَ لِقِيَادَتِهِمْ، وَ هَذَا الْإِيمَانُ هُوَ الَّذِي يَبْعَثُ فِيهِمُ الْإِسْتِقَامَةَ وَ الصُّمُودَ فِي الطَّرِيقِ.

وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٤) وَ بَعْدَ هَذَا الْعَرَضِ الصَّرِيحِ وَ الْمَخْتَصِرِ لِحَاثِ الْمُنَافِقِينَ وَ بَعْدَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ، يُشِيرُ السِّيَاقُ الْقُرْآنِيُّ إِشَارَةً إِلَى جِزَاءِ كُلِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ إِذْ يَقُولُ:

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ وَ لَكِنْ لَيْسَ بِإِنْتِمَائِهِمُ الْاجْتِمَاعِي الظَّاهِرَ لِحِزْبِ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ بِعَمَلِهِمُ الَّذِي يَتَجَانَسُ مَعَ تَسْمِيَّتِهِمْ وَ إِنْتِمَائِهِمُ الْحَقِيقِي.

بِصِدْقِهِمْ

ص: ٣٠٠

و تعالى الله ان تختلط عليه الأوراق، بلى. نحن البشر قد تغرنا المظاهر، فنسمى أنفسنا أو الآخرين بالصادقين، لمجرد حضورهم في تجمع مؤمن، و لكنّ الله و هو عالم الغيب و رب العالمين لا يعزب عنه مثل ذلك.

و يُعَذِّبُ الْمُتَافِقِينَ إِنْ شَاءَ بِنِفَاقِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ إِذَا صَحَّحُوا مَسِيرَتَهُمْ، و عادوا عن النفاق الى الايمان.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا فَهُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ الصَّادِقَةَ، لأنه لم يخلق الناس ليعذبهم، بل ليرحمهم كما في الآيات و الأحاديث.

ص: ٣٠١

إشاره

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَدَّأُوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنَةَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (٢٥) وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطُوهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَ أُسْرِحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢)

اللغه

٢٦[ظاهروهم]:المظاهره المعاونه.

[صياصيههم]:حصونهم.

٢٨[أمتعنن]:أعطينن متعه الطلاق.

[أسرحكن]:السراح الطلاق من غير خصومه.

٣١]يقنت[:القنوت الطاعه و قيل معناه المواظبه.

٣٢]فلا تخضعن[:فلا ترفعن القول، ولا تلن الكلام للرجال، ولا تخاطبن الأجانب مخاطبه تؤدي الى طمعهم فيكن.

ص:٣٠٣

هدى من الآيات:

نجد فى هذا الدرس فكرتين هامتين هما:

الأولى: تتمه لما مر فى الدروس السابقه حول قصه الأحزاب، و كيف أن ربنا نصر المؤمنين، وورد الكافرين يجرون أذيال الهزيمة و الفشل إلى بلادهم مكرهين، و قد خسروا بطلهم عمرو بن ود.

الثانيه: حديث حول نساء النبي صلى الله عليه و آله .

و هنا يطرح السؤال التالى: ما هى العلاقه بين الفكرتين فى السياق القرآنى؟ أى ما هى العلاقه بين انتصار المسلمين بإذن الله فى الحرب، و بين الوصايا و التعاليم الإلهيه لنساء النبي فى هذه السوره؟ و الجواب: يبدو أن محور سوره الأحزاب هو القيادة الرساليه فى علاقاتها مع

الأشخاص و الاحداث التي تدور حولها، و الآيات تؤكد بأنها مستقيمه على رساله ربها، لا تلويها الأحداث المتطوره-بما تحمله من ضغوط و اغراءات- و لا- يؤثر في مسيرتها الأشخاص الذين يحوطنونها لأنها تتبع هدى الله فتحدد موقفها من الأحداث، و تستجيب لما يتفق مع هذا الهدى إذا اقترحه الآخرون، و ترفض ما سواه مهما كان صاحب هذا الرأى قريبا أو معتمدا عندها، و مهما كانت الظروف.

و من أبرز و أهم الحوادث في حياه القيادات هي الحرب، و القيادة الرساليه التي تجسدت يومها-في حرب الأحزاب- في أفضل و أكمل صورها في الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه و آله كالجبل الأشم، لا تزلزلها العواصف، بل تتحدى متغيرات الزمان و الحرب و فرار المنافقين و تعويقهم، و بالذات هزيمتهم في حرب الأحزاب التي هي أقسى و أشد الحروب خطوره على رسول الله و على الأمة الاسلاميه آنذاك، من الناحيه العسكريه، فالرساله في أول انطلاقتها، و القيادة كما الأممه في بدايه نشأتها و تكونها، و قد جمع الكفار فلو لهم من كل حذب و صوب.

صحيح ان غزوه أحد كانت أعمق أثرا من الناحيه النفسيه على رسول الله صلى الله عليه و آله حيث ترك عمه حمزه سيد الشهداء مجندلا، تلوك كبده هند، كما أن ثله من أصحابه الخلص لقوا مصرعهم فيها، إلا أن حرب الأحزاب كانت الأشد و الأقوى عسكريا، و كان نصر الله للمسلمين في هذه الحرب دليلا واضحا على نصره الله لعباده المؤمنين، كما أن استقامه القيادة الرساليه المتجسده في شخص الرسول صلى الله عليه و آله يومذاك و استقامه من يحيطون به من صحبه الخلص، دليل على النموذج الأرقى للقيادة التي يجب ان تقاوم الحوادث المتغيره، و الظروف الصعبه، و عموم ضغوط الحياه، فعظمه القيادة و مسئوليتها تتجلى في استقامتها و مقاومتها للنكسات و الظروف السلبيه التي تعصف بالامه و بالتجمع الذي تقوده.

ثم ان أقرب الناس إلى الإنسان و أمضاهم أثرا في شخصيته و قراراته-إذا كان مائعا ضعيف الاراده-هى زوجته،ذلك أن زوجه حينئذ هى التى تصنع شخصيته، و بالذات إذا تعلق بها قلبه،و بالزواج ترسم خريطه الحياه المستقبليه للزوجين، فالزوجه من الناحيه النفسيه فى غالب الأحيان صوره أخرى للزوج بعد فتره من الزواج،كما أن الزوج فى أكثر الأحيان نسخه أخرى لزوجه و لهذا قيل:وراء كل عظيم امرأه،فالصوره الاخرى الغير مرسومه ظاهرا لاكثر الرجال،و السطر الغير مقروء فى حياتهم هى زوجاتهم.

و لكن رسول الله صلى الله عليه و آله كما القياده الرساليه لا يتأثر أبدا بزوجه،بل يضحى بهن فى لحظه واحده لو أمره الله بذلك،أو تعارض بقاؤه معهن مع أهداف رسالته، و الآية(٢٧)ربما جاءت حينما كان الرسول صلى الله عليه و آله متزوجا بتسع زوجات،فأمره حينئذ بتخيرهن بين البقاء معه و تحمل الأذى و الهجره و الفقر،أو الطلاق بالمعروف و الإحسان،و بالفعل خيرهن صلى الله عليه و آله لاین بعضهن كانت تقول: لو يطلقنا رسول الله لوجدنا من يتزوجنا من أهلنا،و يخرجنا من هذا العيش المشين،فقبلت إحداهن الطلاق،فطلقها الرسول،و لكنها أصبحت ذليله فى قومها،فقيره إلى أن ماتت، مريضه على أسوء حال،دون ان يتزوجها أحد.

و كان هذا التصرف من الرسول صلى الله عليه و آله معقولا،فالتى تختار الرسول زوجه لها- و هو الذى جاء مغيرا للعالم،و صانعا للأمم حسب وحى الله،و مؤسسا لتأريخ حضارتها-لا بد أن تتحمل الصعوبات و تستوعب طموحاته و ممارساته،و تكيف حياتها بما يتناسب مع كل ذلك.

اذن تتلخص العلاقه بين الفكرتين فى محوريه رسول الله كقائد رسالى للأمم،لا يتأثر بالأحداث و الظروف الصعبه كالحروب مثل حرب الأحزاب و هى أشدها،و لا

بالاشخاص كالمنافقين أو زوجاته، وهنا نذكر بقوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فالرسول هو القيادة التي يجب علينا الاقتداء بها إذا كنا في موقع القيادة، أو البحث عن كون امتدادا لها ثم التسليم له.

بينات من الآيات:

(٢٥) اجتمع الأحزاب و جاؤوا بخيره فرسانهم، و كان ذلك لهدفين:

١-التشفى من الإسلام و الرسول و المسلمين، من الإسلام باعتباره يناقض أفكارهم و معتقداتهم، و من الرسول لأنه زعيم الإسلام، و القيادة المضاده لهم، و من المسلمين لخروج أكثرهم عن طاعتهم، و لما لحقوا بهم من هزائم فى غزوات سابقه كغزوه بدر.

٢-الانتصار و جمع الغنائم من المسلمين، سواء كانت الغنائم أموالا أو أناسا يسترقونهم، و عموما فإن المشركين كانوا يشعرون بأن المدينة-بعد هجره الرسول إليها-خرجت من تحت سيطرتهم، فلعلهم كانوا يرجون التمكن منها و إعادتها من جديد لنفوذهم.

و لكن الله أنعم على المسلمين حينما أفضل خطط العدو، فلم يصل الى اهدافه من جهه، و من جهه أخرى حينما نصر المؤمنين دون قتال أو خسائر و توضيحات.

□
وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا دُونَ أَنْ يَحْقُقُوا أَهْدَافَهُمْ مِنْهُمْ.

بِعِظِهِمْ

ص: ٣٠٧

و حقدهم الذى لم يشفوه، و من دون غنائم.

لَعَمْرُكَ أَتَىٰ خَيْرًا وَ كَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا قويا إذ رد الكفار منهزمين مع كثرتهم، و عزيزا إذ نصر المؤمنين، فلو لم ينصرهم فى حرب الأحزاب لصاروا أذله امام الكفار، و لزال هيبتهم.

(٢٦) و من فوائد حرب الأحزاب أنها كشفت أعداء الرساله الحقيقتين، و جرّت المسلمين الى حرب كان الانتصار حليفا لهم فيها مع بنى قريضة.

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ أَىٰ أَعَانُوا الْكُفَارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ هُم يَهُودُ بَنِي قَرِيضَةَ.

مِنْ صَيِّصِيهِمْ حَصُونَهُمْ وَ قَلَاعِهِمْ.

وَ قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَ كَانَ الرُّعْبُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي نَصَرَ بِهَا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فِي حُرُوبِهِ ضِدَّ الْأَعْدَاءِ، وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْهَزِيمَةَ الْمَعْنَوِيَّةَ وَ النَّفْسِيَّةَ تَنْتَهَى إِلَى الْهَزِيمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، فَالرَّسُولُ يَصْبِحُ الْحَاكِمَ الْمَطْلُوقَ لِلْجَزِيرَةِ، يَهَابُهُ الْجَمِيعُ، وَ يَخَافُونَ سَطْوَتَهُ لِأَنَّهُ يَعْبَى جَيْشًا لِمَحَارَبَتِهِ

الروم-الدوله العظمى فى ذلك العصر-و فى غزوه أحد حينما يهزم المسلمون عسكريا،ينزل الوحي على النبي صلى الله عليه و آله بان يجمع المجروحين من جيشه،و يلاحق العدو،فاذا بهم يحسبونه جمع جيشه من جديد لحربهم،فينهزمون بعد الانتصار بسبب الرعب.

و هكذا كان مصير بنى قريظه الذين زعموا بأن الرسول ضعيف لأنه لم يحارب قريش و أحزابها،و لكنهم سرعان ما وجدوا المسلمين يحاصرون حصونهم،فانهزموا و كانت هزيمتهم بعامل الرعب لا بالسلاح.

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَ ذَلِكَ فِى قِصَّةِ مِثْلِهِ مَفْصُله سَنَتَعَرَّضُ لِدِكْرِهَا فِى عِقبِ الآيَةِ القَادِمَةِ.

(٢٧) وَ أَوْزَتْكُمْ أَرْضَهُمْ أَرْضَ يَهُودِ.

وَ دِيَارَهُمُ الحِصُونَ وَ البُيُوتِ.

وَ أَمْوَالَهُمْ اِشاره الى الممتلكات الماديه التى غنمها المسلمون منهم.

وَ أَرْضًا لَمْ تَطُوهَا بِالرِجَالِ وَ الخيل-تعبيرا عن الحرب-انما أخذها المسلمون بالحصار.

وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا وَ هَذَا مِمَّا يَعْزِزُ ثِقَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ، وَ هُوَ شَعُورُهُمْ بِأَنَّهُ صَاحِبُ الْإِرَادَةِ الْمَطْلُوقَةِ، وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الَّذِي يَحْسُ بِأَنَّهُ مَدْعُومٌ مِنْ قُوَّةِ لَا مَتَنَاهِيَةَ سَوْفَ يَزِدُّهُمُ تَسْلِيمًا لَهَا، وَ اطْمِئْنَانًا لَوَعْدِهَا، وَ اسْتِقَامَةً عَلَىٰ هِدَايَتِهَا.

غزوه بنى قريظه:

روى الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه، قال:

لما انصرف النبى صلى الله عليه و آله مع المسلمين عن الخندق، و وضع عنه اللآمه، و اغتسل، و استحتم، تبدى له جبرائيل عليه السلام فقال: «عذيرك من محارب، ألا أراك قد وضعت عندك اللآمه، و ما وضعناها بعد!» فوثب رسول الله صلى الله عليه و آله فزعا، فعزم على الناس ان لا يصلوا صلاه العصر حتى يأتوا قريظه، فلبس الناس السلاح، فلم يأتوا بنى قريظه حتى غربت الشمس، و اختصم الناس، فقال بعضهم: ان رسول الله صلى الله عليه و آله عزم علينا ان لا نصلى حتى نأتى قريظه، فانما نحن فى عزمه رسول الله، فليس علينا إثم، و صلى طائفه من الناس احتسابا، و تركت طائفه منهم الصلاه حتى غربت الشمس، فصلوها حين جاءوا بنى قريظه احتسابا، فلم يعنف رسول الله صلى الله عليه و آله واحدا من الفريقين، و بعث على بن أبى طالب عليهما السلام على المقدم، و دفع اليه اللواء، و أمره ان ينطلق حتى يقف بهم على حصن بنى قريظه، ففعل، و خرج رسول الله صلى الله عليه و آله على آثاره، فمر على مجلس من الأنصار فى بنى غنم ينتظرون رسول الله صلى الله عليه و آله فزعموا انه قال: مر بكم الفارس آنفا، فقالوا مر بنا دحيه الكلبي على بغله شهباء تحته قطيفه ديباج، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «ليس ذلك بدحيه و لكنه جبرائيل عليه السلام أرسل الى بنى قريظه ليزلزلهم و يقذف فى قلوبهم الرعب» قالوا و سار على عليه السلام حتى إذا دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحه لرسول الله صلى الله عليه و آله

فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وآله بالطريق، فقال: يا رسول الله لا عليك ان لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: «أظنك سمعت لى منهم أذى» فقال: نعم يا رسول الله فقال: «لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً» فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وآله من حصونهم، قال: «يا اخوه القرده و الخنازير، هل أخزاكم الله و انزل بكم نقمته؟!» فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً، و حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله خمساً و عشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار، و قذف الله فى قلوبهم الرعب، و كان حبيى بن أخطب دخل مع بنى قريظه فى حصنهم حين رجعت قريش و غطفان، فلما أيقنوا ان رسول الله صلى الله عليه وآله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود! قد نزل بكم من الأمر ما ترون و انى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شتمتم، قالوا: ما هن؟ قال: نبأى هذا الرجل و نصدقه، فو الله لقد تبين لكم انه نبي مرسل، و انه الذى تجدونه فى كتابكم، فتأمنوا على دمائكم و أموالكم و نساءكم، فقالوا: لا نفارق حكم التوراه أبداً، و لا نستبدل به غيره، قال: فاذا أبيتتم على هذا فهلموا فلنقتل أبناءنا و نساءنا، ثم نخرج الى محمد رجلاً مصلتين بالسيوف، و لم نترك وراءنا ثقلاً يهمننا، حتى يحكم الله بيننا و بين محمد فان نهلك نهلك، و لم نترك وراءنا نسلاً يهمننا، و ان نظهر لنجدن النساء و الأبناء، فقالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير فى العيش بعدهم؟! قال: فاذا أبيتتم على هذه فان الليله ليله السبت، و عسى ان يكون محمد و أصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا فعلنا نصيب منهم غره، فقالوا: نفسد سبتنا، و نحدث فيها ما أحدث من كان قبلنا، فأصابهم ما قد علمت من المسخ، فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته امه ليله واحده من الدهر حازماً، قال الزهرى: و قال رسول الله صلى الله عليه وآله حين سألوه ان يحكم فيهم رجلاً: «اختاروا من شتمتم من أصحابى» فاختاروا سعد بن معاذ فرضى بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فتزلوا على حكم سعد بن معاذ، فامر رسول الله صلى الله عليه وآله بسلاحهم فجعل فى قبته، و أمر بهم فكتفوا و أوثقوا، و جعلوا فى دار

اسامه، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله الى سعد بن معاذ، فجىء به، فحكم فيهم بأن يقتل مقاتليهم، و تسيى ذراريهم و نساؤهم، و تغنم أموالهم، و ان عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، و قال للأنصار أنكم ذو و عقار و ليس للمهاجرين عقار، فكبى رسول الله و قال لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله عز و جل» فقتل رسول الله صلى الله عليه وآله مقاتليهم و كانوا فيما زعموا ستمائه مقاتل، و قيل قتل منهم اربعمائه و خمسين رجلا، و سبى سبعمائه و خمسين، و روى: انهم قالوا لكعب بن أسد و هو يذهب بهم الى رسول الله صلى الله عليه وآله: إرسالا- يا كعب ما ترى يصنع بنا؟! فقال: كعب أ فى كل موطن تقولون؟! الا ترون أن الداعى لا ينزع، و من يذهب منكم لا يرجع؟ هو و الله القتل، و أتى بحبى بن اخطب- عدو الله- عليه حله فاختيه، قد شقها عليه من كل ناحيه كموضع الانمله، لئلا يسلبها، مجموعه يدها الى عنقه بحبل، فلما بصر برسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أما و الله ما لمت نفسى على عداوتك، و لكنه من يخذل الله يخذل، ثم قال: ايها الناس! انه لا بأس بأمر الله، كتاب الله، و قدره ملحمة كتبت على بنى إسرائيل، ثم جلس فضرب عنقه، ثم قسم رسول الله صلى الله عليه وآله نساءهم و أبناءهم و أموالهم على المسلمين، و بعث بسبايا منهم الى نجد مع سعد بن زيد الانصارى فابتاع بهم خيلا و سلاحا، فلما انقضى شأن بنى قريظه، انفجر جرح سعد بن معاذ، فرجعه رسول الله صلى الله عليه وآله عليه و آله الى خيمته التى ضربت عليه فى المسجد، و عن جابر بن عبد الله قال: جاء جبرئيل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «من هذا العبد الصالح الذى مات؟! فتحت له أبواب السماء، و تحرك له العرش» فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فاذا سعد بن معاذ قد قبض. (١)

تعليق:

لقد قتل بسبب حكم سعد بن معاذ ما بين (٤٥٠ و ٦٠٠) مقاتل من بنى

ص: ٣١٢

قريظه، مع ان الإسلام حساس في موضوع القتل، فهو يعتبر من يقتل نفسا واحده كأنما يقتل الناس جميعا كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا (١) مما يجعل هذا الحكم في ظاهره حكما جائرا في حقهم، أما حينما نعود الى الواقع فاننا نكتشف صواب هذا الحكم حتى بالقياس الى عادات المجتمع آنذاك، فالخيانة التي ارتكبتها بنو قريظه بنقضهم العهد مع النبي صلى الله عليه وآله في ساعه الشده، عند ما أعانوا الكفار و المشركين عليه و على الامه تستحق ذلك في حكم الشرع، و في منطق المجتمع الذي يرفض الخيانه بشتى صورها، و في كل الظروف.

فمع ان الحروب و الغارات كانت سمه للعرب إلا أن الوفاء بالعهد، و الالتزام بالمعاهدات، بل و الدفاع عن الحلفاء أمر مقدس عندهم، و لان بنى قريظه لم يدافعوا عن رسول الله، بل و حاربوه مع سائر الأحزاب فإنهم استحقوا ذلك، و هذا أمر طبيعي تحكم به حتى التوراه.

ثم ان سعد بن معاذ الذى جرح بسهم فى جبهته، فى معركة الأحزاب و استشهد بعد حادثه بنى قريظه كان صورته للإنسان الذى تأسى برسول الله صلى الله عليه وآله فهو ممن استجاب لقوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ الْآيَة، و هو أيضا من المعنيين بقوله تعالى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الْآيَة.

(٢٨) و من هذه الآيه ينتهى السياق الى الفكره الثانيه التى تدور حول علاقته النبي صلى الله عليه وآله بأزواجه.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَانْ هَذَا لَا يَتَّفِقُ مَعَ أَهْدَافِ النَّبِيِّ فِي الدُّنْيَا، وَ لَا تَطْلُعَاتِهِ فِي الْحَيَاةِ وَ لَعَلْنَا

ص: ٣١٣

نستلهم من هذه الآية أن المؤمن المجاهد الذي يريد التأسى برسول الله في كل شؤونه، ويسعى لتطبيق قوله سبحانه: لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ ان يتحرر من ضغط زوجته و لا يخضع لها إذا تحولت الى عقبه في طريق الجهاد و حتى لو بلغ الأمر به الى تهديدها بالطلاق يفعل ذلك ابتغاء مرضاه ربه.

فَتَعَالَيْنِ أُمْتَعُكُنَّ مِنَ الْمُسْتَحَبِّ لِلْمُؤْمِنِ حِينَمَا يَفَارِقُ زَوْجَتَهُ أَوْ صَدِيقَهُ ان تكون خاتمه المطاف طيبه حسنه، فيعطى للطرف الآخر هديه أو ما أشبهه، و قد يستفاد من المتاع هنا نصف المهر إذا لم يدخل بالزوجه، و كله إذا دخل بها.

وَ أَسْرُحُكُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا اى طلاقا حسنا، بتفاهم من دون شجار، لأن هناك من الأزواج من يفترون بعد العراك و الشتم.

(٢٩) اما الخيار الآخر فهو بقاء العلاقه مع النبي بشرط ان تكون أهداف هذه العلاقه هي:

١- مرضاه الله و إن كانت مخالفه لما تميل له النفس.

وَ إِنْ كُنْتُمْ تُرْذِنُ اللَّهَ ٢- التسليم للرسول.

وَ رَسُولَهُ

ص: ٣١٤

و الذى يريد الرسول هو الذى يسلم لقيادته، و ينتمى لتجمعه، و يحبه بقلبه انتماء سياسيا و اجتماعيا و قلبيا، و لا يتحقق هذا الانتماء الشامل من دون التسليم الى من يمثل الرسول فى المجتمع بقيادته و سلوكه.

٣- حب الآخره.

وَ الدَّارَ الآخِرَةَ من طبيعه الإنسان انه يعيش ضغثا من الدنيا و ضغثا من الآخره، و على هذا الأساس يجب ان تكون الاولويه فى حياه الإنسان للدار الآخره وَ ابْتِغِ فِيهَا مَا تَكَلَّمَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (١) و عموما فان من يريد الله و الرسول و اليوم الآخر هو الذى يعمل من أجل ذلك، و هذه الحقيقه تؤكدها الآيه الكريمه: وَ مَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَ سَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (٢) و فى هذه الآيه يؤكد الله قوله تعالى:

فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا اذن فالانتساب للرسول بمجرد لقلقه اللسان و قبله الايمان بالله و اليوم الآخر وحده من دون السعى و العمل بما يتفق مع ذلك لا يكفى، انما العمل هو الذى يقرب الإنسان أو يبعده من ربه، و الله يقول: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ (٣) و اولى الناس بالرسول، الذى يتأسون به، و ليس قرابته بالنسب أو السبب، و ما نجده فى الروايات من تعظيم لمنزله فاطمه الزهراء عليها السلام ليس لقرابتها من الرسول انما

ص: ٣١٥

١- (٣) القصص / (٧٧)

٢- (٤) الإسراء / (١٩).

٣- (٥) آل عمران / (٤٨).

لاقتدائها به، وكونها نسخه اخرى من حياته صلى الله عليه وآله ولذلك أصبحت سيده نساء العالمين.

(٣٠) ثم يتوجه النداء من الله مباشرة لنساء النبي:

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَأُضْحِكُهُ، مَوْرُسَتْ بِإِرَادِهِ تَامَهُ، وَ مِنْ دُونَ أَسْبَابِ قَاهِرِهِ، وَ لَمْ تَعْقِبْهَا تَوْبَهُ.

يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا سَوِيَّةٌ لِلْأَخْرِيَّاتِ، وَ لِأَنَّهَا تَرْتَبَطُ بِالرَّسُولِ فَقَدْ يَمَسُّ انْحِرَافُهَا بِسَمْعَتِهِ فِي الْمَجْتَمَعِ، كَمَا يَفْتَرَضُ فِي مَنْ يَعِيشُ بَيْنَ يَدَيْ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ مَطِيعًا لَا عَاصِيَا أَوْ مَنَحْرَفًا، فَقَدْ يَرْتَكِبُ الْإِنْسَانُ الْمَعْصِيَةَ وَ هُوَ يَعِيشُ فِي مَحِيطٍ مِنَ الْانْحِرَافِ، وَ لَكِنْ مَا هُوَ عِذْرُ الْعَاصِي فِي مَحِيطِ كُلِّهِ يَدْعُو لِلصَّلَاحِ وَ الطَّاعَةِ؟ ثَمَّ يُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ أَنْ لَا تَتَّصِرُ بِأَنْ تَنْسَابُنَا لِلْأَوْلِيَاءِ بِأَيِّ شَكْلِ -غَيْرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَ التَّأْسِي بِهِمْ- يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْلُصَنَا مِنَ النَّارِ، فَإِذَا عَمَلْنَا الْمَعْصِيَةَ ثَقُلَ عَلَيَّ اللَّهُ أَوْ عَزَّ عَلَيْهِ -تَعَالَى عَمَّا يَشْرَكُونَ- أَنْ يَعَذِّبَنَا. كَلَّا.. فَالْجَمِيعُ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، لَا يُمَيِّزُ بَيْنَهُمْ سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَيَّ اللَّهُ يَسِيرًا (٣١) ثَمَّ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ يُضَاعَفُ اللَّهُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ.

وَ مَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ تَسْلَمُ وَ تَخْضَعُ.

لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَخْرُجَ عَنْ طَاعَتِهِمَا.

وَتَعْمَلُ صَالِحًا تَرْجِمُهُ خَارِجِيَهُ لِذَلِكَ التَّسْلِيمِ، إِذْ لَا يَكْفِي خُضُوعَ الْقَلْبِ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ تَسْلِيمِ جَوَارِحِ الْإِنْسَانِ جَمِيعِهَا، وَالتِّي تَعْمَلُ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ذَلِكَ.

نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَ لِهَذِهِ الْآيَةِ تَفْسِيرَانِ:

الأول: ان المقصود من المرتين هو مضاعفه الجزاء، و هو أمر طبيعي، لان السلوك الحسن لزوجات الرسول يصيرهن قدوات حسنه للآخرين و

في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ سَنَ سَنَهُ هَدَى كَانَ لَهُ أَجْرٌ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ سَنَ سَنَهُ ضَلَّاهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» (١) الثاني: اضافه الى ذلك يقصد بالمرتين الدنيا و الآخرة، فأما في الدنيا فالجزاء برفع الله شأنهم بين الناس، و أما في الآخرة فما تؤكد عجز الآية:

وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣٢) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيَنَّ

ص: ٣١٧

لان الله سيضعف لكن الجزاء حسنا كان أو سيئا، و السياق يشير الى ان هذه المفارقة ليست نتيجة للتفوق العنصرى الذاتى، انما لارتباطهن المباشر برسول الله صلى الله عليه و آله و لهذا حرص الإسلام على نقاء سمعتهن و طهاره سلوكهن الاجتماعى، و من هذا المنطلق حدد الله أسلوب الكلام الذى ينبغى ان تتعاطاه نساء النبى مع أبناء المجتمع إذ قال:

فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثَ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ مَعَ الْجِنْسِ الْآخَرَ وَ بِالذَّاتِ نِسَاءَ الرَّسُولِ جَادًا، وَ خَالِيًا مِنَ الدَّلَالِ وَ التَّمَلُّقِ، حَتَّى لَا يَجْرَ هَذَا الْأَسْلُوبُ إِلَى عِلَاقَاتٍ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ مَعَ الْآخِرِينَ، حِفَازًا عَلَى عِفَّتِهَا، وَ سَلَامَةٍ لِلْأُسْرَةِ وَ الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ- هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَمَاعِيَةِ- وَ لِلْمَوْضُوعِ وَجْهَهُ سِيَاسِيَهُ إِذَا تَحَدَّدَ فِي زَوْجِهِ الْقِيَادَةَ الرَّسَالِيَةَ أَوْ غَيْرَهَا مِمَّا يَشْكَلُ خَطْرًا عَلَى أَمْنِ الْأُمَّةِ وَ مَسِيرَتِهَا، لِأَنَّ الْآخِرِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ- وَ عُمُومِ الْأَعْدَاءِ- أَصْحَابِ الْأَطْمَاعِ السِّيَاسِيَةِ، يَبْحَثُونَ عَنْ ثَغْرِهِ يَنْفِذُونَ مِنْهَا لِلْقِيَادَةِ لِيَحْتَوُواهَا، أَوْ يُوَثِّرُوا عَلَى قَرَارَاتِهَا، وَ قَدْ تَكُونُ هَذِهِ الثَّغْرَةُ هِيَ زَوْجِ الْقِيَادَةِ لَوْ ضَعُفَتْ وَ خَضَعَتْ أَمَامَ الْآخِرِينَ.

أما عن محتوى التعامل من قبل نساء النبى فيجب ان يكون متناسبا مع موقعهن، و مرضيا (معروفا) عند الرسول، و ليس مخالفا له.

وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَ هَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ زَوْجَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ مِنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْقِيَادَةِ مُتَوَافِقًا مَعَ مَوَاقِفِهَا وَ أُسْلُوبِهَا، إِذْ يَجِبُ أَنْ يَعْرِفُوا بِأَنْهَمْ لَا- يُمَثِّلُونَ أَنْفُسَهُمْ أَمَّا يُمَثِّلُونَ الْقِيَادَةَ بِانْتِمَائِهِمْ إِلَيْهَا، وَ لِأَنَّهَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ جَدِيدَةً فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الْمُنْتَمِينَ

جديا أيضا.

و لا تعنى الجديه من قريب أو بعيد ان يشتم هؤلاء الآخرين. كلاً.. و هذا درس يهـم القيادة، و كل من يدور حول القيادة، ذلك أن من مشاكل القيادة انها تكون جـيده فى غالب الأحيان (القائد-الامام-الفقيه-المرجع-الرئيس) لكن الحاشيه (البطانه) تكون خلافا لذلك، فاما الحواشى فعليهم ان يتقوا الله لأن خطأهم يكون بعشره كما صوابهم، و اما القيادات فيجب ان تكون حذره من التأثر السلبي بالبطانه، و لهذا الشطر من الآيه الكريمه تفسير اجتماعى يهـم المرأه و هو: انه يجب على المرأه ان تقتصر فى حديثها مع الرجال عند الضرورات، بما هو متعارف اجتماعيا و عقليا بكفايته، و هذا ما تؤكد عليه رواياتنا، و ما يستفـيده معظم الفقهاء منها.

ص: ٣١٩

إشارة

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَأُذْكَرْنَ مِمَّا يُنَالِي فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَائِضِينَ وَالْخَائِضَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

اللغة

[٣٣] وقرن: أقرن و استقرن.

[تبرصن]: التبرج إظهار الزينه الواجب سترها، والتبرج التبختر و التكبر فى المشى.

[الرجس]: عمل الشيطان، و ما ليس لله فيه رضى.

[٣٤] لطيفا: ذا فضل، و يعبر باللطف عن الحركة الخفيه من تعاطى الأمور الدقيقه.

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

بينات من الآيات:

(٣٣) لا- يعارض الإسلام خروج المرأة من حدود البيت و تعلمها، أو دخولها المعترك الاجتماعي و السياسي، و حتى العسكري بعض الأحيان، انما يرفض خروجها بهدف الفساد و الإفساد.

وَ قَوْلَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾ لما في ذلك من فساد النفوس، و انحطاط الأخلاق بالنسبة للمجتمع.

وَ أَقِمْنَ الصَّلَاةَ تَوْثِيقًا لِلْعَلَاقَةِ مَعَ اللَّهِ.

وَ آتِينَ الزَّكَاةَ

ثم يعطف السياق ليحدثنا عن ضروره طاعه الله و الرسول، كما يشير الى طهاره أهل بيته، و هذه الانعطافات و الالتفات عاده ما يكون التدبر فيها مفتاحا لفهم الآيات، و العلاقه بينها، و تحول الخطاب من الغائب الى المخاطب، أو من الخاص الى العام، أو العكس هو من قبيل هذه الالتفاتات في السياق القرآني، و المثل الظاهر للالتفات في القرآن هو ما نكرره عند كل صلاه في سوره الحمد، فبعد ان نقول: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ كُلِّ ذَلِكَ بضمير الغائب، نقول: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ بصيغه المخاطب، و ذلك لاسباب منها:

١- لان الإنسان في أول علاقته مع ربه يكون بعيدا عنه بعد الذكر و ليس المسافه، لكنه حينما يستمر في ذكره و العباده له يتقرب اليه، و لعل السوره تحدثنا عن هاتين المرحلتين، ففي البدايه يخاطب الإنسان ربه بضمير الغائب، اما حينما يتقرب اليه فانه يتحدث معه بضمير المخاطب القريب.

٢- لو قلنا نعبدك و نستعينك، لظننا اننا نعبد غيره أيضا، أما و قد تقدمت كاف الخطاب التي تخص بالخطاب فقد حصرت العباده و الاستعانه في الله وحده، و هنا في هذه الآيات من سوره الأحزاب نرى تغيرا في لحن القرآن، فبينما كان الخطاب بصيغه جمع المؤنث، موجها لنساء النبي « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ... » فاذا به يتغير الى صيغه المفرد المؤنث « وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ » « لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ » و منه الى الصيغه العامه و جمع المذكر، و التحول الى الصيغه الاخير (المذكر العام) يذكرنا بانعطاف آخر مر في الدرس السابق، حيث تحول السياق من المخاطب الجمع، للمؤنث الى المفرد « لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » و لعل الحكمة في ذلك: ان

السياق أراد التأكيد على ان القيم العامه و الواضحه كقيمه التقوى قائمه، و تشمل الجميع حتى نساء النبي صلى الله عليه و آله فلا تصيح المرأه من أهل الجنه بمجرد انتمائها للنبي، بل لا بد ان تكون هي نفسها محسنه و صالحه أيضا.

فالله سبحانه يذهب الرجس عن أهل البيت إذا كانوا ممن انتمى الى رساله قلبا و قالبا، اما من انتمى ظاهرا بنسبه أو بسب دون العمل فهو غير طاهر لأن ما يطهر الإنسان هو رساله و العمل الصالح بما يغيرانه من سجايا الإنسان الباطنه و الظاهره فدخولك في هذا البيت أو خروجك منه لا يؤثر الا بقدر ما تستوعب من قيم هذا البيت و رسالته و سلوكه أو بالعكس، من هنا

جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام:

«ولايتي لمحمد أحب الي من ولايتي منه» و أَطْعَنَ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً و لهذه الآيه علاقتان وثيقتان بما قبلها:

الاولى:علاقتها الخاصه بقوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فَالِسُورَه كلها تدور حول قضيه قياده الرساليه،المتجسده أيام الرسول صلى الله عليه و آله في شخصه،و من بعده فيمن يمثل امتدادا حقيقيا لقيمه و قيادته، لاقتدائه به و هم أهل بيته الذين طهرهم الله عن الرجس،

قال الامام على عليه السلام :

«انا وضعت في الصغر بكلا كل العرب،و كسرت نواجم قرون ربيعه و مضر، و قد علمتم موضعى من رسول الله-صلى الله عليه و آله-بالقرايه القريبه،و المنزل الخصيصه،و ضعنى في حجره و أنا ولد،يضمنى الى صدره،و يكفننى فى فراشه،

و يمسنى جسده، و يشمنى عرفه، و كان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، و ما وجد لى كذبه فى قول، و لا خطله فى فعل، و لقد قرن الله به -صلى الله عليه و آله- من لدن ان كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، و محاسن أخلاق العالم، ليله و نهاره، و لقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثرامه، يرفع لى فى كل يوم من أخلاقه علما، و يأمرنى بالافتداء به، و لقد كان يجاور فى كل سنه بحراء فأراه و لا يراه غيرى، و لم يجمع بيت واحد يومئذ فى الإسلام غير رسول الله -صلى الله عليه و آله- و خديجه و انا ثالثهما، ارى نور الوحي و الرساله، و أشم ريح النبوه» (1) و لم يكن هذا الحديث كلاما كتبه الامام عليه السلام فى كتاب و أبقاه لتقرأه الأجيال، انما هى خطبه ألقاها أمام عامه المسلمين، و صدقوه جميعا، و لم يرد فى التاريخ ان أحدا قد كذبه فى ذلك.

و العلاقة بين آيه التأسى و هذه الآيه: انه كما تجب طاعه الله و الرسول على نساء النبى و المسلمين، تجب كذلك طاعه أهل بيته الذين تعينهم الآيه و هم الائمة عليهم السلام الذين اذهب الله عنهم الرجس، و طهرهم بالعلم و التقوى و العصمه.

الثانيه: علاقتها العامه بالآيات السابقه حول نساء النبى -و منهن المرأه المسلمه- فهذا الاهتمام و التركيز الذى يوليه الإسلام للمرأه فى صورته تعاليم تربويه و اجتماعيه و سياسيه نابع من نظره الدين لموقعها الحساس فى المجتمع المسلم و الأسره المسلمه، و دورها الخطير فى مستقبلها، فتحقيق هدف الإسلام -و هو بناء المجتمع النموذجى الذى ينطلق من الاسره النموذجيه- يبدأ من خلق المرأه الفاضله.

و لعله لهذا السبب جاء الحديث عن البيت الفاضل الطاهر بعد مجموعه التعاليم

ص: ٣٢٥

فى شأن المرأه، اشارة الى هدف هذه التعاليم القرآنيه.

و قبل ان نمضى قدما فى التدبر فى بقيه آيات هذا الدرس، نورد بعض النصوص التى تفسر بشكل أوضح الآيه الكريمه و المرويه عن الكتب المعتمده لدى الفرق الاسلاميه جميعا.

يقول صاحب تفسير الميزان (رض) و بهذا الذى تقدم اشاره للشرح بتأييد ما ورد فى أسباب النزول: ان الآيه نزلت فى النبى صلى الله عليه و آله و على و فاطمه و الحسنين عليهم السلام خاصة، لا يشاركهم فيها غيرهم.

و هى روايات جمه تزيد على سبعين حديثا، يربو ما ورد منها من طرق أهل السنه على ما ورد منها من طرق الشيعه. فقد روتها أهل السنه بطرق كثيره عن أم سلمه، و عائشه، و أبى سعيد الخدرى، و سعد، و وائله بن الأسقع، و أبى الحمراء، و ابن عباس، و ثوبان مولى النبى، و عبد الله بن جعفر، و على، و الحسن بن على - عليهما السلام - فى قريب من أربعين طريقا.

و روتها الشيعه عن على، و السجاد، و الباقر، و الصادق، و الرضا - عليهم السلام - و أم سلمه، و أبى ذر، و أبى ليلى، و أبى الأسود الدؤلى، و عمر بن ميمون الأودى، و سعد بن أبى وقاص فى بضع و ثلاثين طريقا.

فى الدر المنثور اخرج الطبرانى عن أم سلمه: ان رسول الله صلى الله عليه و آله قال لفاطمه:

«اثينى بزوجهك و ابنه فجاءت بهم فألقى رسول الله صلى الله عليه و آله عليهم كساء فد كئا ثم وضع يده عليهم ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل محمد - و فى لفظ آل محمد - فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم.

انك حميد مجيد»

قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لا دخل معهم، فجذبه من يدي وقال: «إنك على خير».

و رواه في غايه المرام، عن عبد الله بن احمد بن حنبل، عن أبيه باسناده، عن أم سلمة.

و فيه اخرج ابن مردويه، عن أم سلمة، قالت: نزلت هذه الآية في بيتي [□] إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً و في البيت سبعة:

جبرئيل، و ميكائيل، و علي، و فاطمه، و الحسن، و الحسين، و انا على باب البيت، قلت: يا رسول الله أ لست من أهل البيت؟ قال: «إنك على خير انك من أزواج النبي.»

و في الكتاب ذاته اخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و الطبراني، و ابن مردويه، عن أم سلمة زوج النبي: ان رسول الله صلى الله عليه و آله كان بيتهما على منامه له، عليه كساء خيبرى، فجاءت فاطمه ببرمه فيها خزيره، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله:

«ادعى زوجك و ابنك حسنا و حسينا» فدعتهم، فينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله صلى الله عليه و آله: [□] إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

فأخذ النبي بفضله إزاره فغشاهم إياها، ثم اخرج يده من الكساء و أوماً بها الى السماء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي و خاصتي فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» قالها ثلاث مرات.

قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي في الستر، فقلت: يا رسول الله و انا معكم؟ فقال: «انك الى خير» مرتين.

و روى الحديث فى غاية المرام، عن عبد الله بن حنبل بثلاث طرق-عن أم سلمه، وكذا عن تفسير الثعلبى.

و فيه اخرج ابن مردويه، و الخطيب، عن أبي سعد الخدرى قال: كان يوم أم سلمه أم المؤمنين، فنزل جبرئيل الى رسول الله صلى الله عليه و آله بهذه الآيه: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً** قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه و آله بحسن و حسين و فاطمه و على فضمهم اليه، و نشر عليهم الثوب، و الحجاب على أم سلمه مضروب ثم قال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا»** قالت أم سلمه: فانا معهم يا نبى الله؟ قال: **«أنت على مكانك و انك على خير.»**

و فيه أيضا عن مسلم فى صحيحه باسناده، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«انى تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى و من تركه كان على ضلاله» فقلنا: من أهل بيته نساؤه؟ قال:

«لا ايم الله إن المرأه تكون مع الرجل العصر ثم الدهر، ثم يطلقها فترجع الى أهلها و قومها، أهل بيته أصله و عصبته الذين حرموا الصدقه بعده» (١) كما ان الآيات منقوله فى كتب أخرى من جملتها الصحاح، بما لا يمكن إنكاره لبلوغه حد التواتر، و هكذا تؤكد الأحاديث ما فسرناه بخصوص هذه الآيه الكريمة.

ص: ٣٢٨

١-٢) راجع تفسير الميزان/ج(١٦)/تفسير الآيه.

بالإضافة الى هذه الروايات،فانا من خلال دراستنا للتاريخ نجد ان وضعا خاصا كان يتمتع به أهل البيت عليهم السلام و بالذات فاطمه الزهراء و الأئمة المعصومين - عليهم السلام- و لا- يمكن لمؤرخ منصف ان ينكر تميزهم بالرغم مما لقوه من الضغوط و المصاعب،فقد كانوا يجسدون روح الإسلام و قيمه فى سلوكياتهم الشخصيه، و دعوتهم للناس،و قيادتهم للحركه الرساليه عبر التاريخ،و مواجهتهم للطغاه و..

و.. إلخ.

بلى. كانت فى أيام حياتهم بعض الأقلام و اللسنه التى باعت نفسها للطغاه، تحاول النيل منهم لقاء المال و الجاه،اما الآن فبامكان الجميع ان ينظروا للتاريخ نظره واضحه مجردة ليكتشفوا دور أهل البيت فى التاريخ الإسلامى،و إذ أنزل الله هذه الآيه فيهم فلعلمه بأنهم سوف يجسدون الحق فى حياتهم،من خلال اقتدائهم بالرسول،و تربيتهم لهم،و هو الذى ربّى البشريه و دفعها دفوعات حضاريه،لا زالت تتقدم بسببها الى اليوم و غده،و نتساءل:أو ليس الرسول قادرا على ان ينقل تلك الروح الى أولاده؟ ان علماء النفس و التربيه و الاجتماع يجمعون على أن الأب يؤثر فى أولاده مرتين:مره من خلال التربيه،و مره من خلال الوراثة-هذا بغض النظر عن العامل الغيبى الذى يختص به أهل بيت النبوه-و نحن من مجمل دراستنا للتاريخ، و معرفتنا بهذه العلوم،و واقع حياه الرسول و سيرته،و حياه أهل البيت و سيرتهم نستطيع ان نكتشف بان تلك الرساله امتدت بعد الرسول فى أهل بيته و خاصه الأئمه عليهم السلام .

و هو لم يأل جهدا فى بيان هذه الحقيقه،فلم يدع مناسبة إلا و أكد فيها منزله أهل البيت عند الله و عنده.

ص: ٣٢٩

قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«انى تارك فيكم الثقلين خليفتين: كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، و عترتى أهل بيتى، و إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» (١)

و قال صلى الله عليه وآله :

«من دان بدينى، و سلك منهاجى، و اتبع سنتى، فليدن بتفضيل الأئمة من أهل بيتى على جميع أمتى، فان مثلهم فى هذه الأمة مثل باب حطه فى بنى إسرائيل» (٢)

و قال صلى الله عليه وآله :

«انما مثل أهل بيتى فيكم كمثل سفينه نوح، من ركبها نجا، و من تخلف عنها غرق، و مثل باب حطه من دخله نجا و من لم يدخله هلك» (٣)

و فى الأثر انه صلى الله عليه وآله كان يطرق باب دار على و فاطمه عليها السلامو يقول:

«الصلاه الصلاه أهل البيت» ثم يقرأ الآية [□] إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ... الآية، بصوت عال عند الفجر، استمر لى ذلك سته أشهر، و كان هدفه ان يسمع جميع الناس بذلك الأمر، و لم يكن هذا التأكيد من رسول الله صلى الله عليه وآله بدافع العاطفه و الشفقه على أولاده، انما كان أمرا الهيا مباشرا، كما أن سنه الله فى الحياه تقتضى ان يبقى خط رسالى صالح العمل،

ص: ٣٣٠

١- (٣) بح ج / (٢٣) / ص (١٠٧).

٢- (٤) المصدر / ص (١١٩).

٣- (٥) المصدر / ص (١٢٠).

و طاهر النفس، تمتد الرساله من خلاله للأجيال، و لعل حفظ الله للرساله فى قوله:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ يتم بوسائل عديده من أهمها وجود الخط الأصيل الذى يحفظ الرساله من التحريف.

كما أنه لا- بد للناس من قدوه و امام، و خط أصيل يستوعب أفراده روح الرساله، و يجسدونها فى سلوكهم، و يتوارثونها عبر الأجيال ليكرسوها فى الأمه جيلا بعد جيل، و مده بعد مده،

و فى دعاء الندبه اشاره واضحه الى هذه الفكره، فقد ورد فيه:

(اين أبناء الحسين، صالح بعد صالح، و صادق بعد صادق، اين السبيل بعد السبيل، اين الخيره بعد الخيره، اين الشمس الطالع، اين الأقمار المنيره، اين الأنجم الزاهره، اين أعلام الدين، و قواعد العلم، اين بقيه الله التى لا تخلو من العتره الهاديه) (١)

و فى أصول الكافى (ج ١): قال الامام الباقر عليه السلام :

«و الله ما ترك الله أرضا منذ قبض آدم عليه السلام الا و فيها امام يهتدى به الى الله، و هو حجته على عباده، و لا تبقى الأرض بغير إمام حجه لله على عباده» (٢) فليس غريبا اذن ان نجد الحديث عن أهل البيت فى سوره الأحزاب التى جاءت لبيان الرساله و موضوع القائد الرسالى، و سوف نجد الآيات المناسبه لهذا الموضوع فى ضمن السوره- و هو أمر طبيعى- إذ لا بد للقائد الرسالى من امتداد فى المجتمع.

ص: ٣٣١

١- ٦) ضياء الصالحين /ص (٦٠٢) /الطبعه القديمه.

٢- ٧) أصول الكافى /ج (١) /ص (٢٥٢) /الطبعه الفارسيه.

(٣٤) ثم يذكرنا الله بواحد من الواجبات التي ينبغي على زوجات الرسول مراعاتها و هو ضروره ان يكن داعيات للرساله، ملتزمات بها.

وَ اذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ لِأَنَّهَا السَّبِيلُ لِتَقْوِيمِ السُّلُوكِ وَ الطَّهَارَةِ، وَ لَيْسَ مِنْ شَكِّ ان التلاوه التي لا يعقبها العمل لا تنفع صاحبها، و انما يؤكد الله على نساء النبي بذكر الآيات لكي لا يتصورن الرساله ما دامت تنطلق من بيوتهن الى الناس فهي لا تخصصهن، بل إن مسئوليتهن تبليغ الرساله، فالقرآن كما جاء ليصنع قدوه للرجال تتمثل في الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فكذلك جاء أيضا ليصنع قدوه للنساء و نساؤه أولى بالعمل بها.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا فهو يحيط بكن، و يعلم هل استوعبتن الرساله، و عملتن بها أم لا.

(٣٥) ثم نجد اشاره الى حقيقه هامه و هي: ان ما جاء في القرآن من الآيات بصيغه المذكر لا يدل على اختصاصها بالذكور دون الإناث، انما يشمل الجنسين.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتَاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ وَ الْخَاشِعِينَ وَ الْخَاشِعَاتِ كُلِّ ذَلِكَ قَوْلًا وَ عَمَلًا.

وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقَاتِ الَّذِي يَكُونُ الْإِحْسَاسُ سَمَهُ عِلَاقَتِهِمْ مَعَ الْآخِرِينَ، فَهَمَّ كَمَا يَسْعُونَ لِإِصْلَاحِ

أنفسهم و بنائها يسعون لبناء المجتمع و سد حاجته.

وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ تَرْكِيهَ لِلنَّفْسِ.

وَ الحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الحَافِظَاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً إِنَّ أخطاءَ و الأَن مَسِيرَتَهُم العامه هى الصلاح.

وَ أَجْرًا عَظِيمًا عَلَى أَعْمَالِهِم الصالحه، و عموما فان ما تقدم من الصفات هو صورته نظريه لسماة المجتمع الاسلامى، و الاسره المسلمه، فى ظل الالتزام بالقرآن الكريم، و مسئوليتنا السعى و الاجتهاد لايجادها فى واقعنا بتجسيدها عمليا.

ص: ٣٣٣

إشاره

وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)

اللغه

٣٦[الخيره]:التخير والاختيار.

٣٧[وطرا]:الوطر كل حاحه يكون لك فيها همه،فاذا بلغها البالغ قيل:قد قضى وطره و إربه.

ص:٣٣٤

٣٨]قدرا مقدورا]:قضاء مقضيا، و قيل:معناه جاريا على مقدار لا يكون فيه التفاوت من جهة الحكمه.

٣٩]حسبيا]:أى حافظا لأعمال خلقه، و محاسبا و مجازيا عليها.

ص:٣٣٥

هدى من الآيات:

حينما نرجع الى الشريعه الاسلاميه- كما سائر الانظمه- نجد فيها ثلاث قوى أساسيه هى القضائيه، و التشريعيه، و التنفيذيه، أما الاولى فان وظيفتها تشريع القوانين و الأحكام العامه، و أما الثانيه فسانها تطبيق القوانين على الوقائع المختلفه، بينما مهمه القوه التنفيذيه هى تطبيق القانون الذى تقضى به كلا القوتين على الواقع.

و فى الشريعه الاسلاميه تتركز جميع هذه القوى فى القيادة الرساليه العليا و هو النبى صلى الله عليه و آله أو من يمثل امتدادا حقيقيا له، فهى المرجع التشريعي و القضائى الأعلى، و إذا قضى النبى أو من يكون خليفه حقيقيا له لا يحق لأحد الاعتراض عليه.

و يضرب لنا القرآن مثلا من واقع الأمه الاسلاميه على هذه الحقيقه، حيث

عارض الإسلام العادات الجاهليه الغاصبه حرمه الزواج من مطلقه الابن بالتبني، و وضحت الآيات بأن ابن الإنسان هو الذى ينسل من صلبه، أما الآخر الذى يلتقطه و يتبناه فلن يصبح أبنا له أبداً، لان الأبوه كما النبوه و عموم العلاقات الاجتماعيه المشابهه قضيه طبيعیه واقعيه و ليست اعتباريه تشريعيه.

و كان هذا القضاء الجديد يومذاك يحتاج الى من يملك الجراه و الإقدام، و هنا تبرز و بصوره واضحه القدوه فى الأمه، فاذا بالرسول صلى الله عليه و آله يتزوج من مطلقه زيد ابن حارثه و هو ابنه بالتبني، و كان النبى قد خرق عادتین جاهليتين فى هذه الحادثه، الاولى ما تقدمت الاشاره إليها، و الثانيه انه زوج زينب بنت جحش - ذات الحسب و النسب الشريف - من رجل أقل نسباً، تأكيداً لقيمه التقوى، و نسفاً للقيم الجاهليه الماديه.

و رفعا للحرص فى مثل هذه الحوادث عن المسلمين، و لأنّ خرق العرف الاجتماعى سوف يسبب شيئاً من الإحراج للرسول، و ربما ألوانا من الضغط عليه من قبل الساذجين و المنافقين، فقد حذّره الله من الخضوع للناس على حساب الحق، مؤكداً بأن أهم صفات المبلغ للرساله هى الخشيه من الله وحده، و التوكل عليه.

بينات من الآيات:

(٣٦) المؤمن حقاً هو الذى يسلم لقضاء الله و رسوله تسليمًا مطلقاً فى جميع جوانب الحياه، ذلك أنّ كلمه الله، و الرسول، و القياده التى تمثل امتداداً صحيحاً له، يجب أن تكون هى الحاسمه فى المجتمع الاسلامى.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

و القرآن حينما يوجّه الخطاب بصيغته المذكور فإنه يشمل النصف الآخر للمجتمع بصوره طبيعیه، و لكنه هنا يخصّ النساء أيضا» و لا مؤمنه» لأنّ الكثير من الأحكام -و بالذات في باب القضاء- ترتبط بالنساء، و لا بد ان يخضعن كما الرجال لقضاء الله و الرسول خضوعا حقيقيا.

و الخضوع الحقيقي هو الذى تشير اليه الآيه الكريمة فلا- وَ رَبِّكَ لَا- يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (١) فحتى في المجال الفكرى و النفسى لا- يجوز للمؤمن أن يتضايق من قضاء الرسول، بل يجب أن يسلم له راضيا به دون أدنى شك أو تردد.

وَ مَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا و لعلّ أهم ما قضى به الله و الرسول ان اختار أهل البيت، و قضى بطاعتهم، إذ أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا، فلا يجوز للمؤمن الاعتراض على هذا القضاء أو الفسوق عمليا عنه، و هذا مما يعزز تفسير الآيه الكريمة (٣٣) في الدرس الماضى.

جاء في أصول الكافي عن عبد العزيز بن مسلم قال: كنّا مع الرضا عليه السلام بمرور فاجتمعنا في الجامع في بدو قدومنا، فأداروا أمر الإمامه، و ذكروا كثره اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدى عليه السلام فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسم عليه السلام ثم قال:

يا عبد العزيز! جهل القوم و خدعوا عن أديانهم، إنّ عزّ و جلّ لم يقبض نبيه صلى الله عليه و آله حتى أكمل له الدّين -الى قوله عليه السلام -: و لقد راموا صعبا، و قالوا إفكاً، و ضلّوا ضلالا بعيدا، و وقعوا في حيره إذ تركوا الإمام عن بصيره، و زين

ص: ٣٣٨

لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل، وكانوا مستبصرين، و رغبوا عن اختيار الله و اختيار رسوله صلى الله عليه و آله الى اختيارهم، و القرآن يناديهم: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَ قَالَ عَزَّ وَ جَلَّ: وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (١) (٣٧) و كمثال على قضاء الله فى الحقل الاجتماعى، يستعرض السياق بشىء من التفصيل قصه زيد ابن حارثه ابن شرحبيل، فهى من المسائل التى كان قضاء الله فيها مخالفا للعرف آنذاك، و زيد ابن شيخ لقبيله اسمه حارثه، أغارت عليها قبيله أخرى، فأخذ و بيع فى مكه، فاشتراه الرسول صلى الله عليه و آله و الذى كان يسعى حتى قبل بعثته لتصفيه آثار الجاهليه قدر ما يستطيع، و هكذا ينبغى للإنسان المؤمن السعى بما يستطيع و كيفما يقدر لازاله آثار الجاهليه فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَالرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى شَرَاءِ كُلِّ الْعَبِيدِ وَ عَتَقَهُمْ أَوْ تَرْبِيَتَهُمْ، و لكنه اشترى بعضهم.

و فى قصه طويله جاء والد زيد زائرا لمكه، و طلب من الرسول ان يشتري ولده، فجعل الرسول الخيار لزيد فى البقاء معه أو الرحيل مع والده-بعد أن أعتقه- فاختر البقاء مع المسلمين و فى كنف النبى صلى الله عليه و آله .

فعاش كأبرز صحابه الرسول، و قد أبلى فى الإسلام بلاء حسنا، و كذلك ابنه اسامه (رضى الله عنهما).

وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ

ص: ٣٣٩

إذ جعله يعيش تحت ظل رسول الله صلى الله عليه وآله .

وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ وَ كَانَ انعام الرسول يتمثل فى عتقه لزيد من العبوديه، و قد حدث ان أراد زيد طلاق زوجته زينب بنت جحش فنهزه الرسول و قال:

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ لَا تَطْلُقْهَا.

وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ اى ان الله كتب زينب زوجه لك، و مهما أخفيت ذلك فإنه سيظهره يوما من الأيام.

وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ هكذا يحكى الله عن رسوله، بالرغم من أن آيه لا حقه تصف المبلغ للرساله بأنه لا يخشى إلا الله، فكيف نوفق بين الآيتين؟ الجواب: إن الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن يخشى أحدا إلا الله، ولكنه كان يخشى الناس أن يكفروا برساله ربه لو تزوج بزینب، بسبب شكهم فى أن الرسول ضغط على زيد (ابنه بالتبني) ليطلق زوجته ثم يتزوجها بعده، و هكذا كانت سيره الأنبياء أنهم يكلمون الناس على قدر عقولهم،

و فى روايه «ما كلم رسول الله الناس بكنه عقله قط» و هذه الآيه تشبه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (١)

ص: ٣٤٠

فخشيته الرسول من تبليغ بعض بنود رساله لم تكن على نفسه، إنما على الناس ان يكفروا به و بها.

فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا أَي لَمَّا تَمَتَّعَ بِهَا زَيْدٌ فَتَرَهُ مِنَ الْوَقْتِ ثُمَّ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ. وَكَانَتْ زَيْنَبٌ تَفْتَخِرُ عَلَى سَائِرِ زَوَاجَاتِ الرَّسُولِ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي زَوَّجَهُ مِنْهَا وَبَنَصَ الْقُرْآنَ، أَمَّا الْهَدَفُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فَهُوَ كَسْرُ الْعَادَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَرَفْعُ الْحَرَجِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الزَّوْجِ مِنْ مَطْلُقاتِ أَبْنَائِهِمُ بِالْتَبْنِيِّ.

لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَ لِأَنَّ الْبَعْضَ رُبَّمَا يَتَصَوَّرُ بِأَنَّ هَذَا الْقَضَاءُ سَوْفَ يَفْشَلُ بِسَبَبِ تَعَارُضِهِ مَعَ الْعَرَفِ الْاجْتِمَاعِيِّ، أَكَّدَ رَبُّنَا بِأَنَّ أُمُورَ الْحَيَاةِ بِيَدِهِ وَ لَيْسَتْ بِيَدِ النَّاسِ، وَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِجْرَاءِ مَا يَرِيدُ.

وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا فَمَعَ ان بَعْضًا مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ خَوَّلَهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ، إِلَّا أَنَّ مَسِيرَتَهَا الْعَامَّةَ بِيَدِهِ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَ لِهَذَا

قال الامام على عليه السلام :

«عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، و حلّ العقود، و نقض الهمم» (1) (38) ثم يؤكد القرآن بان القيادة الرسالية ليست هي التي تنسى الدنيا من

ص: ٣٤١

أجل الآخرة، أو تنسى ضرورات الحياة، فالرسل -و هم قادة الناس- بشر فرض الله عليهم أن يعيشوا كسائر البشر حياة تجمع العقل و الحاجة، و لا يمكن لأحد أن يتجاوز هذا الفرض لكونه قائدا، ثم يدعى بأن ذلك من ضرورات الرسالة، لأن:

«من لا- معاش له لا معاد له» و أئمة المتقين هم الذين يطلبون من الله أن يهبهم أفضل الأزواج و البنين، في الوقت الذين يطلبون أن يجعلهم أئمة للمتقين ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرّة أعين و اجعلنا للمتقين إماما (١) و هذا هو السلوك المتكامل للقيادة، و الذي يجعلها أسوة للآخرين، و هو سلوك القادة الرساليين من الأنبياء، و الأوصياء، و الأولياء عبر التاريخ، و هو دليل على نوع الرسالة التي يدعون الناس إليها.

إنّ الحياة الفاضله هي التي تدعو إليها الآية الكريمة: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٢) و لا يمكن للقائد أن يتضحّم فيه جانب على حساب الجانب الآخر، لأنّ الناس آتذ لن يتبعوا هذه القيادة، لأنّ التمتع بالدنيا كما التطلع للآخرة قضيه يقرّها العقل البشري.

إذن لا داعى للحرص، و ذلك لأسباب هي:

أولا: إنّ زواجه من زينب واجب مفروض عليه من قبل الله، كما أنّه من نفع الرسول لذلك جاء التعبير ب«له» و ليس عليه.

ص: ٣٤٢

١- (٥) الفرقان/ (٧٤).

٢- (٦) القصص/ (٧٧).

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ تَانِيًا: إِنَّ التَّمَتُّعَ بِالدُّنْيَا إِلَى جَانِبِ السَّعْيِ لِآخِرِهِ لَيْسَ جَدِيدًا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْقِيَادَاتِ الرَّسَالِيَّةِ، إِنَّمَا هُوَ سَنَةٌ جَرَتْ بِهَا الْحَيَاةُ.

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ثَالِثًا: لَا بَدَّ أَنْ نَعْتَقِدَ -نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ- بِأَنَّ أَوْامِرَ اللَّهِ حَكِيمَةً وَدَقِيقَةً، وَهَذَا يَبْعَثُنَا نَحْوَ التَّسْلِيمِ لِقَضَائِهِ، وَهَكَذَا كَانَ وَاجِبًا عَلَى الرَّسُولِ الْخُضُوعَ لِفَرَضِ اللَّهِ عَلَيْهِ. وَنَهَايَاتِ الْآيَاتِ الَّتِي هِيَ مَفَاتِيحٌ لِمَعْرِفَةِ إِطَارِهَا الْعَامِّ، تَهْدِينَا إِلَى حُكْمِهِ اللَّهُ وَانَّهُ جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ وَحِسَابٍ، وَلَوْ أَنَّ الرَّسُولَ تَرَكَ مَتَاعَ الدُّنْيَا الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ لَهُ، بِاعْتِقَادِ أَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الْأَهْمُ، لَخَرَجَتْ حَيَاتُهُ مِنَ التَّوْازَنِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِأَوْامِرِ اللَّهِ، فَالَّذِينَ لَيْسَ شَيْئًا يَصْنَعُهُ الْإِنْسَانُ بِفِكْرِهِ الْبَسِيطِ، إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَتَّبِعَهُ كَمَا هُوَ،

و فِي الْحَدِيثِ:

«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخْصِهِ (المباحات) كما يحبُّ أن يُؤْخَذَ بِعِزَائِمِهِ (الواجبات)» (١)

و حينما أقسم عثمان بن مظعون أن يصوم الدهر نهره الرسول، وقال له:

«و لكن صم يوما و أفطر يوما» وَ كَمَا أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا (٣٩) ثُمَّ إِنَّ صَاحِبَ الرَّسَالَةِ وَ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَبْلَغًا لَهَا بَيْنَ النَّاسِ، يَجِبُ أَنْ يَضَعُ فِي حِسَابِهِ مَعَارِضَهُ النَّاسِ لَهُ وَ لِرِسَالَتِهِ، وَ بِالتَّالِيِ عَلَيْهِ أَنْ يَتَجَاوَزَهُمْ وَ لَا

ص: ٣٤٣

يخشاهم، فيدع ما فرض الله له، أو يترك واجبا من واجباته خوفا منهم، كما يجب عليه أن يتوقع الضغط عليه من قبل الآخرين، و من ثم يستعد لمواجهة هذه الضغوط التي أهونها الدعايات السيئه و العزله من قبل المجتمع أو السجن و التعذيب أو التهجير من قبل السلطات الفاسده، لأن الاستقامه أمام ذلك سوف تنتهى به فى الدنيا الى أهدافه و هى الهدايه و التغيير، و فى الآخره إلى روضات الجنّات.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ أَمَا مِنْ أَيْنَ يَسْتَمِدُّ الْإِنْسَانَ الرِّسَالَى رُوحَ الْإِسْتِقَامَةِ؟ إِنَّمَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ الَّتِي يَقَاوِمُ بِهَا إِرْهَابَ النَّاسِ وَضُغُوطَهُمْ، وَ أَيْضًا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ الَّتِي يُجْبِرُ بِهِ ضَعْفَهُ، وَ أَهْمَ مَعَانَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ - الَّتِي هِيَ مِنْ جَوَانِبِ الْعِظَمَةِ فِي الْإِنْسَانِ الرِّسَالَى - الْعَمَلُ لِلَّهِ وَ تَحْمِيلُ كُلِّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِهِ، ثُمَّ احْتِسَابُهُ عِنْدَهُ، فَهَذَا يَزِيدُهُ اسْتِقَامَةً وَ مَضِيًّا عَلَى طَرِيقِ الرِّسَالَةِ،

و الإمام الحسين عليه السلام حينما ذبح سهم حرمله ولده على الأصغر تقوى على المصاب عند ما اعتبره طريقه لرضى الله قال:
«هون على ما نزل بي انه بعين الله» وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِبِيًّا فَالْمُؤْمِنُ الْحَقِيقِيُّ لَا يَبْحَثُ عَنْ مَصَالِحِهِ وَ لَذَاتِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، بَلْ يَبْحَثُ عَنْ طَرِيقِ تَحْقِيقِهَا حَتَّى لَوْ كَلَّفَهُ ذَلِكَ الْكَثِيرُ، بَلَى. مُسْتَعِدٌّ لِتَبْلِيغِهَا، وَ لَوْ خَسِرَ سَمْعَتَهُ وَ مَكَانَتَهُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَ السِّيَاسِيَّةَ وَ غَيْرَهَا.

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا
اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
(٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَ
دَعَاؤُهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

هدى من الآيات:

ينقسم السياق في هذا الدرس إلى شطرين، يدعونا شطره الأول إلى ذكر الله و تسيحه و بالتالى الى المزيد من المعرفة بربنا عز و جل، و يبين لنا شطره الثانى عبر كلمات بسيطة في ظاهرها، و عظيمه و مركزه في معناها جانبا من صفات الرسول القائد، لو تدبرنا فيها لانفتحت لنا أبواب المعرفة بشخصيته العظيمة، و ما أحوجا نحن المسلمين الى هذه المعرفة.

وَالْعَلاَقَةُ بَيْنَ الْمَوْضُوعَيْنِ تَبِينُهَا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا فَمَعْرِفَةُ الرَّسُولِ، وَ الْاِقْتِدَاءُ بِهِ لَا- يُمْكِنُ إِلَّا- لِلْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ وَ الْعَارِفِ بِاللَّهِ، لِأَنَّ الرَّسُولَ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَ كَلِمَا اَزْدَادِ الْإِنْسَانَ مَعْرِفَةُ رَبِّهِ اَزْدَادِ مَعْرِفَةَ بَنِيهِ،

و فى الدعاء «اللهم عرفنى نفسك فانك ان لم تعرفنى نفسك لم أعرف نبيك، اللهم عرفنى نبيك فانك ان لم

تعرفنى نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفنى حجتك فانك إن لم تعرفنى حجتك ضللت عن دينى. « اذن معرفه الله مفتاح لكل المعارف الأخرى، و لعله لذلك

جاء فى الحديث «أول الدين معرفته» (1) و لادن هذا الدرس يعرفنا بصفات الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله كان لا بد أن يذكرنا بالله أولاً، لذلك وجدنا أول السياق دعوه إلى ذكر الله و تسبيحه، بينما يخوض نهايته حديثاً عن صفات النبى، و قد نعتة القرآن بأنه شاهد، فما هو الشاهد؟ كما يتحرك لسان الميزان ليحدد الوزن فان الشاهد هو ميزان المجتمع، و الرسول برسالته و بحياته مقياس يتعرف به الإنسان على ما إذا كان هو على الحق أو على الباطل.

و لكن الرسول ليس شاهداً بسلوكه و حسب، انما ييشر من يعمل الخير بالجزاء الحسن، كما يحذر الذى يعمل السيئات من عاقبه السوء، كما انه يدعو الناس إلى ربهم و ما يقربهم إليه، و أكثر من ذلك يوضح لهم الطريق، و يبرمج لهم الحياه فهو شاهد، و مبشر، و نذير، و داع إلى الله، و سراج منير.

و الذى يجمع هذه الصفات كلها هى استقامه الرسول، و الاستقامه هى عدم الخضوع لأى ضغط أو شهوه، الأمر الذى يصعب على الإنسان بما فيه من جهل و غرائز و شهوات إحرازه لو لا تنزيه الله و عصمته، و لهذا نقرأ فى نهايه الدرس خطاب الله لرسوله: « وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَنَفِّينَ ».

ص: ٣٤٧

(٤٠) من طبيعة الرساله الالهيه انها لا تفرق بين إنسان و آخر إلا بمقياس التقوى، و رسول الله يجسد هذه الرساله، فهو لا يجعل بينه و بين الآخرين علاقه أرفع من الرساله، و مع أن للرسول أولادا هم (قاسم-طيب-طاهر-إبراهيم) إلا أن الله ينفي أبوته لاي رجل منهم، لماذا؟ هل لأنهم (كما ذكر البعض) ماتوا قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، و لم يكن الحسن و الحسين (عليهما السلام) حين نزول الآيه وبالغين أيضا، فلم ينف الذكر سوى أبوته لزيد الذي دعى لوقت أنه ابن محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) أم لما هو أشمل من هذا و هو نفي العلاقه الماديه بين الرسول و بين أمته كالتى زعمها اليهود فى علاقتهم بموسى، و حسبوا أنها وحدها كافيه لشرفهم و كرامتهم عند ربهم، بل و نجاتهم من جزاء أعمالهم المنكره، فجاءت الآيه تحصينا للأمه الاسلاميه من تسرب هذه الفكره الشيطانيه إلى صفوفهم.

و يبدو ان الاجابه الأولى ظاهر الآيه و تفسيرها، و الثانيه باطنها و تأويلها، و كلاهما صحيح، بلى.

ان الرسول سمي نفسه أبا لهذه الأمه حين قال: «أنا و على أبوا هذه الأمه» (١) و لكن الواضح ان مراده ليس الأبوه الماديه بل المعنويه التى تفوق تلك بدرجات، و لذلك كان الشطر الثانى من الآيه هذه يكرس العلاقه المعنويه بين الرسول و أمته.

و هذا يعنى أنّ الصفه الأساسيه للرسول ليست أبوته انما رسالته، فلا يمكن لأحد أن يدعى بنوّته للرسول و بالتالى تميزه عن الناس بها، انما يتميز الإنسان بخضوعه للنبي و اتباعه لرسالته.

و إذ ننسب فاطمه و أبناءها (عليهم السلام) بأنهم أبناء الرسول و أهل بيته فليس

ص: ٣٤٨

ذلك فقط لقرابتهم الاجتماعيه منه،انما لتجسيدهم قيمه و رسالته فى الحياه مما جعلهم أبناءه قلبا و قالبا،روحيا و جسديا.

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَ هَذَا نَفَىٰ لِلْعَلَاقَةِ الْمَادِيَةِ الْمَجْرُودَةِ،بَيْنَمَا الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ الْآيَةِ إِثْبَاتٌ لِلرَّسَالَةِ وَالْعَلَاقَاتِ الْمُنْبَثِقَةِ مِنْهَا.

وَ لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ

و فى تفسير الرسول لهذه الآيه:قال جابر بن عبد الله الانصارى،قال النبى صلى الله عليه و آله:«انما مثلى فى الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها و حسنها إلا موضع لبنه،فكان من دخلها فنظر إليها قال:ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة!! قال صلى الله عليه و آله:فأنا موضع اللبنة،ختم بى الأنبياء». (1) و هذا يعنى ان الكيان الرسالى غير مكتمل من دون الرسول.

و فى نهايه الآيه الكريمه يؤكد الله على احاطته علما بالأشياء،فما هو معنى ذلك،و ما علاقته بما قبله؟ حينما نراجع آيات القرآن حول الطبيعه نجدها تحدثنا عن النمو و التكامل، فالسماوات و الأرض و عموم الطبيعه انما وصلت لهذه الصوره من الكمال عبر مراحل،قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (2) و هذه الآيه تكشف لنا طبيعه النمو البشرى،و ان البشرىه منذ خلق الله آدم عليه السلام،إلى أن بعث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانت فى مسار تكاملى،و ان

ص: ٣٤٩

١-٣) نور الثقلين/ج ٤/ص ٢٨٥

٢-٤) السجده ٤/

الرسالات كانت تنسخ بعضها بعضاً، وتهيمن على التي قبلها لأسباب من أهمها التكامل، حتى جاءت الرسالة المحمدية خاتمه لكل الرسالات، لأنها في آخر المراحل - وهذا من معاني الإحاطة - فلم يكن بدعاً، ولا خلافاً للحكمه أن يبعث الله رسوله الأكمل في آخر مرحله.

وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا و لعل خاتمه الآيه تشير أيضا إلى أن الله ضمّن رسالته الخاتمه كل ما احتاجته و محتاجه حياه البشريه حتى قيام الساعه، و ذلك لإحاطته علما بكل ما قد يقع، و كيف يقع، و ما هي حاجه الناس عند ما تتطور حياتهم. أو ليست البشريه تتطور في اطار سنن الله التي لا تتبدل و لا تتغير، أو ليس الله عليما بتلك السنن التي أجراها؟! بلى. و لذلك جعل رسالته الخاتمه مهيمنه على تلك السنن.

(٤١) و حتى يعرفنا الله بهذا الرسول العظيم يعرفنا بنفسه أولا، و ذلك حين يدعونا لذكره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا لَان أَجَلَ الْإِنْسَانِ مُسْتَوْر عَنْهُ، و لا يعلم أى خاطره أو كلمه أو حركه تكون هي خاتمه حياته، فلعل خاطره الانحراف، أو كلمه الخبث، أو حركه السوء تكون نهايه المطاف، فتهوى به سبعين خريفا في النار - كما يقول الرسول صلى الله عليه و آله - و هكذا يجب عليه أن يستقيم على الحق بقلبه و لسانه و جوارحه و ذلك بذكر الله، الذى يعنى اتصال قلب الإنسان بربه عز و جل،

قال الامام الصادق عليه السلام: «ما ابتلى المؤمن بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها، قيل و ما هي؟ قال: المواساه في ذات يده، و الإنصاف من نفسه، و ذكر الله كثيرا، أما انى لا أقول: سبحان الله

و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر، و لكن ذكر الله عند ما أحل له، و ذكر الله عند ما حرم عليه» (١) و ما يدري البشر ان فكره شيطانيه واحده تسبب دماره. أو ليس إبليس بدأ الكفر بفكره جالت في خاطره حينما قال: لو انصفتني الله لكنت أنا شيخ الملائكه و سيدهم، فأخرج الله كبره عند ما امتحنه بالسجود لآدم عليه السلام!؟

و في خطبه للإمام على عليه السلام في المبادره إلى صالح الأعمال أكد على هذه الفكره إذ قال: «فاتقوا الله عباد الله، و بادروا آجالكم بأعمالكم، و ابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، و ترحلوا فقد جدّ بكم، و استعدوا للموت فقد أظلكم، و كونوا قوما صيح بهم فانتبهوا، و علموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فان الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، و لم يترككم سدى، و ما بين أحدكم و بين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به» (٢) (٤٢) ثم تؤكد الآيات على ضروره استمرار الصله بين العبد و ربه.

وَ سَيَبْجُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً ففى كل يوم ينبغي للإنسان أن يفتتح حركته و انطلاقته بذكر ربه، و يختتمها بذلك أيضاً، و لعل في الآية تأكيد على صلاه الصبح و فرضى المغرب و العشاء، و ان أبرز أهدافها ربط الإنسان في أول اليوم و آخره بخالقه عبر التسبيح.

و إذا كان ظاهر التسبيح هو قول: «سبحان الله» فان باطنه و محتواه هو ما تهدف إليه هذه الكلمات من رفع الإنسان عن حضيض الشرك إلى سماء التوحيد

ص: ٣٥١

١- (٥) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٢٨٧

٢- (٦) نهج البلاغه / خ / ص ٦٤ / ص ٩٥

و القيم،فليس صادقاً في تسيحه من يلفظ هذه الكلمات و لكنه يقدم شهواته على القيم،أو يطيع الآخرين بمعصيه الله،أو يحاول الخلط بين الحق و الباطل،ضغثاً من هذا و ضغثاً من ذاك.

(٤٣) و لا- شك ان ذكر الله و تسيحه سوف يستتبع جزاء من عند الله فَادْكُرُونِي اذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونِ (١) و هذا الجزاء يتمثل في أعظم صورته في الهدايه الإلهيه للإنسان من الظلمات إلى النور،مما يؤكد بأن الهدف من الذكر هو الهدايه،و أنها-أى الهدايه-تحصل من مجموع أمرين هما:سعى الإنسان(ذكره و تسيحه)و صله الله له بالتوفيق و الرحمه.

هُوَ الَّذِي يُصَيِّرُ لِي عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتَهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا وَ الظلمات هي الجهل و العجز و سائر الصفات السلبيه،بينما النور ما يخالفها، و هذا من رحمه الله بالمؤمنين.

ما هي صلاه الرب؟

ما هي الصلاه؟ قال علماء اللغه:ان لها معنيين:أحدهما النار و ما أشبهها من الحمى،و الآخر جنس من العباده. (٢)

و لكن يبدو ان هناك علاقته بين الصلاه و الصله في الاشتقاق الكبير،فيكون الاصطلاء بالنار هو الاقتراب منها أو الاتصال بها،و منها قولهم:حليت العود

ص:٣٥٢

١-٧ البقره ١٥٢/

٢-٨ ابن فارس:معجم مقاييس اللغه/ ج /٣ ص ٣٠٠

بالنار، وهكذا يشترك المعنيان، لأن معنى الصلاة يكون التعطف و هو نوع من الصلّه بين العبد و ربه.

و جاء فى تفسير البصائر:

الخامس: قيل: أريد بالصلاه هنا العنايه بحال المؤمنين، و ذلك لأن الصلاه فى الأصل: التعطف، لأن المصلى يتعطف فى ركوعه و سجوده، فاستعير لمن يتعطف على غيره حتّوا و ترؤفاً.

و لذلك قيل: إن الصلاه من الله تعالى الرحمه، و من الملائكه الاستغفار، و من الناس الدعاء.

ثم أضاف قائلاً: و على الخامس (و هو ما ذكرنا آنفاً) جمهور المفسرين و هو المروى. (١)

و جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال: «الصلاه من الله عز و جل رحمه، و من الملائكه تزكيه، و من الناس دعاء» (٢) و هكذا نستوحى من كلّ ذلك ان لكلمه «الصلاه» معنى واحدا هو التروّف، و التعطف، و المزيد من العنايه، و التوجه.

و هذا المعنى مشترك بين العبد و ربه، فالله سبحانه يتعطف على المؤمنين بالمزيد من الرحمه، و على العباد أن يتعطفوا على رسولهم بطلب التعطف من الله له (و هو الدعاء) أما الملائكه فهم من جهه يستغفرون ربهم للمؤمنين، و من جهه ثانيه يقومون

ص: ٣٥٣

١- ٩) تفسير البصائر/ ج ٣٢/ ص ٢٢٨

٢- ١٠) نور الثقلين/ ج ٤/ ص ٣٠٣

بدور مباشر في نشر رحمه الله لهم.

و هكذا نجد ان خاتمه الآيه تدل على معنى الصلاه من الله على المؤمنين.

لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ من شحّ الذات، و الجهل، و العجز، و السلبيه، و الحقد، و البغضاء إلى رحاب الحق، و المعرفه، و الإراده، و الأمل، و المحبّه، و السلام.

وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٤) هذا عن رحمه الله بالمؤمنين في الدنيا، أما في الآخره فان أبرز تجليات رحمه الله بهم تكون في أمرين:

الأول: السلامه، تحييه من الله لهم، وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (١). و قال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عِيُونٍ اذْخُلُوها بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٢) و هذه التحيه بالاضافه إلى معناها الظاهر و هو قول: (السلام عليكم) فانها تعنى السلامه الجسديه من النقص العضوى و الصحى، و السلامه الروحيه من الرذيله و الصفات السلبيه، و السلامه الاجتماعيه، و الاقتصاديه و هكذا، و بالتالى الكمال فى سائر جوانب الحياه، ذلك ان التحيه هى طلب الحياه، و يتبادل المؤمنون التحيه بالسلام، اشاره إلى طهاره القلوب و صفائها.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ الثانى: الجزاء الكريم.

ص: ٣٥٤

١- (١١) الرعد ٢٣-٢٤

٢- (١٢) الحجر ٤٥-٤٦

وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا لماذا يقول الله: وَ أَعَدَّ لَهُمْ؟ لعل حكمه ذلك تكمن فى أن الإعداد يدل على التدرج،مرحله بعد مرحله، و شيئاً بعد شىء،مما يوحي على أن هذا الأجر نتيجه لأعمال المؤمنين الصالحه التى هى الأخرى صارت بالتدريج،فكلما عمل الإنسان خيرا أضاف إلى رصيده وزنا بقدره و نوعيته،و يصف الرب الأجر بأنه كريم و الكريم يعنى أمرين:

الأول/ان الأجر جزيل جداً،لأن المعطى كريم،و من صفات الكريم انه يعطى الأجر أكثر مما هو مستحق،فكيف إذا كان المعطى هو الله و هو أكرم الأكرمين؟ الثانى/ان هذا الأجر يكون خالصا من الإذلال الذى يمس بكرامه الإنسان.

(٤٥)ثم يؤكد القرآن للرسول دوره فى الحياه،و ما دام القرآن و فى هذه السوره بالذات أكد كون الرسول أسوه حسنه للمؤمنين فإننا نستوحى من هذه الآيه دور المؤمنين أيضا.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا و الشاهد:هو الدليل عليه،فشاهد القول:الدليل عليه،و شاهد القضاء:هو الدليل على الحادثه،و حينما يسمى القرآن الرسول شاهدا فذلك يعنى أنه صلى الله عليه و آله دليل و ميزان بسلوكه الحسن،يهدى الإنسان إلى معرفه نفسه و موقعه من الحق.

وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا

ص:٣٥٥

مبشراً للمؤمنين بالجنة، و منذراً للعاصين بالنار.

(٤٦) و لكن الرسول لا يكتفى بذلك و حسب، انما يسعى و بشتى الوسائل الشرعيه الممكنه لدعوتهم للحق.

وَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْمِيَ نَفْسَهُ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ إِلَّا إِذَا أَكْمَلَ نَفْسَهُ، وَ صَبَّرَهَا مِنْ حِزْبِ اللَّهِ، ثُمَّ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ إِذْنَا مَبَاشِرًا عَبْرَ الْوَحْيِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْصِيَاءِ، أَوْ غَيْرِ مَبَاشِرٍ مِنْ خِلَالِ الْقِيَمِ الْإِلَهِيَّةِ، فَرُبَّمَا يَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى اللَّهِ، وَ لَكِنَّهُ فِي الْوَاقِعِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الشَّيْطَانِ.

و عن رسول الله صلى الله عليه و آله لما سئل عن سبب بعض تسمياته قال: «أما الداعي فاني ادعو الناس إلى دين ربي عز و جل، و أما النذير فاني أنذر بالناس من عصاني، و أما البشير فاني أبشر بالجنة من أطاعني» (١) و الرسول كما الشمس في المنظومه، يمثل مركز الإشعاع المعنوي عبر الأجيال. أو ليس ينبعث منه نور الوحي إلى الحياه؟! وَ سِرَاجًا مُنِيرًا كَمَا يَنْبَعثُ إِلَى كُلِّ أَفْقٍ، كَذَلِكَ تَشْمَلُ مَعَارِفَ الْقُرْآنِ، وَ أَحْكَامَ الشَّرْعِ، وَ تَعَالِيمَ الرَّسُولِ كُلِّ نَوَاحِي الْحَيَاةِ، وَ مِنْ هُنَا نَسْتَوْحِي مِنْ كَلِمَتِي سِرَاجًا مُنِيرًا الْمَنَاهِجَ الْمَفْصَلَةَ فِي رِسَالَةِ النَّبِيِّ وَ سِيرَتِهِ.

فالرسول ليس يدعو إلى الله، و يبشر و ينذر فحسب، انما يضع أمامنا المناهج

ص: ٣٥٦

التفصيليه التي تقربنا إلى الله، و تنتهي بنا إلى الجنه، و تبعنا عن النار.

و السؤال: لماذا لم يكتب السياق بكلمه سراج، بل قال: **سراجاً مُنيراً** ؟ انما قال ذلك ليؤكد صفه الإشعاع المستمر في شخصيه الرسول، فقد يكون السراج متقدماً، و قد ينطفئ، بينما النبي يبقى منيراً يضيء أبداً حتى بعد وفاته، لأن إشعاعه إنما هو برسالته و سيرته و هما باقيتان عبر الدهور.

(٤٧) و تجاه هذه الرساله التي يحملها الرسول و من يتبعه إلى الناس هناك موقفان:

الأول: الايمان و التسليم و الذي ينتهي بأصحابه إلى الفلاح في الدنيا و الآخرة، و لا بدّ للرسالي أن يبشر من حوله بهذه النتيجة.

و **بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً** (٤٨) الثاني: العصيان بالكفر و النفاق، و تجاه هؤلاء يجب على الرسول الاستقامه أمام ضغوطهم، بل يجب عليه أن لا يغضب عليهم، أو يحمل في نفسه الحقد ضدّهم، ذلك أنه ينبغي للرسالي أن يكون قلبه قطعاً من الرحمه و النور حتى مع أعدائه.

و هذا نبي الرحمه صلى الله عليه و آله و قد طرده الكفار و المشركون من بكة، و بعدها من الطائف يقف و قد أدمت الأحجار قدميه، فيجول ببصره إلى السماء ثم يقول:

«اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» ثم لما عاد إلى مكه منتصراً لم يفكر في الانتقام، بل قال كلمته المشهوره: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» و هذه هي الاستقامه الحقيقيه، أن يستقيم الإنسان حتى في عاطفته.

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَافِقِينَ وَ دَعِ أَذَاهُمْ أَمَا مِنْ أَيْنِ يَسْتَمِدُّ الرِّسَالِي رُوحَ الْاِسْتِقَامَةِ؟ فَذَلِكَ مِنْ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ، أَمَا لَوْ اعْتَمَدَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عَلَى الْآخِرِينَ فَانْه لَنْ يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ.

و مِنْ الْمَلَا حِظِّ: اِنْ الْقُرْآنُ يَأْمُرُ بِالتَّوَكُّلِ عِنْدَ مَا يَأْمُرُ بِالسَّلَامِ مَعَ الْأَعْدَاءِ، أَوْ الصَّبْرِ عَلَيْهِمْ، أَوْ تَرْكِ أَذَاهُمْ، أَوْ مَا أَشْبَهَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ اِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .

و لعل السبب هو ان المبادره بالاعتداء على الآخرين تأتي-عاده-من الخوف منهم، و من يتوكل على الله لا يخاف، و لذلك لا يعتدى على أحد، بل لا ينتقم منهم حتى لا يشكلوا خطرا حقيقيا عليه.

وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَ كَيْلًا ۖ وَ عِنْدَ مَا يَدْعُو الْقُرْآنُ الرَّسُولَ إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ لَا يَكْتَفَى بِالْقَوْلِ: « وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: « وَ كَفَى بِاللَّهِ وَ كَيْلًا ۖ » وَ ذَلِكَ حَتَّى لَا نَعْتَقِدَ بِامْكَانِيهِ الْخَلْطُ فِي التَّوَكُّلِ بَيْنَ اللَّهِ وَ الْآخِرِينَ، ففِي الْوَقْتِ الَّذِي نَرْفَعُ فِيهِ شِعَارَ الْاِسْلَامِ نَعْتَمِدُ عَلَى الْغَرْبِ أَوْ الشَّرْقِ، كَلَّا.. ففِي اللَّهِ الْكُفَايَةُ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَّحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَنَّهُنَّ وَلَا يُحْرَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)

٥٠] أفاء الله عليك]: أعطاك من الغنيمه و الأنفال.

٥١]ترجى]:الإرجاء هو التأخير و المراد منه تبعد عن نفسك من تشاء من أزواجك.

[و تؤوى]:الإيواء ضم القادر غيره،و المراد منه بأن تقربها إلى نفسك.

٥٣]غير ناظرين إناه]:أنى الطعام يأنى إذا بلغ درجه النضج أى غير منتظرين نضجه و طبخه.

ص:٣٦٠

هدى من الآيات:

تتناول آيات هذا الدرس الحديث عن العلاقة الزوجية عند الرسول صلى الله عليه وآله وبعض محدداتها، وقبل الدخول في تفاصيل الآيات هناك ملاحظتان:

الأولى: إن وجود آيات في القرآن الحكيم تنهى الرسول عن بعض الأمور دون الآخرين، أو تفرض عليه واجبات من دونهم، أو تزجره على بعض أفعاله، و تكشف بعض ما أخفاه، كما في زواجه بزینب بنت جحش، كل ذلك يدل على ان القرآن ليس من عند الرسول نفسه، وإنما هو وحى من الله له، فلحن القرآن، يهدينا إلى أن المتكلم غيره، إذ لو كان هو المتحدث لما تكلم على نفسه بزجر أو نهى.

الثانية: توجد في القرآن كما في الأحاديث بعض الأحكام الخاصة بالرسول ذاته، كوجوب صلاة الليل عليه، و جواز زواجه بأكثر من أربع، و بمن تهب نفسها له، و خصائص أخرى رفعها بعض العلماء الى أكثر من سبعة عشر خصيصه، و مع

ان هذه الأمور لا تنسحب إلى غير الرسول صلى الله عليه و آله حتى إذا كان من القيادات الاسلاميه،الا ان ذلك يدل على أن بعض الأمور تخص القائد بصورة مجمله، و ينبغى للجميع معرفتها و مراعاتها،و من أهم هذه الأمور هو الوقت الهام عند القيادة.

فبالرغم من أن جميع الأفراد يعتقدون بضروره القرب من القيادة باعتبارها نقطه الحزم،و قطب الرحا الاجتماعيه،ألا انهم يجب أن يعرفوا بأن للآخرين من أبناء المجتمع و الأقرباء كما القائد نفسه حقا فى وقته،فيجب أن لا يطيّلوا الجلوس عنده بعنوان الاستفاده من علمه و تجاربه الا بمقدار الحاجه و الضروره،و ذلك ليتسنى له التفرغ لسائر الأعمال التى تعود على الجميع بالنفع و الفائده.

و تنبع أهميه هذا الأمر من أن القائد الذى يصرف أوقاته فى قضايا لا طائل منها سوف لن يجد وقتا يصرفه فى الأمور القياديه الهامه،كالمطالع،و التفكير،و المبادره، و وضع الخطط،مما يضعف قيادته(قراراته و خططه)الأمر الذى يعود على الجميع بالضرر،و من هذا المنطلق نهى الله المؤمنين ان يدخلوا على الرسول الا- بإذن مسبق، ثم إذا جلسوا اليه فواجبهم ان لا- يطيّلوا استئناسا للحديث معه،أو انتظارا للطعام، و مع ذلك لا بد من التأكيد على أهميه الجانب الجماهيرى فى القيادة،و انه من الخطأ ان تنفصل عن الناس.

بينات من الآيات:

(٤٩) إذا عقد المؤمن على امرأه، ثم طلقها من قبل ان يمسه،فلا تجب عليها العده،بل يجوز لها ان تتزوج بعد الطلاق مباشره،و إذا كان فرض لها مهرا محددًا و جب عليه دفع النصف لها،و عند كون المهر محدد،فان لها عليه ان يمتعها بان يدفع لها شيئًا من المتاع ذهبًا أو مالا أو لباسًا مما يجبر كسر شأنها عند قريناتها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَنْعُوهُنَّ وَسَّرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا مِنْ دُونِ نِزَاعٍ أَوْ جَدَلٍ، أَوْ تَهْمَةٍ يَلْقِيهَا كُلُّ طَرَفٍ عَلَى الْآخَرِ، تَبْرِيرًا لِلْفِرْقَةِ، أَوْ تَشْفِيًا مِنْ صَاحِبِهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَنْبَغِي أَنْ يَنْسَحَبَ عَلَى جَمِيعِ الْعُقُودِ وَالْمَعَامَلَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَةِ وَالْمَالِيَةِ وَغَيْرِهِمَا.

(٥٠) ثم ينتقل السياق لبيان بعض احكام الزواج بالنسبه للرسول صلى الله عليه و آله فالزواج من الشؤون البشريه التى ينبغى للأنبياء الاهتمام بها، باعتبارهم الأسوه للناس فى سائر الجوانب حتى الاجتماعيه منها، فليس من الصحيح ان يجد الرسول غضاضه و لا- حرجا فى الزواج لكونه نبيا أو قائدا، و هذا ما أكدته الآية الكريمة: مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ وَ الزَّوْجِ الَّذِي يَحِلُّ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ عَلَى أَنْوَاعٍ ثَلَاثٍ:

الأول: ما يلتقى فيه مع الناس من جهه، و يختلف معهم من جهه أخرى، و هو الزواج العام فتحل المرأه للرسول كما لسائر المؤمنين بعد العقد و المهر، بينما يختلف الرسول عن غيره فى جواز زواجه باى عدد شاء من دونهم، إذ لا يحل لهم الزواج الدائم بأكثر من اربع نساء.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ

و عن أبى عبد الله عليه السلام عن حماده الحلبي: سألته عن قول الله عز و جل: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ قُلْتَ: كم أحل له من النساء؟ قال: «ما شاء من شىء». (١)

ص: ٣٦٤

الثانى: ما يتفق فيه مع سائر المؤمنين، وهو الزواج من الإماء والأقرباء.

وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالْأَمْه: هى المرأة التى يملكها الرجل بالأسر أو الشراء، ولا يكتفى الله بالتعبير وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ انما يضيف مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ و ذلك ليقول للرسول و لنا أيضا: بان الزواج لا يتم من غير ثمن، فهو ان لم يكن بالأجر (المهر) فبالأسر، و كلاهما فيه تعب و صعوبه.

و مما يجوز للرسول الزواج منهن القربيات اللاتى تربطه بهن العلاقه العائليه.

وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجِرْنَ مَعَكَ أما التى لا تهاجر مع الرسول صلى الله عليه و آله، و تبقى فى مكه فلم يكن جائزا له الزواج منها.

الثالث: ما ينفرد به النبى عن سائر المؤمنين و هى المرأة التى تهب نفسها له، فانه يجوز له الزواج بها من دون أجر.

وَ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ و فى تضاعيف الكلام يلاحظ انسجام التعابير مع تخصيص المورد للرسول وحده، فقد تكررت كلمه «النبى» مرتين فى موقع يمكن الاستغناء عن الثانيه لو لا هذا الأمر، ثم أكد ربنا: خَالِصَةً لَكَ تحديدا للخطاب بأنه يعنى الرسول صلى الله عليه و آله وحده، و لم يكتف بذلك انما صرح بانفراده بها، إذ قال مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

قال الحلبي: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المرأة تهب نفسها للرجل ينكحها من غير مهر؟ فقال:

«انما كان هذا للنبي صلى الله عليه وآله فاما لغيره فلا يصلح هذا حتى يعوضها شيئا يقدم إليها قبل ان يدخل بها، قل أو أكثر، و لو ثوب أو درهم و قال: يجزى الدرهم» (١)

و عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«جاءت امرأة من الأنصار الى رسول الله صلى الله عليه وآله فدخلت عليه و هو فى منزل حفصه، و المرأة متلبسه متمشطه، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله! ان المرأة لا- تخطب الزوج و انا امرأة أيم (٢) لا زوج لى منذ دهر، و لا ولد، فهل لك من حاجه، فان تك فقد وهبت نفسى لك ان قبلتنى، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله خيرا و دعا لها، ثم قال: يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيرا، فقد نصرنى رجالكم، و رغبت فى نساؤكم، فقالت لها حفصه: ما أقل حياؤك و اجرأك و انهمك للرجال! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: كفى عنها يا حفصه فانها خير منك، رغبت فى رسول الله فلمتيها و عبتيها، ثم قال للمرأة: انصرفى رحمك الله.

فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك فى، و تعرضك لمحبتى و سرورى، و سيأتيك أمرى ان شاء الله، فانزل الله عز و جل: وَ امْرَأَةٌ مُّؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قال: فأحل الله عز و جل هبه المرأة نفسها لرسول الله و لا يحل ذلك لغيره» (٣)

ص: ٣٦٦

١-٢) المصدر/ص(٢٩١).

٢-٣) الأيم: التى لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا.

٣-٤) المصدر/ص(٢٩٢).

و تأكيد رابع يضيفه القرآن بان هذا الحكم يخص الرسول وحده حين يقول: بان للمؤمنين احكاما خاصه تختلف عن احكام النبي في الزواج.

قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ مِنْ وَجوب المهر، فلا يمكن لأحد غير النبي ان يتزوج امرأه من دون مهر أبدا، و السبب أن المهر فرض للمرأة، ضمانا لها ضد شهوه بعض الرجال، و الرسول معصوم أن يحيف زوجته أو يظلمها، و إذ ينتهي الحديث لهذه الفكرة فمن أجل رفع الحرج عن النبي صلى الله عليه و آله حيث خصّ دون غيره ببعض الأمور، تبين ذلك الآيه الكريمة:

لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥١) و هكذا ينساب السياق مبينا جانبا من حدود العلاقه الزوجيه عند الرسول حيث يقول:

تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَ مَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لَا يَحْزَنَ وَ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً و قد انقسم المفسرون في هذه الى فريقين:

الاول: ربطها بما قبلها، و قال ان الآيه تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ يخاطب الرسول: بأنك حرّ ترفض من تهب نفسها إليك، أو تقبلها و تتزوجها، و استندوا في رأيهم هذا الى خبر

عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

قلت: أ رأيت قوله: «تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ» قال:

«من أوى فقد نكح، و من أرجى فلم ينكح» (١)الثانى:فسرها بحريه الرسول صلى الله عليه و آله فى تقسيم وقته على زوجاته كيفما يشاء، و ليس كما ترى زوجاته، أو على أساس قانون معين له.

و انسجاما مع هذا الرأى يكون تفسير الآيه:انك يا رسول الله تستطيع ان تنام عند من تشاء من زوجاتك، و تترك الآخريات»
تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ» بل أنت حر لو عينت ليله ما لزوجه ما ثم بدا لك ان تغير الوقت ان تفعل بما تراه»
وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ» و هذا الأمر يرفع احتمال النزاع بين زوجات الرسول لعلمهن بأن الأمر بيده لا بأيديهن، «ذَلِكَ أَذُنِي أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لَا يَحْزَنَ.. إلخ».

(٥٢) و كما كانت الآيات السابقه قد أحلت للرسول بعض الأمور، جاءت هذه الآيه لتحرم عليه أموراً أخرى.

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا وَ فِي هَذِهِ آيَةُ أَقْوَالٍ عَدِيدَةٍ:

١- ان الآيه جاريه على ظاهر لفظها، و معنى ذلك: لا يجوز للرسول بعد نزول هذه الآيه ان يتزوج غير زوجاته التسع، و لا ان يطلق إحداهن ليتزوج غيرها، باستثناء الإمام.

ص: ٣٦٨

٢- وهناك روايات تخالف هذا الرأي، حيث تستنكر ان يجوز للإنسان العادى استبدال زوجته، بينما يحرم ذلك على الرسول صلى الله عليه وآله و تفسر الآيه بأنها تحرم عليه الزواج من غير النساء اللاتى حددتهن الآيه السابقه: **إِنَّا أَخْلَقْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ..** الآيه و بناء على المعنى الأول فقد أوقف الله حريه الرسول صلى الله عليه وآله فى الزواج، و ذلك ليعرفنا ان تزوج النبى لم يكن بهدف الشهوه انما لأهداف نبيله أخرى، فمره يتزوج امرأه بعد ان جربت الحياه الزوجيه التى انتهت بالطلاق عدة مرات من أجل أن يستر عليها، و يتزوج بثانيه لكي يستميل عشيرتها، و بثالثه من أجل ان ينقض عاده جاهليه قائمه فى المجتمع تقضى بحرمه الزواج من مطلقات الأدياء.

(٥٣) ثم يبين الله بعد ذلك العلاقة بين الرسول و من يحضر الى منزله محمدا بعض الأحكام و الآداب التى تمس هذه العلاقة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ۝١ -الدخول الى بيت النبى يجب أن يكون مسبقا بإذن.

٢- و عند الدعوه الى الطعام يجب ان لا يدخل مسبقا، و ينتظر أو ان الطعام، لأن من آداب الأكل فى بيوت الآخرين أن يأتى فى الوقت المناسب، و ذلك لأن المجيء أول النهار و انتظار الغذاء يسبب الإزعاج لصاحب البيت،

و قد جاء فى السيره: ان رسول الله صلى الله عليه وآله أو لم على زينب بتمر و سويق، و ذبح شاه، فأمر أنسا ان يدعو أصحابه، فترادفوا أفواجا، فوج يدخل فيخرج، ثم يدخل فوج، الى ان قال:

يا نبى الله! قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم، و تفرق الناس و بقى ثلاثه نفر يتحدثون فأطالوا، فقام رسول الله -صلى الله عليه وآله-

ليخرجوا، فطاف بالحجرات، فرجع فاذا الثلاثة جلوس مكانهم، وكان -صلى الله عليه وآله- شديد الحياء، فتولى، فلما رأوه متوليا خرجوا ونزلت الآية. (١)

٣- ولكن إذا دعيتم فادخلوا، ولا يمنعكم الحياء من الاستجابة للرسول.

فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا تَطْلُبُوا الْجُلُوسَ عِنْدَ النَّبِيِّ حَتَّىٰ لَوْ كَانَ بِهَدْفٍ نَبِيلٍ، كالأستفاده من حديثه، أو حديث بعضكم مع بعض.

وَ لَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثِ ثَم يبين القرآن خلفيته هذا النهي: بأن الجلوس ربما يؤدي إلى احراج الرسول و أذاه، بما ينتهي إليه من آثار سلبية على برنامج حياته العائليه أو السياسي... إلخ.

إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ٤- و على الضيف ان يراعى حرمة البيت الذى يحل فيه، فلو اضطرتة الحاجة للتعامل مع أهله من النساء يجب ان يتعامل معهن بأدب، و بمقدار حاجته، و من وراء حجاب، فبعد نزول هذه الآية صار حراما على المؤمنين التحدث مع نساء الرسول الا بهذه الكيفية.

وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَمَا عَنْ حُكْمِهِ هَذَا التَّشْرِيعِ فَهِيَ الْوَقَايَهُ مِنَ الذَّنْبِ، وَ التَّى لَا تَتَمُّ إِلَّا بِطَهَارِهِ

ص: ٣٧٠

القلب، و هذه الطهاره لا تتأتى الا بابتعاد الإنسان عن أسباب المعصيه، و التي من بينها حديث المرأه مع الرجل و بالذات إذا لم يكن ثمة حجاب بين الطرفين، ذلك أن من طبيعه المرأه كما من طبيعه الرجل ان يميل أحدهما للآخر بالغريزه، و لعل الحديث بينهما بغير الصوره التي تهدي لها الآيه ينتهى الى المعصيه.

□ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ □ و لأن الرسول كان يدرك هذه الحقيقه لم يكن ليتقبل هذه الحاله، بل كانت تلحق به الأذى النفسى.

□ و مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ □ و لكى يقطع الله الطريق على القلوب المريضه، و بالتالى ينهى هذه المشكله التي تؤذى الرسول، حرّم الزواج من نسائه بعده.

□ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ □ مع ملاحظه ظروف نزول الآيه نعرف أن هذا الحكم يختص بنساء النبى اللاتى تعرضن لأذى المنافقين، حيث طمع بعضهم فى الزواج منهن بعد الرسول، و صرح بذلك بوقاحه، فحرم الله ذلك عليهم.

ان احترام بيت الرساله كان يقتضى عدم ظهور نساء الرسول فى المواقع العامه، و عدم تحدثهن مع الرجال الا من وراء ستر، بينما يحلّ مثل ذلك لغيرهن إذا حافظن على حدود الستر و العفاف.

قال على بن إبراهيم: لما انزل الله: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ □ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ □ و حرم الله نساء النبى على المسلمين، غضب طلحه فقال: يحرم محمد علينا

نساءه، و يتزوج هو نساءنا؟! لئن أمات الله عز وجل محمدا لتركضن بين خلاخيل نسائه كما ركض هو بين خلاخيل نسائنا، فانزل الله عز وجل: **وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ... الْآيَةَ (١)** و ربما كان هدف هؤلاء المنافقين هو إيذاء الرسول الا انهم يخفون هذه النوايا ببعض التبريرات كقولهم: لماذا يتزوج هو بنسائنا، و لا يصح لنا العكس، فهددهم الله من طرف خفى إذ قال:

إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا و هناك حكمه أخرى لهذا التشريع الالهي يذكره بعض المفسرين: ان مركز نساء النبي العظيم كان يستهوى الطامعين فى السلطه أو الشهرة، و كان أمثال هؤلاء يمتنون أنفسهم بنكاح أزواج النبي من بعده للحصول على مكانه اجتماعيه تستغل لأطماع سياسيه، و لعل بعضهم كان ينوى نشر أفكاره من خلال ذلك بادعاء أنه أضحي من أهل البيت و هم أدري بما فى البيت.

و لعل الآية تشير-من طرف خفى-الى عدم جواز استغلال مكانه أزواج النبي للوصول الى مراكز سياسيه أو اجتماعيه كما حصل فعلا-و مع الأسف- بين المسلمين من بعد رحيل الرسول-صلى الله عليه و آله-.

(٥٤) ثم كشف هذا الواقع، و أكد للمنافقين أنه يعلم به.

إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا شَيْئًا بِالتَّصْرِيحِ بِهِ.

ص: ٣٧٢

أَوْ تُخْفُوهُ بِمُخْتَلَفِ الْمَظَاهِرِ وَ التَّبَرِيرَاتِ الَّتِي تَخْدَعُونَ بِهَا النَّاسَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا الظَّاهِرَ.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا وَ أَخِيرًا:

فان هذه الآيه الكريمة-و كما أشرنا فى بدايات الدرس-تصلح أن تكون نبراسا للمسلمين فى كل مكان فى علاقتهم مع قيادتهم، فيحترمونها، و يفرضون على أنفسهم حقوقا لها،لكى يستطيع القائد تقديم أكبر قدر من الخدمه للأمم، و لمبادئها و اهدافها.

ص: ٣٧٣

إشاره

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَلَا اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَيْسَ لِمَنْ يَنْتَهِيَ الْمَغَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنْفِرِينَكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقَفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سَنَّهَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ تَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

اللغه

٥٥[جناح]: ذنب.

٥٩[يدنين عليهن]: يقربن و يغطين.

[جلابيبهن]: الجلاب خمار المرأة الذي يغطي رأسها و وجهها.

٤٠]و المرجفون]:الإرجاف إشاعه الباطل و الأخبار الكاذبه.

[لنغرينك بهم]:الإغراء الدعاء الى تناول الشىء بالتحريض عليه،و المراد تسلطك يا رسول الله عليهم.

ص:٣٧٥

هدى من الآيات:

يتابع السياق فى هذا الديرس حديته عن نساء النبيؐ؁ و ضروره احتجابهن عن الأجانب من الرجال و النساء الا ما استثنى؁ و إذ يفرض عليهن الحجاب تجاه غير المؤمنات من النساء؁ فلأنهن قد يصبحن نافذه للأجانب من الرجال على المرأه المؤمنه؁ و يصفن جمال المؤمنات لهم؁ حيث لا يملكن رادعا دينيا عن القيام بهذا العمل.

ثم ينتقل السياق الى الحديث عن الرسول صلى الله عليه و آله بعد الحديث عن نسائه؁ و قد سبق القول: بان العلاقه بين أسره الرسول و الرسول نفسه؁ اى النواحي القيادية فيه لهى علاقته وثيقه؁ لأنها العلاقه بين مركز الإنسان الذى منه ينطلق و يتقدم؁ و بين اهدافه و وسائل تحركه فى الحياه؁ فلا ريب أن البيت الصالح و الذى يكون أهله فى مستوى المسؤليه سوف يساعد الإنسان على القيام بمهامه؁ و إذا كان المثل الشائع يقول: (وراء كل رجل عظيم امرأه) فانا نقول: (وراء كل رجل عظيم بيت

مبارك) و لهذا كان من أهم تطلعات عباد الرحمن الذين تحدّثنا عنهم سورة الفرقان هو البيت الصالح، وإمامه المتقين. لأنهم يدركون أهميه هذا الأمر في تحقيق طموحهم الأسمى و هو قياده المجتمع و الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (١) و من أجل أن يطمئن قلب الإنسان، و ينطلق لقياده المجتمع، لا يكفي ان تكون زوجته وحدها صالحه لأن للأولاد و عموم أفراد الأسره أثرا بالغاً على شخصيه القائد، و هنا يجب أن نؤكد على ضروره التفات المرأه الى موقعها فى حياه زوجها، فان طبيعه سلوكها معه سوف تؤثر فى حياته، فعليها إذن أن تسعى لتنظيم حياتها و أسرتها معه.

من هنا نجد الامتزاج و الاختلاط بين شطرى السياق واضحاً فى تمام السوره، يلتقيان تاره و ينفصلان أخرى ليلتقيا من جديد و هكذا، و هذان الشطران هما بعد القياده فى البيت، و بعدها فى المجتمع.

ثم يدعونا القرآن للصلاه على النبى صلى الله عليه و آله الذى يصلى عليه الله و ملائكته و ينتهى السياق بالاشاره الى أذى المنافقين للرسول صلى الله عليه و آله فى حياته و بعد وفاته، المتمثل فى عدم تطبيق مناهجه، و عدم القيام بمسؤولياتهم تجاهه كقائد، و أعظم من ذلك محاولتهم الحط من شأنه، و الذى يناقض صلاه المؤمنين عليه و تسليمهم له، و ينذرهم القرآن بالطرده من المدينه، و اجتثاث جذورهم منها إذا ما استمروا فى عملهم هذا، كما نجد فى -البين- توصيه للمؤمنات بضروره الحجاب، و قايه لهم من أذى المنافقين، و أصحاب القلوب المريضة، و المرجفين.

بينات من الآيات:

(٥٥) تحدّثنا هذه الآيه عن بعض حدود الحجاب الاجتماعيه، و بيان من

ص: ٣٧٧

يستثنى من هذا الحكم ممن يمكن لنساء النبي عدم التحجب معهم.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ أَيُّ لَآ عَتَبَ وَ لَآ ذَنْبَ عَلٰى نِسَاءِ النَّبِيِّ، لو لم يتحجبن عنن تشير إليهم الآية و هم:

فِي آبَائِهِنَّ وَ لَآ أَبْنَائِهِنَّ وَ لَآ إِخْوَانِهِنَّ وَ لَآ أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَ لَآ أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ ان يتحدثن معهم من دون حجاب، ثم تضيف الآية:

وَ لَآ نِسَائِهِنَّ أَيُّ النِّسَاءِ اللّوَاتِي يَتَحَدَّثُ مَعَهُنَّ فِي الدِّينِ، ثم يستثنى القرآن الاخريات من النساء فى وضع خاص، و ذلك إذا كنَّ إماء تحت أيديهن.

وَ لَآ- م- مَلَكْتُ أَيْمَانُهُنَّ من غير نسائهن (المؤمنات) فعموم النساء غير المؤمنات يجب التحجب عنهن إلا الإماء، و ذلك للحرص و الوقوع فيما لا- يطاق، و لأنَّ الأئمه مقطوعه عن مجتمعها الكافر فهى لا- تكون نافذه عليه، و فى الآية التفاتة لطيفه يتعرض لها المفسرون و هى سكوتها عن الخال و العم، و يرجعون ذلك لحرمة جلوس نساء النبي لهذين الاثنين من غير حجاب، و السبب ان أبناء العم و الخال يجوز لهم الزواج من أبناء العمه و الخاله، فمن الممكن ان يحكى العم و الخال لأولادهم حال بنت أخوهما أو أختهما، مما يمكنهما تشجيعهم على الزواج منها بعد طلاقها أو وفاه زوجها، بينما يحرم ذلك بقاعده خاصه على المؤمنين جميعا من نساء النبي صلى الله عليه و آله فوجب عليهن

التحجب عن أخوالهن و اعمامهن من دون سائر المؤمنات. (١)

و الذى يؤيد هذا الرأى ان ما تعرضت لهم الآيه من الذكور لا يجوز لهم الزواج من نساء النبى و ان نزلوا، و هناك رأى آخر يقول: ان ترك الخال و العم كان لدلاله السياق عليهما ذلك ان الآيه ذكرت أبناء الاخوان و أبناء الأخوات، و هم الذين تصبح المرأه بالنسبه إليهم عمه أو خاله، فدل على حرمه العم و الخال لأنها ذات العلقه، و لا فرق بين العم و العمه و الخال و الخاله. (٢)

و لم تذكر الآيه أيضا والد الزوج أو ابنه لأنهما-بالنسبه الى نساء النبى-لم يكونا موجودين عملا.

و بعد هذه المجموعه من الأحكام المتقدمه يحث القرآن نساء النبى على التقوى قائلا:

وَ اتَّقِينَ اللَّهَ وَ هَذَا التَّكِيدُ عَلَى التَّقْوَى لِسَبَبَيْنِ: □

الاول: حتى لا- تزعم اى زوجة للرسول ان مجرد انتمائها اليه يعفيها عن المسؤوليات الدينيه، أو يجعلها أرفع درجه من غيرها. كلا.. بل الأهم من الانتماء الظاهرى انتماؤها الواقعى للنبى بالتقوى.

الثانى: لادن التقوى أفضل وازع نفسى عن تعدى حدود الشريعة، و ما لم يسع المؤمن نحو إيجاد روح التقوى فى نفسه فانه لن يستطيع الالتزام بكثير من الأحكام،

ص: ٣٧٩

١- ٢) تفسير مجمع البيان/ج(٨)/ص(٣٦٨)/عن الشعبى و عكرمه.

٢- ٣) تفسير نمونه/ج(١٧)/ص(٤١٢).

ذلك أن من طبيعه البشر أنه يريد ان يكون مطلقا كما يهوى، وليس من شىء يواجه هذه الطبيعه كالتقوى لما توجده من إحساس بالرقابه الالهيه الدائمه و جاء فى أحد التفاسير: «وَأَتَقِينَ اللَّهَ» فى نقل الكلام من الغيبه الى الخطاب دلالة على فضل تشديد فيما أمرن به من الاحتجاب و الاستتار، أى و اسلكن طريق التقوى فيما امرتن به، و احتطن فيه. (١)

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا

الصلاه على النبي:

(٥٦) فى سياق الحديث عن عظمه الرسول و الأحكام التى يتميز بها يدعوا الله المؤمنين الى الصلاه عليه، و التسليم لقيادته، فلا يكتمل علاج المحيط الاجتماعى الا من خلال الصلاه على الرسول صلى الله عليه و آله و التسلم له، فما هو معنى الصلاه على النبي؟ لعل أصل معنى الصلاه هو التعطف و الترؤف - كما ذكرنا آنفا- أما الصلاه على النبي فهى الدعاء الى الله بأن يرحمه، و يرفع درجته، و يبلغه المقام المحمود الذى وعده، أما صلاه الله على نبيه، فبالنسبه الى الله تأخذ الكلمات غاياتها و تترك مبادئها، فحينما نقول بان الله يحب، و يبغض، و ينتقم، فليس المعنى انه تطراً عليه هذه الحالات - سبحانه - فتغير فيه شيئا كما تغير فى نفوسنا و أجسامنا، انما تصدق على الله الغايات منها، فعطفه على الإنسان هو هدايته له، و انعامه عليه، و صلاته على نبيه، انه يستجيب الدعاء فى حقه، و بسببه.

و صلاه الملائكه على الرسول صلى الله عليه و آله تعنى الدعاء له عند ربهم، و تأييد تابعيه،

ص: ٣٨٠

أما صلاة المؤمنين التي وجبها الرب علينا في صلواتنا، وندب إليها في كل وقت، وبالذات عند ذكره-صلى الله عليه وآله-فهى
تعنى الدعاء له، والتقرب الى مقامه الكريم، و من أبرز الحكم فيها:

أولاً-تصحيح عقيدة المسلم،ففى الوقت الذى يجب ان يعظم المسلم نبيه صلى الله عليه وآله لا-يجوز ان يغلو فيه فيمرق من
الدين،بلى.يكرمه من خلال الدعاء الى الله سبحانه لتبقى صلته الاولى بربه،و من خلال توحيد الله،و حبه الشديد يكرم المسلم
الرسول و يحبه،و فى ذات الوقت تبقى علاقته بالرسول وسيلته للتقرب الى الله،و من دون التسليم له و لمن أمر الرسول باتباعه،و
من دون حب الرسول و حب من أمر بحبهم لا يمكن ان يتقرب المسلم الى ربه.هكذا تحمل كلمات الصلاة على الرسول و آله
إطار العقيدة الاسلاميه،و تعنى المزيد من التقرب الى الله و لكن بالرسول،و المزيد من حب الرسول،و لكن فى الله.

ثانياً:ان ذلك حق علينا تجاه الرسول الذى أجهد نفسه من أجل البشرية، و تحمل الأذى فى سبيل هدايتها،حتى

قال صلى الله عليه وآله :

«ما أودى نبيّ قط بمثل ما أوديت» و أبرز شكر نقدمه للنبي صلى الله عليه وآله على ما نملك اليوم من الهدايه و الخير،الذان
كانا بسببه،يكون بالصلاه عليه(الدعاء له).

ثالثاً:ان صلواتنا عليه يعود علينا بالنفع و الخير،كما جاء فى الدعاء للمؤمن،

ففى الحديث قال الامام الصادق عليه السلام :

«دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب يسوق الرزق،و يصرف عنه البلاء،و يقول له الملك:لك مثلاه» (١)

ص: ٣٨١

١-٥) بح ج/ (٩٣)/ص (٣٨٨).

و حينما ندعوا الله للرسول ان يرفع درجته من الناحيه المعنويه و الماديه فانا أيضا ترتفع درجاتنا كتابعين له.

جاء فى الحديث المأثور عن الرسول صلى الله عليه و آله :

«من صلى علىّ صلى الله عليه و ملائكته، فمن شاء فليقل و من شاء فليكثر» (١) ان الرسول هو قائدنا فى الدنيا و الآخرة، فكلما ارتفعت درجته، و علا مقامه، فان درجات المؤمنين به ترتفع و تعلوا،

جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام :

«ان رجلا- أتى النبى فقال: يا رسول الله أجعل لك تلك صلاتى، لا بل اجعل لك نصف صلاتى، لا بل أجعلها كلها لك، فقال رسول الله إذا تكفى مؤنه الدنيا و الآخرة» (٢)

و فى روايه:

«ان رسول الله جاء ذات يوم و البشرى ترى فى وجهه، فقال النبى: انه جاءنى جبرئيل، فقال: اما ترضى يا محمد ان لا يصلى عليك أحد من أمتك صلاه واحده إلا صليت عليه عشرا، و لا يسلم أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا» (٣) و حتى فى الدنيا فانه كلما ارتفعت درجته صلى الله عليه و آله كلما ارتفع شأن المسلمين جميعا.

ص: ٣٨٢

١-٦ تفسير البصائر/ج(٣٢)/ص(٦٢٨).

٢-٧ المصدر.

٣-٨ المصدر.

رابعاً: إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله من وسائل استجابته الدعاء، وقد يدعو العبد ربه ألف مره فلا يستجيب له حتى يصلى على محمد صلى الله عليه وآله يبدأ بها ويختم.

قال الرسول صلى الله عليه وآله :

«صلاتكم علىّ اجابه لدعائكم، و زكاه لأعمالكم» (١)

و قال الامام على عليه السلام :

«لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلى على محمد و آل محمد» (٢)

و قال الامام الصادق عليه السلام :

«من كانت له الى الله عز و جل حاجه فليبدأ بالصلاه على محمد و آله، ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاه على محمد و آله محمد، فان الله أكرم من ان يقبل الطرفين و يدع الوسط، إذ كانت الصلاه على محمد و آل محمد لا تحجب عنه» (٣) اما عن الهدف المباشر لهذه الصلاه فهو التسليم للرسول، و اتخاذ أسوه و إماما، و قد أفرد العلامة المجلس فى كتابه بحار الأنوار بابا خصصه لتفسير هذه الآيه الكريمة. (٤)

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ص: ٣٨٣

١- ٩) بح ج / (٩٤) / ص (٥٤).

٢- ١٠) بح ج / (٩٣) / ص (٣١١).

٣- ١١) المصدر / ص (٣١٦).

٤- ١٢) راجع بح ج / (٢) / باب (٢٦) / ص (١٩٩) و ما بعدها.

و كم هو عظيم ان يستجيب العبد المؤمن الى ربه بالصلاه على النبي صلى الله عليه و آله لينتمى الى حزب الله الذى يضم الملائكة المقربين، و لكن ليس كل صلاه تحقق له هذا الانتماء، انما التى يتلفظها بلسانه، عارفا بحدودها فى عقله، مسلمه لها نفسه، خاضعه لها جوارحه، فإذا سمع الخطيب يقول:

قال رسول الله صلى الله عليه و آله يجب ان يصلى عليه بلسانه، و يستوعب الصلاه بمعرفته، و يستعد لتطبيقها بنفسه، ثم ينطلق من عنده للعمل وفقها و بما تقتضيه، و من الناحيه النفسيه الذى يدعو لآخر فى غيابه فانه سيحبه حتى لو كانت بينهما عداوه، ذلك ان الدعاء يلين جانب الداعى للطرف الآخر من جهه، و من جهه أخرى يشعر المدعو له بالميل و من ثم المحبه، حتى و لو لم يفعل شيئاً غير الدعاء، لأن للقلوب عليها شواهد، و لأن النفوس جنود مجنده، تتألف غيبيا كما تتألف شهوديا.

و نحن عند ما نصلى على رسول الله فان حبه و احترامه يسمو فى قلوبنا إلى ان نصير محبين له، مما يسهل علينا طاعته، و التأسى به، و قد قرأت فى علم النفس: انه و بعد التجارب العديده ثبت ان الحب أقوى عامل للطاعه، و ان الطفل -على سبيل المثال - أكثر ما يطيع أمه حبا لها، لا خوفا منها، و فى المقابل تقدم الام لطفلها الحنان و العطف و التضحيات لأنها تحبه.

(٥٧) ان الذى يتعد عن رسول الله صلى الله عليه و آله يتعد عن رحمه الله و هؤلاء هم الذين يؤذون رسول الله، سواء بالنيل من شخصيته أو بأذى ذريته أو بمخالفته أو ما أشبه.

و فى أكثر من مناسبة قرنت طاعه الله بطاعه رسوله، و هنا نجد ان السياق يذكر أذى الله قبل أذى الرسول للتأكيد بأن الموقف من الرسول يحدد الموقف من رب العالمين، فمن آذى الرسول فقد أذى الله.

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَ هُوَ الَّذِي بَدَّلَ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ وَ آلِهِ الْمَفْرُوضَةَ وَ آلِهِ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ تَرَاهُمْ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ أَوْ فِي التَّابِعِينَ لَهُ، فَتَلَحُّقَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا بِالْإِبْتِعَادِ عَنْ بَرَكَاتِهِ، وَ فِي الْآخِرَةِ بِالْحَرَمَانِ مِنْ شَفَاعَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ .

وَ نَسْتَوْحِي مِنَ الْآيَةِ فَكْرَهُ هَامَهُ وَ هِيَ: أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تُؤْذِي الْقِيَادَةَ الرَّسَالِيَةَ بِمُخَالَفَتِهَا، وَ الْإِسْتِهَانَةَ بِهَا تَعَذِّبُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، بَيْنَمَا الْأُمَّمُ الَّتِي تَعُودُ عَلَى الْخُضُوعِ لِقِيَادَةِ الْحَقِّ تَكُونُ أَعَزَّ وَ أَعْظَمَ شَأْنًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.. وَ وَاضِحٌ مِنْ وَقَعِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّهَا حِينَ التَّزَمَتْ بِالطَّاعَةِ لِلْقِيَادَةِ الرَّسَالِيَّةِ فِي مَطْلَعِ فَجْرِهَا صَارَتْ أَعَزَّ الْأُمَّمِ وَ أَفْضَلَهَا، أَمَا حِينَ نَبَذَتْ أُنْمَهُ الْحَقَّ انْحَرَفَتْ مَسِيرَتَهَا نَحْوَ الدَّمَارِ وَ التَّخْلُفِ.

(٥٨) وَ لِأَنَّ ثَمَّةَ أَنْاسٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ النَّيْلَ مِنَ الرَّسُولِ، فَإِنَّهُمْ يَحَاوِلُونَ الْمَسَّ بِكِرَامَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ قَدْ تَعَرَّضَ السِّيَاقُ لِأُذَى الْمُؤْمِنِينَ، مُؤَكَّدًا بِأَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَى الْعَذَابِ أَيْضًا، وَ لَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ يُؤْذِي اتِّبَاعَ الرَّسُولِ -نِسَاءً أَوْ رِجَالًا- فَإِنَّهُ يُؤْذِي نَفْسَ النَّبِيِّ، وَ بِالتَّالِيِ يُؤْذِي اللَّهَ.

وَ لَقَدْ ثَبَتَ فِي التَّارِيخِ: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ -وَالِدَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَانَ مِنْ أَرْفَعِ الْمُؤْمِنِينَ دَرَجَةً، وَ أَقْرَبَهُمْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ قَدْ سَمِيَ الرَّسُولَ الْعَامَ الَّذِي تُوْفِيَ فِيهِ أَبُو طَالِبٍ (رَضِيَ) بِعَامِ الْأَحْزَانِ، وَ كَيْفَ لَا وَ كَانَ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِّ الْحَنُونَ؟! وَ لَكِنْ أَقْحَمَتْ بَعْضَ الرِّوَايَاتِ الْمَلْفَقَةَ حَوْلَهُ فِي كِتَابِ التَّارِيخِ بِهَدْفِ إِسْقَاطِ شَخْصِيَّتِهِ.

وَ حِينَمَا نَدْرُسُ خَلْفِيَّاتَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ نَجِدُ أَنَّ هَدْفَهَا النَّيْلَ مِنْ بَطْلِ الْإِسْلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ أَنَّ مَرَّجِيَّهَا لَمْ يَجِدُوا نَقْصًا فِي شَخْصِيَّتِهِ

الامام فانتقصوا والده، والملاحظ ان هذه المرويات انتشرت أيام بنى اميه الذين بنوا سلطتهم على الحقن الدفن للإمام على و أهل بيته عليهم السلام.

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا انما بالافتراء المحض، و التهم الكاذبه.

فَقَدِ اخْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا و البهتان هو التهمه التى لا واقع لها، و إذ يصف القرآن أذاهم بذلك فلكى يرفع التهمه أولا عن المؤمنين، اما الإثم المبين فهو الذنب التام الذى يمارسه صاحبه عن وعى و عمد،

و جاء فى الأثر عن الامام الرضا عليه السلام انه قال:

«من بهت مؤمنا أو مؤمنه، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج مما قاله فيه» (١)

و روى عن الامام الصادق عليه السلام انه قال:

«إذا كان يوم القيامة نادى مناد: اين الصدود لاوليائى، فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، فيقال: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، و نصبوا لهم، و عاندوهم و عنفوهم فى دينهم، ثم يؤمر بهم الى جهنم» (٢). (٥٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَ بَنَاتِكُمْ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ

ص: ٣٨٦

١- (١٣) تفسير نمونه/ج(١٧)/ص(٤٢٤).

٢- (١٤) نور الثقلين/ج(٤)/ص(٣٠٦).

و الجلباب هو العباءه، و انما أمر الله المؤمنات بتثبيت العباءه لأنهن و هن يلبسناها قد لا يراعين الألبسه التي تليها، فقد تكون مما لا يليق ظهوره للآخرين، و يبين القرآن ان الهدف الأهم من وراء هذا الفرض:

ذَلِكَ أَذُنِي أَنْ يُعْرَفَنَّ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً وَ الْمَعْرِفَةُ هُنَا تَحْتَمِلُ أَحَدَ تَفْسِيرَيْنِ:

١- ان يعرفن من بين النساء، انهن ينتسبن الى رسول الله أو الى فلان من المؤمنين، فيؤذين إمعانا في الأذى لذلك الطرف، سواء بالكلام البذيء أو غيره.

٢- ان تعرف مفاتهن و زينتهن مما يسبب الأذى لهن، و الملاحظ أن قسما من المؤمنات لا يراعين كيفية الحجاب تماما، و لكن ليس بهدف الإفساد، انما لعوامل تربويه و ثقافيه سلبيه، أو لقله الوعي الديني، فيؤدى ذلك الى اثاره بعض أبناء المجتمع، الذين قد تنتهى اثارتهم الى الاعتداء.

و عن هذه الآيه جاء في تفسير القمى: انه كان سبب نزولها: ان النساء كن يخرجن الى المسجد و يصلين خلف رسول الله صلى الله عليه و آله فاذا كان بالليل و خرجن الى صلاه المغرب و العشاء الآخره، يقعد الشباب لهن فى طريقهن فيؤذنهن، و يتعرضون لهن. (١)

و قد عبر القرآن بكلمه «نساء» فى عطفه الحديث عن المؤمنين على أمره رسول الله صلى الله عليه و آله دون التعبير ب(زوجات المؤمنين و بناتهم) لما فى كلمه نساء من ظلال خاص يشمل من جهه الزوجات و البنات، و يشير الى الحد الشرعى للحجاب، فوجوبه على الأنثى لا يكون الا إذا بلغت مبلغ النساء عرفا و شرعا.

ص: ٣٨٧

(٦٠) ولان مشكله الحجاب ذات طرفين،فانا نجد السياق فى الوقت الذى يفرضه على النساء يزجر الرجال عن إيدائهن،لأنه كما يجب على المرأة الحجاب يجب على الرجل غض البصر،و هنا نجد السياق حادًا مع المنافقين،و الذين فى قلوبهم مرض،و المرجفون(و هم الذين يذيعون فى البلد الاشاعات الكاذبه).

يقول تعالى:

لَيْسَ لِمَنْ يَنْتَهَى الْمُنْأَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ وَ كَل هَؤُلَاءِ تَجْمَعُهُمُ السَّلْبِيَّةُ الاجتماعيه،و الذاتيه،فالمنافق يعيش بشخصيتين الاولى مع المجتمع و الرساله و هى الظاهره،و الثانيه ضدهما و هى الباطنه،أما مريض القلب فهو يعيش العقد،و مختلف الأمراض النفسيه،التي يبحث عن متنفس لها،و دائما ما يكون تنفيسه هو التشفى من أبناء المجتمع،اما المرجف فان طبيعته تضعيف النفوس،و بث الوهن و الخوف فى صفوف المجتمع،عبر اشاعه الفواحش و الأخبار السلبيه فيه،و يبدو أن هذه الآيه تأول معنى الأذى فى الآيه السابقه،فهؤلاء هم الذين يؤذون المؤمنين.

و لا بد للمجتمع و القيادة الرساليه من مواجهه هذا القطاع من الناس حتى تستمر مسيرته التصاعديه،و نهايه هذا الدرس يحدد الموقف السليم من هؤلاء ان لم يرتدعوا بالإنذار.

لِنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ نَحْرَضُكَ عَلَيْهِمْ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ،و تطهير المجتمع من رجسهم.

ص: ٣٨٨

ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا فِي الْمَدِينَةِ.

□
إِلَّا قَلِيلًا- ان أبعاد هؤلاء عن المجتمع، و بالتالى عن التأثير فيه أمر مهم، لأن من طبيعتهم الإفساد، فلا- حلّ معهم الا- الاجتثاث الجذرى، حتى لا ينفثوا سمومهم، أو يتوسعوا ليكوّنوا لهم خطًا انهزاميًا سلبيًا فى المجتمع، و يبدو أن نزول هذه الآية- و عموما سورة الأحزاب- بعد استئصال الخطر الآتى من مشركى قريش، و يهود المدينة يدل على ان اهتمام المسلمين انعطف نحو تصفيه الحسابات الداخليه، خصوصا مع المنافقين الذين كانوا يقومون بأدوار خبيثه ضد المجتمع الاسلامى.

و نستوحى من ذلك أمرين:

أولا: حينما تعجز القوى المعاديه عن كسر شوكة المسلمين تحاول التأثير عليهم داخليا بإثارة المنافقين و ضعف النفوس.

و لعل الأعداء فعلوا مثل ذلك بعد انهزامهم فى الأحزاب، مما دفع بالمسلمين لمواجهه الوضع بقوه و حزم.

ثانيا: حينما ينتصر المسلمون فى جبهه خارجيه عليهم أن يستثمروا انتصارهم فى تقويه جبهتهم الداخليه، و تطهير صفوفهم من المنافقين، و لكن بعد الإنذار و فتح المجال للتوبه أمامهم.

(٦١) و حينما يبعد هؤلاء الى مدينه أخرى يفقدون حمايه المسلمين، فيحيط بهم الخطر.

ص: ٣٨٩

مَلْعُونِينَ أَيْمًا ثُقُفُوا أَخَذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا- و هنا حکمان حکم بالابعاد، و آخر بالقتل، و اختلف المفسرون فيها، و لعل الإبعاد هو مقدمه قتلهم، و قال البعض ان القتل يشمل من لم يخرج منهم.

(٦٢) و هذا القضاء قانون الهى لا بد من تطبيقه فى كل مكان و زمان، لأنه يرتبط بثوابت الحياه و قوانينها العامه، و هذا الفريق من الناس- هو الآخر- لا يختص بعهد رسول الله صلى الله عليه و آله و حسب، انما وجد فى العهود السابقه و سيبقى سنه جاريه فى اللاحقه أيضا.

سُنَّهَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللَّهِ تَبْدِيلًا و فى الحديث عن على ابن إبراهيم: انها نزلت فى قوم منافقين كانوا فى المدينه يرجفون برسول الله صلى الله عليه و آله إذا خرج فى بعض غزواته يقولون: قتل و أسر، فيغتم المسلمون لذلك، و يشكون الى رسول الله صلى الله عليه و آله فانزل الله عز و جل فى ذلك: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَيْ شَكَّ وَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنْغَرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا أَيْ نَأْمُرُكَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَّا قَلِيلًا. (١)

ص: ٣٩٠

إشارة

يَسْتَيْئُكَ الذَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٤٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٤٥) يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي الذَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٤٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٤٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنَا كَبِيرًا (٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٤٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)

اللغة

٧٢] و أشفقن]: خفن أن يحملوها خوف الخيانة فيها.

على السموات و الأرض

هدى من الآيات:

فى نهايه هذه السوره و بعد بيان ضروره الطاعه للقياده الرساليه، و أنها فرص الهى، يبين لنا القرآن الآثار السلبيه لرفضها، فقد توعد الله المنافقين بالنفى، و إعلان الحرب ضدهم، كما حذر الكفار بأن كفرهم سيؤدى بهم الى الخلود فى السعير، أما متى يحين ميعاد هذا الجزاء؟ فقد تجاوز السياق الاجابه عن ذلك، مكتفيا بالتأكيد على حتميه وقوعه، و ان تبرير الكفر بطاعه الكبراء لن يغنى عن العذاب شيئاً.

ثم يوضح ربنا وجاهه النبى صلى الله عليه و آله عنده، ناهيا المؤمنين عن التشبه ببنى إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام حيث اتهموه بقتل هارون، و بالبرص، كما ادعى عليه قارون- بالتعاون مع فاجره من بنى إسرائيل- انه زنى بها، لكن الله برأه من كل ذلك، و فى هذا اشاره الى ان أراجيف المنافقين سوف تذهب سدى بقدره الله، و فى الأثناء يدعو الله المؤمنين للتقوى، ذلك انها أساس المنطق السليم، فهى تبعد

الإنسان عن الكذب و التهمه،و تدعوه للتثبت فى منطقہ،كما تصلح سعيه فى الحياه،و تمحو اخطاءه،و لان التقوى لا تتم الا بطاعه اللّٰه و القياده الرساليه،وجدنا الآيه تصفها بالفوز العظيم.

و تختم السوره آياتها بالحديث عن امانه عرضها الرب على السموات و الأرض و الجبال،فرفضتها خوفا من عدم تحملها،و بالتالى من العذاب و الغضب الإلهى المترتب على ذلك،بينما تحملها الإنسان،فخانها المنافقون و الكفار بظلمهم و جهلهم،فما هى هذه الامانه؟ من ناحيه السياق،جاءت الكلمه بعد الحديث عن الطاعه،مما يوحى بأنها تعنى الطاعه للّٰه و للرسول،و بالذات لرسول اللّٰه،لما فى طاعته من خروج من سجن الذات،الأمر الذى يستصعبه البشر،فقد يكون سهلا عليه الاستجابہ للقياده فى الأمور العاديه كالصلاه،و الزكاه،و الحج، و لكن من الصعب عليه الخضوع للإنسان مثله فى الظاهر لو نصبه الرسول قائدا له.

و هناك أقوال أخرى حول الامانه تبناها بعض المفسرين،فقال بعضهم انها الامانه المتعارفه،كما لو أعطاك شخص ما ماله لتحفظه له فان ذلك مما يصعب على الإنسان رعايته و أدائه،و قال آخرون:انها العقل و العلم و الاراده و الحريره،و مثلوا على ذلك بان اللّٰه وهب العقل للإنسان من دون المخلوقات الأخرى كالحيوانات، و وهبه الاراده و الاختيار دون الملائكه الذين جردهم عن الشهوه الدافعه لهم باتجاه الشر و الفساد،و قد وصفهم عز و جل بقوله: **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْتَبْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (١)** و كل هذا صحيح و لكن التجربه الحقيقيه للإنسان بعقله و علمه و اختياره انما تكون فى طاعه الرسول بتمام المعنى،التي تعتبر أصعب

ص: ٣٩٤

تجليات الاختيار في حياه البشر، فلا معارضه اذن بين القول بأن الامانه هي العقل، و بين القول بأنها الطاعه للرسول بدلاله السياق القرآنى.

بينات من الآيات:

اشاره

تقف وراء هذا السؤال فكرتان:

الأولى: استبعاد الإنسان بطبعه للجزاء، بالتسوية تاره، و بطول الأمل أخرى، فاذا بالشباب يتصور الموت بعيدا عنه، و الشيخ يطول أمله بالبقاء أضعاف عمره، و ربما مات الواحد بعد هذه التصورات بلحظه، فقامت قيامته (١) و ما دام الأمر كذلك، و الإنسان يجهل لحظه موته، فعليه ان لا يغتر بنفسه، و بماله، و عشيرته، لأنهم لا يغنون عنه شيئا يوم القيامة، و لا يدفعون عنه الموت فى الدنيا،

يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

«فاتقى عبد ربه، نصح نفسه، و قدم توبته، و غلب شهوته، فإنَّ أجله مستور عنه، و أمله خادع له، و الشيطان موكل به، يزين له المعصيه ليركبها، و يمنيّه التوبه ليسوفها، إذا هجمت مئته عليه أغفل ما يكون عنها، فيا لها حسره على كل ذى غفله، ان يكون عمره عليه حجه، و ان تؤديه أيامه الى الشقوه» (٢) و أسباب الموت كثيره جدّا، و مهما أبعدت أسبابا منها عنك فان غيرها يلزمك و لأنه سنه جاريه على الخلق.

الثانيه: الزعم الخاطئ بان على القيادة ان تعرف كل شىء، و كأنها المسؤول

ص: ٣٩٥

١-٢) اشاره للحديث الشريف: «إذا مات ابن آدم قامت قيامته.»

٢-٣) نهج البلاغه/خ(٦٤)/ص(٩٥).

المباشر عن كل جزء من الدعوه، و الواقع أنها تنتهى مسئوليتها بإبلاغ الرساله لتبدأ مسئوليه الناس، أما متى تكون الساعه، فليست الإجابته على ذلك من ضروريات القياده، و لا- من مسئولياتها، ذلك انه يكفى للإنسان العلم بحصولها لكي تبدأ مسئوليته تجاهها، كما يكفى الرسول و القائد مسئوليته بيان ذلك للناس، ثم إن علم الساعه مما يختص به الله عز و جل.

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا و لعل: تفيد الترجي، مما يدل على كفايه الاحتمال بقرب الساعه موعظه للإنسان، حتى يعمل بما يقتضيه هذا العلم، ايمانا و عملا و تسليما للقياده.

(٦٤) و لكن الكافرين يبحثون عن مبرر لكفرهم بالساعه، مهما كان سخيفا و خارجا عن حدود الموضوعيه، و لكن هل يدفع ذلك العذاب عنهم؟ كلا.. فقد أبعدهم الله عن رحمته، و أعدّ لهم سعيرا.

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَّ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا و لنستمع شيئا عن هذا السعير،

فقد جاء فى تفسير على بن إبراهيم عن أبى بصير(رض) قال: قلت لابي عبد الله عليه السلام: يا ابن رسول الله خوفنى فان قلبى قد قسى، قال:

«يا محمد! استعد للحياه الطويله، فان جبرئيل جاء الى النبى- صلى الله عليه و آله- و هو قاطب، و قد كان قبل ذلك يجىء و هو مبتسم، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: يا جبرئيل! جئتني اليوم قاطبا؟! فقال: يا محمد! قد وضعت منافخ النار، فقال و ما منافخ النار يا جبرئيل؟ فقال: يا محمد! إن الله عز و جل أمر بالنار فنفخ عليها الف عام حتى ابيضت، ثم نفخ عليها الف عام حتى احمرت،

ثم نفخ عليها الف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمه، لو أن قطره من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، ولو ان حلقه واحده من السلسله التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت من حرها، ولو ان سربالا من سراويل أهل النار علق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه» الى ان يقول الامام عليه السلام :

«فما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل مبتسماً بعد ذلك» (١) (٦٥) وأعظم ما فى العذاب الذى ينال الكافرين، خلودهم الأبدى فيه، بين الموت والحياء كلما نَضَّجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَا هُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٢) ثم ان علاقاتهم السلبيه بالقيادات المنحرفه من الطواغيت و أصحاب المال و الوجاهه لن تنفعهم، لأن الذى ينفع هنالك علاقه الإنسان بربه، وبالقياده الرساليه التى يرتضيها.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٦) و من صور العذاب الظاهر لهؤلاء فى جهنم تقليب وجوههم فيها.

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ و لهذه معنيان: الأول: ان تقليب الوجه هو تبدله من حال الى حال، و من صورته الى أخرى، و الثانى: هو أنها تقرب فى النار على كل جانب لكى تنالها من جميع الجهات، كما يقرب اللحم فى الافران لتنضجه من جميع نواحيه.

ص: ٣٩٧

١- ٤) تسليه الفؤاد/ص(٢٤٠).

٢- ٥) النساء/(٥٦).

و عند مشاهدته هذه الألوان من العذاب يتمنى الكفار و المنافقون لو انهم استجابوا لله و اطاعوا الرسول، و انى ينفع الكلام فى دار الجزاء، و قد اضعوا على انفسهم فرصه العمل فى الحياه الدنيا؟! يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ بَيْنَمَا كَانُوا يَعْتَدُونَ عن الاستجابه للحق، و التسليم لقياده الرسول فى الدنيا، و هذا مما يدل على ارتفاع الحجب و التبريرات يوم القيامه، و أن تبريرهم لكفرهم بأنهم لا يعلمون بميعاد الساعه إنما كان للتملص من مسئوليهِ الإيمان و الطاعه لا أكثر.

(٦٧) و مما يقدمه أهل النار لتبرير كفرهم بالقياده الرساليه أنهم انخدعوا بالقيادات الضالهِ، و وقعوا تحت تأثيرها. و كل ذلك مرفوض عند الله، لأن الإنسان متصرف و عاقل، و ليس آله جامده تحركها الأيدي كيف تشاء، فهو اذن مسئول عن قراراته و أعماله و سلوكياته، و قد حمّله الله هذه المسئوليه التى رفض حملها كل الخلائق، و إذا ضيعها فانما بجهله و ظلمه، و من يقول: ان الأوامر تأتي من فوق، أو أننى جندى مأمور لا ترتفع عنه المسئوليه.

وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا السَّادَهُ: فهم كالحاكم و القائد السياسى، و العسكرى، أو النظام الاقتصادى، و سائر الجهات التى يعود عصيانها بالأذى على الناس، اما الكبراء فهم أصحاب الوجاهه الاجتماعيه، أو الاقتصاديه، و عموم الجهات التى يتبعها الإنسان لمصلحه معينه بإرادته المجرده و ليس للخوف منها، و كان من الحرى بهم الطاعه لله و لرسوله، خوفا من عذاب الله، و رغبه فى ثوابه و رضاه.

و نستوحى من هذه الآيه بالاضافه الى سابقتها: ان السبيل يعنى القيادة الرساليه، ذلك ان القيادات المنحرفه ليس تضل الإنسان عن المنهج السليم و حسب، بل و تضله عن القيادة الصالحه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام فى خطبه له يوم الغدير:

و تقربوا الى الله بتوحيده، و طاعه من أمركم أن تطيعوه، و لا تمسكوا بعصم الكوافر، و لا يخلج بكم الغي فتضلوا عن سبيل الرشاد باتباع أولئك الذين ضلوا و أضلوا، قال -عز من قائل- فى طائفه ذكرهم بالدم فى كتابه: «إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا» (١) و قال على بن إبراهيم فى تفسيره: «فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا» أى طريق الجنه، و السبيل أمير المؤمنين صلوات الله عليه. (٢)

(٦٨) و عاده ما يبحث المضللون عن أعذار ترفع عنهم مسئوليه الانحراف، و تلقيها على كاهل الساده و الكبراء منهم، و قد يستطيعون خداع الناس فى الدنيا بسببها، و لكن انى لهم خداع الله؟! رَبَّنَا آتِنَهُم السَّادَه وَ الكُبَرَاء.

ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعُنْهُم لَعْنَا كَبِيرًا وَ اللهُ سوف يعذب هؤلاء ضعف الآخرين و أكثر، الا ان ذلك لن يرفع عن

ص: ٣٩٩

١- ٦) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٣٠٨).

٢- ٧) المصدر و الصفحه.

أولئك العذاب،انما سيمكثون فى السعير خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً .

(٦٩) ثم يحذر الله المؤمنين مباشرة بعد تحذيرهم الضمنى بالتعرض الى حال المضللين فى الآخرة من الصبر الذى انتهى اليه أولئك باتباعهم القيادات المضله، فهى دوما تسعى لإشاعه الأفكار الخاطئه، والأراجيف و الدعايات الباطله حول قياده الحق لفض الناس من حولها،و جرهم نحوهم عن طريق الاعلام.

يقولون: لا تنصاعوا لهذه القياده فانها تورطكم،و تعرضكم للسجن و القتل و التشريد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا مَا تثيره القيادات المضله من شائعات حول القياده الرساليه سوف تنفضح، لأن حكمه الله و بالتالى قوانين الحياه و سننها قائمه على نصره الحق و أهله.

وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (٧٠) و لان الشائعات الباطله قد تتلاقفها الألسن دعا الله المؤمنين الى الكلمه الصالحه،و الى تحمل مسئوليته الكلام، و لا- يتم ذلك الا بالتفكير و الاستقراء المنطقى، و قبل ذلك كله بتقوى الله، ذلك ان التقوى تصنع فى النفس نوعا من الرقابه الذاتيه و المحاسبه، فالمتقى يخشى من اتهام الآخرين، و من المشى بالغيبه و النميمه، و هذه الأمور من مقومات الاعلام المنحرف، و الشائعات.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً

و لا يكون القول سديدا حتى يكون سليما، و فى وقته المناسب، و لا يكون كذلك الا بالتفكير و النظر الى الواقع و المستقبل. و الذى يميز المؤمن عن المنافق ان المؤمن يتحمل مسئوليته كلامه، فهو يفكر كثيرا قبل الكلام، بينما المنافق يبادر بالحديث دون رؤيه فيبتلى بكلام،

و فى الحديث:

«و ان لسان المؤمن من وراء قلبه، و ان قلب المنافق من وراء لسانه» (١) و لو تكلم المؤمن بكلام ثم اكتشف أنه كان خطأ اعترف بالخطأ، و تراجع عن موقفه و كلامه، اما المنافق فتأخذه العزه بالإثم.

قال ابو عبد الله عليه السلام لعباد بن كثير البصرى الصوفى:

«ويحك يا عباد! غرك ان عف بطنك و فرجك! إن الله- عز و جل- يقول فى كتابه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ اعلم انه لا يقبل الله عز و جل منك شيئا حتى تقول قولاً سديدا» (٢)

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله و قد سأله أحدهم: و هل يحاسبنا ربنا على ما نقول؟! قال:

«و هل يكب الناس فى النار الا حصائد ألسنتهم؟!» (٣) (٧١) و لكى يكون كلامنا سديدا يجب ان نبتعد عن التبرير، و الكذب و النميمه، و الغيبه، و التهمه، و كل آفات اللسان، و هذا ينعكس مباشره على سلوكنا، و سلامه تحركنا فى الحياه.

ص: ٤٠١

١- ٨) نهج البلاغه/خ(١٧٦)/ص(٢٥٣).

٢- ٩) نور الثقلين/ج(٤)/ص(٣٠٩).

٣- ١٠) بحار الأنوار/ج(٧٧)/ص(٩٠).

يُضِلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

و في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام :

«ان الله جعل للشر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، و شر من الشراب الكذب» (١) وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا وَ السُّؤالُ: ما هي العلاقة بين صلاح الأعمال و الطاعة لله و للرسول؟ من خلال السياق القرآني نكتشف ان الكلام السديد هو الكلم الحق الطيب و الذي يدعم التسليم لله و لرسوله.

(٧٢) و التسليم للقياده هو الامانه، و هو من أبرز تجليات الإراده البشريه.

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ لَكِنِ الْإِنْسَانُ تَحَمَّلَهَا، و بظلمه و جهله الذين ارتكز فيهما يخون هذه الامانه.

وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا الظلوم صيغه المبالغه من الظلم، و الجهوله صيغه المبالغه من الجهل، و هذا يشير الى انهما صفتان مغروزان في الإنسان، و هما من طبيعته العدميه الضعيفه، و هو يستطيع التغلب على هاتين الطبيعتين عن طريق العمل الصادق، و الوعي الدائم،

ص: ٤٠٢

و بالتالى عن طريق اتصاله برسالة الله و تسليمه له و لأوليائه،من الرسل و الأئمة و القيادات الصالحة.

(٧٣) وهذا هو أبرز مصاديق تحمل الأمانة،التي يتحدد مصير الإنسان حسب موقفه منها،فمن يخونها-و هم المنافقون و الكفار- يصير الى الجحود و العذاب، و من يراها و يحفظها يصير الى التوبة و الثواب.

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ عَلَىٰ خِيَانَتِهِمْ وَرَغِبَتِهِمْ عَنِ التَّسْلِيمِ.

وَ يُتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَإِنَّمَا أَخْطَأُوا بِأَجْوَاجِهِمْ لَا بِأَفْئِدَتِهِمْ وَأَلْبَابِهِمْ يُضَلُّونَ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُفِّرُوا بَعَدَ إِذْ فَهِمُوا بِبُرْءِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا و الطريف هنا ان تنتهى هذه السوره-التي اشتملت على آيات العذاب و العقاب-بالإشارة الى غفران الله و رحمته،مما يعمق فينا-نحن البشر-الملفوفين بالظلم و الجهل الأمل بربنا عز و جل.

الإمانه فى الأحاديث:

و ختاماً لتفسير هذه السوره نذكر جانباً من الأحاديث التي ركزت على تفسير الأمانة بأنها التسليم للقياده الرساليه:

-١

قال الامام الرضا عليه السلام و قد سأله الحسين بن خالد عن قوله عز و جل: إِنَّا

ص: ٤٠٣

عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ... الْآيَةَ..فقال:

«الامانه الولايه من ادعاها بغير حق كفر» (١)

وقال ابو بصير: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: [□]إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ.. الْآيَةَ قَالَ:

«الامانه الولايه» (٢)

و عنه عليه السلام قال:

«هى ولايه أمير المؤمنين عليه السلام» (٣)

وقال ابو جعفر عليه السلام: فى قول الله تبارك و تعالى: [□]إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا قَالَ:

«الولايه، أبين أن يحملنها كفراء، و حملها الإنسان» (٤)

و فى كتاب الاحتجاج للطبرسى رحمه الله، عن أمير المؤمنين عليه السلام فى حديث طويل يقول فيه عليه السلام لبعض الزنادقه، و قد قال:

و أجده يقول: [□]«إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» فما هذه الامانه و من هذا الإنسان؟ و ليس من صفه العزيز الحكيم التليس على عباده؟ و اما الامانه

ص: ٤٠٤

١- (١٢) نور الثقلين/ج(٤)/ص(٣٠٩).

٢- (١٣) المصدر/ص(٣١١).

٣- (١٤) المصدر/ص(٣١٢).

٤- (١٥) المصدر/ص(٣١٣).

التي ذكرتها فهي الامانه التي لا- تجب و لا- تجوز ان تكون الا- في الأنبياء و أوصيائهم، لا-ن الله-تبارك و تعالى-أئتمنهم على خلقه، و جعلهم حججا في أرضه، و السامري و من اجتمع معه و أعانه من الكفار على عباده العجل عند غيبه موسى عليه السلام ما تم انتحال محل موسى من الطعام، و الاحتمال لتلك الامانه التي لا ينبغي الا لظاهر من الرجس فاحتمل وزرها و وزر من سلك سبيله من الظالمين و أعوانهم، و لذلك قال النبي صلى الله عليه و آله: من استن سنه حق كان له أجرها و أجر من عمل بها الى يوم القيامة، و من استن سنه باطل كان عليه وزرها و وزر من عمل بها الى يوم القيامة (1)

ص: ٤٠٥

١-١٦ الاحتجاج/ص (٢٥١).

سوره سبأ

اشاره

ص: ۴۰۷

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره:

-١

روى عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله انه قال:

«من قرأ سوره سبأ لم يبق نبى ولا رسول الا كان له يوم القيامة رفيقا و مصافحا» (نور الثقلين/ج(٤)/ص(٣١٤))

ص: ٤٠٩

أقتبس أسم السوره من قصه مشهوره عند العرب، و قد بين القرآن عبرتها الأساسية و هى قصه حضاره سبأ، التى دمرت بسبب العرم لانحرافها و فسادها.

تشابه آيات الذكر فى بيان مسئوليته الإنسان عن أفعاله، و تفنيد الأعذار التى يتشبث بها البشر للفرار عنها بزعمه.

و من غرر السور التى تزرع الأحساس بالمسئولية الذى لو ترسخ فى قلب الإنسان زكاه، و أصلح أعماله، هى سوره «سبأ» التى تذكرنا أيضا بالوحي المنزل على النبى صلى الله عليه و آله .

و واقع الجزاء (المسئولية) تجل لاسمى الحكيم الخبير اللذين نحمد الله بهما، فهو العالم بما يلج فى الأرض و ما يخرج منها (٢/١).

و عند قيام الساعه يتجلى الجزاء بأبرز صورته، حيث لا ينفع تشكيك الكفار بها، و حيث يحيط الرب علما بكل شىء، لا يعزب عنه مثقال ذره، و حيث الجزاء الوافر للصالحين، و العذاب الأليم لمن يسعون فى آيات الله معاجزين (معاندين و متحدين) (٥/٣).

و ينقسم الناس فريقين تجاه الوحي: فبينما يراه أهل العلم هو الحق، يستهزأ به الكفار، و يقولون: هل الرسول مفتر أم به جنه؟! كلا.. بل أنهم لا يؤمنون بالآخره فهم فى العذاب و الضلال البعيد.

و ينذرهم الذكر بأن كفرهم برسالات الله قد يعرضهم لعذابه، الذى ان شاء خسف بهم الأرض أو أسقط عليهم من السماء كسفا (٩/٧).

و يعرض السياق صورتين للحضاره: أولهما صالحه حيث استمرت، بينما الثانيه دمرت لفسادها، و هما بالتالى صورتان بارزتان لواقع الجزاء و المسؤليه.

فلقد أتى الرب داود فضلا، و ألان له الحديد، و علمه صنعه الدروع السابغه، و سخر لسليمان الريح، و سخر له الجن، و أمر داود و سليمان بالشكر له، فاستمرت حضارتهما الى ما بعد موت سليمان، الذى ما دل على موته إلا الأرضه التى أكلت عصاته، فعلمت الجن أنهم بقوا فى العذاب لجهلهم بالغيب (و بالتالى لا يجوز الاعتماد عليهم للهروب من الجزاء كما زعم الجاهليون).

أما الصوره الثانيه فتمثل فى قصه سبأ، الذين أتاهم الله جنتين عن يمين و شمال، و أمرهم أيضا بالشكر، فأعرضوا، فأرسل عليهم سيل العرم.

و مثلهم مثل القرى الآمنه التى بارك الله فيها، فكفرت، فجعلهم الله أحاديث يعتبر بها كل صبار شكور (١٩).

و ينسف القرآن الكريم أسس التبرير التي يعتمد عليها الكفار، و التي هي في ذات الوقت حجب للقلب، و غشاوه للبصر.

الف: إلقاء اللوم على إبليس الذي صدق عليهم ظنه، و يؤكد الذكر انه لا سلطان له عليهم، و إنما يبتلى الله به الناس، ليعلم من هو المؤمن حقًا بالآخره ممن هو منها في شك.

باء: الأنداد الذين يزعمون أنهم يغنون عنهم شيئًا، و يجرمون اعتمادا عليهم، إنهم لا يملكون مثقال ذره في السموات و الأرض، و لا- شرك لهم في السلطه، و لا لهم أعوان و أعضاء، و لا تنفع شفاعتهم إلا لمن أذن الله له، كما أنهم لا يملكون للناس رزقا، و لا يتحملون عنهم وزرا.

جيم: إن الناس إما على هدى أو في ضلال مبين، و إن أهل الصلاح لا يزررون من مسؤليه المجرمين شيئًا (٢٧/٢٠).

و يذكر السياق بأن الرسول بشير و نذير لكافه الناس، و أن وعد الله آت، لا- يستأخر ساعه و لا- يستقدم ساعه، و يصور لهم مسؤليتهم عن إيمانهم بالرساله، و أن جزاء كفرهم اليوم يتجلّى عند قيام الساعه، حيث يتلاوم الكفار، و يلقي بعضهم المسؤليه على عاتق البعض الآخر.

دال: يلقي المستضعفون اللوم على المستكبرين، و لكنهم لا- يتحملون عنهم وزرا، بل يقولون لهم: انكم كنتم مجرمين. و حين يشترك الجميع في الأغلال يعلمون أنهم كانوا جميعا مسؤلون عن أعمالهم (بشهاده أنهم في العذاب مشتركون).

هاء: كثره الأموال و الأولاد لا ترفع عن أصحابهما الجزاء و المسؤليه، و يزعم

المترفون الذين كفروا بالرسالات الالهيه:أنهم غير معدّيين،و يفند الذكر هذه الفكره بما يلي:

أولاً:إنّ الرزق من الله،فكيف يقف حاجزا دون جزاء الله؟ ثانياً:إنّ الأموال و الأولاد لا يقربونهم عند الله زلفى الا بقدر الاستفاده منهما فى العمل الصالح و الإنفاق،و يعود القرآن ليذكرنا:أن الإنسان مسئول عن رفضه،و أنّ الذين يسعون فى آيات الله معاجزين يحضرون للجزاء غدا عند ربهم.

واو:إنّ بعضهم كانوا يعبدون الجن،و يزعمون أنهم يعبدون الملائكه(كل ذلك ليستمروا فى جرائمهم اعتمادا على شفاعة الملائكه)و يرفضهم الملائكه.

و يبين الرب أنهم لا يملكون لبعضهم نفعاً و لا ضرراً،و أن الظالمين مجزيون بالنار (و لا ينقذهم ادعاؤهم الانتماء الى الملائكه من جزاء ظلمهم)(٢٨/٤٠).

و يكشف القرآن الحجب التى يتلبس بها قلب الكافر الواحد بعد الآخر:

أولاً:حجاب التقليد.حيث تراهم يتهمون رسولهم بالافتراء أو بالسحر لأنه يريد ان يصدّهم عما كان يعبد آباؤهم.

و يقول الذكر:إن آباءهم لم ينزل عليهم كتاب يدرسونه،و لا بعث فيهم نذير (حتى يفتخروا بآبائهم الذين لم يكن لهم رساله و لا معرفه).

ثانياً:حجب الغرور.حيث تجدهم يكذبون بالرساله اعتمادا على قوتهم،فى حين أنّ قوه الأمم الغابره التى كانت أكثر من هؤلاء عشرات المرات لم تدفع الجزاء المتمثل فى العذاب النكير.

ثالثاً: حجاب الغفلة. حيث يدعوهم الرب للقيام من أجل الله، و التفكير في رسولهم ليعرفوا دلائل الصدق فيه. فهو ليس بمجنون و لكنه يرى عذاباً شديداً فينذر به (و هذا هو دليل حماسه الكبير الذي فسّره الكفار بالجنون) و هو لا يطلب أجراً إلا ما يعود بالتالي إليهم، و هذا شاهد صدق على أنه حق.

ثم إنّ الرب يشهد له بالصدق، و هو على كل شيء شهيد، فهو يقذف بالحق فيهدم أركان الباطل فلا يتجدد و لا يعود.

و يؤكّد ربنا أنّ خساره الضلاله تعود على صاحبها (فالإنسان مجزى بضلالته شاء أم أبى) (٥٠/٤١).

و يحذّر الرب من مغبّه الضلاله، حيث لا يفوت أحد منهم من قبضه العداله، بل يؤخذون من مكان قريب، فيقولون: آمنا! و لكن هيهات لقد فات الآوان، و هنالك حيل بينهم و بين ما يشتهون كما فعل بأتباعهم من قبل. كل ذلك بسبب أنهم كانوا في شك مريب (٥٤/٥١).

ص: ٤١٥

[سوره سبا (۳۴): الآيات ۱ الى ۶]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱)
يَعْلَمُ مَا يُلَاجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (۲) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا
السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصِغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ
إِلَّا- فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (۳) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا
مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۵) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۶)

اللغه

۲[يلج]:يدخل.

[يعرج]:يصعد.

۳[لا يعزب]:لا يفوته ولا يخفى عليه.

ص: ۴۱۶

٥]معاجزين[:المعاجز الذي يحاول إبطال حجه الطرف الآخر، و قيل مشيطين.

[رجز أليم[:العذاب السيء.

ص:٤١٧

هدى من الآيات:

تبدأ هذه السوره المباركه بالحمد، و بذكر اثنين من أسماء الله، و هما الحكيم الخبير، و من خصائص القرآن انه يبين آياته و عبره، بعد التمهيد لها ببراعه الاستهلال، و هو بدء المتكلم بالاشاره الى حديثه، و فى القرآن الحكيم نجد بيانا للموضوعات التى يفصلها السياق بعدئذ عبر ألفاظ مجمله، مما يدل على نزول الوحي من عند الله، إذ لا يقدر أحد على التحدث بهذا الإجمال و التعبير، و بهذه الاحاطه غير الله.

و عند البحث عميقا فى هذه السوره التى تبدأ بالحمد، نجد إشارات و تجليات لاسمى الحكيم و الخبير، و حديثا عن جوانب من انعكاساتهما فى الحياه، و هكذا نبدأ المعارف الالهيه و القرآنيه كما الدين بذكر الله، و تنتهى اليه،

و فى الحديث:

«أول الدين معرفته» (١)

ص: ٤١٨

و هكذا تتركز المعرفه ثم تتسع و تعود بعدها لتتركز مره أخرى.في البدء نتعرف على أن ربنا حميد و حكيم و خبير، ثم نفتش في الحياه و إذا بها تدلنا بما فيها من سنن و أنظمه على ذلك، و النظره الكليه للحياه (الفلسفه العامه) يجب أن توفر للإنسان الإجابه على السؤال التالي: ما هي السنن و الأنظمه العامه التي تسيير الحياه؟ و بتعبير آخر: ان الحكمه (الفلسفه) هي التي تبصرنا بحقيقه أنفسنا، و ما يحيط بنا من الخلائق، و بما تحكمها من سنن ثابتة، و بالتالي تجعلنا قادرين على معرفه أفضل و عمل أصلح. و هذه الحكمه نجدها مفصله في كتاب ربنا الحكيم، و أكثر آيات الذكر تبصّرنا بتعابير ظريفه يستطيع أن يستوعب مضامينها حتى الطفل الصغير، و بشكل متكامل، فقولته الحمد لله الحكيم الخبير يشتمل على حقائق كثيره في الحكمه العامه، لأنه يحدّد بدايه الكون و نهايته و هدفه، و انه قائم على علم و نظام يتجليان في كل جزء و جزء منه، لأنّ خالقه هو الله الذي يملك السموات و الأرض حاضرا و مستقبلا مما يوجب علينا الحمد له في كل مكان و زمان.

و الخبير هو المحيط بدقائق الأمور نظريا و عمليا، و من مصاديق خبره انه يحيط علما بكل ما يلج في الأرض و ما يخرج منها حتى الغازات التي تمتصها الأرض أو التي ترفضها، يعلم الله وزنها و حجمها و طبيعتها، كما يحيط علما بكل ما ينزل من السماء و ما يعرج إليها، و ألطف ما يعرج هو النيه الحسنه و العمل الصالح اللذان يرفعهما الله.

ثم يشير السياق الى أحد تجليات الحكمه الالهيه، حينما يذكرنا بأنّ الله عادل في جزائه للناس، فالذي يعمل الصالحات يجازيه بالمغفره و الرزق الكريم، بينما يعذب الذين يعملون السوء برجز أليم.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: يَا أَيُّهَا الْقَارِئُ لِلْقُرْآنِ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَ الْحَالُ أَنَّنَا لَا نَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرِ كَلِمَةِ «قُلِ» لِأَنَّ جَمْلَةَ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» مَفِيدَةٌ لِمَعْنَى الْمَطْلُوبِ، فَالْحَمْدُ التَّامُّ الدَّائِمُ لِلَّهِ تَعَالَى شَيْئًا أَمْ أَبِينَا، قُلْنَا أَمْ سَكْتْنَا، عَرَفْنَا أَمْ جَهَلْنَا، وَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْحَمْدِ مِمَّنْ خَلَقَ فَرَزَقَهُ، وَ قَدَّرَ فَالْهَمُّ، وَ صَوَّرَ فَأَحْسَنَ.

الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ مَا فِي الدُّنْيَا صُورُهُ مُصَغَّرُهُ وَ مَحْدُودُهُ مِمَّا فِي الْآخِرَةِ، وَ حِينَ نَتَذَكَّرُ بِالْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَبَّنَا حَمِيدٌ فِي الدُّنْيَا نَعْرِفُ أَنَّهُ حَمِيدٌ فِي الْآخِرَةِ.

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَ مِنْ آيَاتِ حَمْدِهِ حِكْمَتُهُ وَ خَبْرُهُ.

وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٢) وَ لَكِنْ مَا هِيَ تَجْلِيَاتُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الْإِلَهِيَّتَيْنِ؟ يَحْدِثُنَا الْقُرْآنُ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ (خَبْرِهِ) أَوَّلًا، وَ ذَلِكَ عِنْدَ مَا يَعْرِفُنَا بِإِحَاطَتِهِ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، وَ عَنْ حِكْمَتِهِ ثَانِيًا، وَ ذَلِكَ عِنْدَ مَا يَذَكِّرُنَا بِجَزَائِهِ الْعَادِلِ لِلْخَلْقِ.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ

وَ مَا يَخْرُجُ فِيهَا فَاللَّهُ مَحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ خَبْرًا، وَ جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ» مَا يَدْخُلُ فِيهَا» وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا» قَالَ: مِنَ النَّبَاتِ «وَ مَا يَخْرُجُ فِيهَا» قَالَ: مِنَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ (١) وَ لَكِنَّ اللَّهَ لَا يَتَّخِذُ عِلْمَهُ وَسِيلَةً لِيُضَارَّ بِهَا الْبَشَرُ، بَلْ هُوَ رَحِيمٌ بِهِمْ، وَ بَعَلْمَهُ يَرْحَمُهُمْ، وَ إِذَا عَلِمَ مِنْهُمْ ذَنْبًا فَإِنَّهُ يَغْفِرُهُ لَهُمْ.

وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ

رَوَى أَبُو بَصِيرٍ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ:

«لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ مَلَكَاتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ التَّفَتَّ فَرَأَى رِجَالَ يَزْنِي، فَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ، ثُمَّ رَأَى آخَرَ فَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ، ثُمَّ رَأَى ثَلَاثَةَ فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَمَاتُوا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّ دَعْوَتَكَ مُسْتَجَابَةٌ فَلَا تَدْعُ عَلَيَّ عِبَادِي فَإِنِّي لَوْ شِئْتُ لَمْ أُخْلِقَهُمْ» (٢) (٣) وَ إِذْ يَذْكُرُنَا الْقُرْآنُ بِأَسْمَاءِ رَبِّنَا الْحَسَنِيِّ - وَ أَنَّهُ حَكِيمٌ خَبِيرٌ وَ عَلِيمٌ - فَلِكِي يَنْعَكُسُ ذَلِكَ عَلَيَّ وَ عَيْنَا وَ سَلُوكُنَا. أَوْ لَيْسَ رَبَّنَا حَكِيمًا، إِذَا لَا بَدَّ مِنْ يَوْمِ الْجَزَاءِ، وَ إِنَّمَا يَكْفُرُ الْبَعْضُ بِالسَّاعَةِ تَهْرَبًا مِنْ حَقِيقَةِ الْجَزَاءِ.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ وَ هَكَذَا بِهِذِهِ الْبَسَاطَةِ أَرَادُوا التَّمَلُّصَ مِنْ ثِقَلِ الْمَسْئُولِيَّةِ، بِيَدِ أَنَّ رَبَّنَا الْجَبَّارُ قَالَ لَهُمْ كَلِمَتَهُ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا:

ص: ٤٢١

١-٢) نور الثقلين/ج(٤)/ص(٣١٤).

٢-٣) المصدر/ج(١)/ص(٧٣٢).

بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ وَ حِينَ تَعْرَضُونَ أَمَامَ رَبِّكُمْ تَعْرِفُونَ أَنَّ كِتَابَ رَبِّكُمْ قَدْ اِحْتَوَىٰ كُلَّ صَغِيرَةٍ وَ كَبِيرَةٍ مِنْ أَعْمَالِكُمْ.

عَالَمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَ لَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٤) وَ يَبِينُ الْقُرْآنَ الْهَدْفَ مِنَ السَّاعَةِ، وَ بِالتَّالِي الْهَدْفَ مِنَ التَّذَكُّرِ بِالرَّقَابَةِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى الْعِبَادَةِ، الْإِ وَ هُوَ إِثْبَاتٌ تَحْقِيقُ الْعَدْلِ الشَّامِلِ، الْأَمْرَ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ الْحِسَابَ الْحَقَّ..الَّذِي لَا يَغْفُلُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَصْدُرُ مِنَ الْبَشَرِ مَهْمَا كَانَ صَغِيرًا.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ فَمَا دَامَتْ مَسِيرَةُ الْمُؤْمِنِ الْعَامَّةُ هِيَ الصَّلَاحُ، فَإِنَّ مَا يَشُوْبُهَا مِنْ ذُنُوبٍ بِسَبَبِ غَفْلَتِهِ، يَفْتَدِيهَا اللَّهُ بِغَفْرَانِهِ، كَمَا يَشْبِيهِ عَلَى إِيمَانِهِ وَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ بِأَلْوَانِ الرِّزْقِ الْكَرِيمِ، الَّذِي يَصِفُهُ الْحَدِيثُ بِمَا لَا عَيْنَ رَأَيْتَ وَ لَا أُذُنَ سَمِعَتْ وَ لَا خَطَرَ عَلَى بَالِ بَشَرٍ.

(٥) مَوْقِفَ الْمُؤْمِنِ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ هُوَ التَّسْلِيمُ الَّذِي يَسْمُو بِهِ إِلَى دَرَجَةِ رُؤْيِهِ الْحَقَّ مُبَاشَرَةً، بَيْنَمَا مَوْقِفَ الْكَافِرِ الرَّفْضُ، وَ لَكِنْ كَيْفَ يَرْفُضُ الْبَشَرُ الْمَزُودَ بِالْعَقْلِ الْحَقِيقَةَ الَّتِي تَتَرَى عَلَيْهَا شَوَاهِدٌ لَا تَحْصِي؟ أَوْ تَقْدِرُ الْعَيْنُ أَنْ تَنْزُورَ عَنْ أَشْعَةِ الشَّمْسِ بِسَهْوِهِ؟! كَلَّا..كَذَلِكَ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يَرْفُضَ الْإِنْسَانُ الْحَقَائِقَ الْكُبْرَى الَّتِي يَذْكُرُ

بها الوحي، كحقيقه المسؤوليه إلا بصعوبات بالغه، لذلك فهم:

أولاً: يسعون سعياً حثيثاً-و ببالغ الجهد-من أجل إثبات كفرهم الباطل، و إقامة الأدله على ضلالتهم.

ثانياً: هدفهم من هذا السعى ليس إقناع أحد بالحقيقه، وإنما إسكات المؤمنين و إعجازهم بإثارة الشبهات حول الحقائق، كلما ردت لهم شبهه منها أعدوا شبهه جديده مكانها، فهم لا يهدفون الاقتناع بحديث الطرف الآخر، و لا إقناعه لأنهم على باطل، و إنما يهدفون أن يخصموه موقتاً، لكي لا تقتحم أدله الحق رحاب قلوبهم.

وَ الَّذِينَ سَاءَ عَوَا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ وَ آيَاتِ اللَّهِ هِيَ شَوَاهِدٌ صَادِقَةٌ رِسَالَاتِهِ، وَ التَّعْبِيرُ بِمُعَاجِزِينَ بِالغِ الدَّقِ حَيْثُ انَّ الطَّرْفَ الثَّانِي (و هم المؤمنون) يحاولون إقناعهم أيضاً، و بالتالي محاوله إعجازهم (إيصالهم الى حد العجز عن الأدلاء بحجه جديده) فكل طرف يحاول إعجاز الطرف الثاني، و هذه الكلمه توضّح استراتيجيه الاعلام عند الكفار القائمه فقط على أساس إسكات الخصم، و طمس معالم الحق أمام عينيه.

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ الرَّجْزُ - كَمَا قَالُوا - أَشَدُّ الْعَذَابِ، وَ لَعَلَّهُ يَشِيرُ إِلَى مَا يُقَابَلُ الْكَرِيمَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَ عَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَاهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِيهِ الذُّلُّ وَ الْهَوَانُ، أَوْ لَيْسُوا قَدْ تَكَبَّرُوا، فَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الصَّغَارَ وَ الرَّجْزَ.

(٦) و من الناس من يعرج به اليقين درجه يرى الحق واضحاً لا ريب فيه،

أولئك هم أولوا العلم.

وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْعِلْمَ هُنَا - ليس مجرد المعلومات التي يخترنها الذهن البشرى، ولا الألفاظ المتشابهة التي تتراحم في ذاكره المعاجزين من أدياء العلم، وإنما هو ذلك النور الإلهي الذي يشرق على القلب فيجد الحقائق وجدانا، ويعيها وعي درايه لا وعي روايه، حتى

يقول أمثلهم هدى أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَوْ كَشَفَ لِي الْغُطَاءَ مَا ازددت يقينا» الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ فَهَمَّ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ، وَيُرُونَ مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ، فَيَعْرِفُونَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَقُّ التَّامُّ الَّذِي لَا يَشُوبُهُ هَوًى، وَلَا يَخَالِطُهُ بَاطِلٌ أَوْ جَهْلٌ هُوَ هَذَا الْوَحْيُ الْمَنْزَلُ.

وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ وَالَّذِي يُؤْتِي الْعِلْمَ هُوَ الَّذِي يَحِيطُ بِهِ، فَيَسْتَطِيعُ فَهْمَ الْقُرْآنِ، وَ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ، بَيْنَ الدُّسَاتِيرِ وَ الْمَنَاهِجِ الْحَدِيثِ الْمَضْلُوعِ وَ بَيْنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ، كَمَا مَيَّزَ سِحْرَهُ فِرْعَوْنَ بَيْنَ حَبَالِهِمْ وَ عَصِيهِمْ الَّتِي يَخْتَلِجُ لِلنَّاسِ أَنَّهَا تَسْعَى وَ بَيْنَ آيَةِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

و لعل اختيار اسمي العزيز الحميد، من بين أسماء الله الحسنی، جاء انسجاما مع الجو العام للسوره، التي هي تجليات اسم الحمد، و لأنَّ الإنسان يتطلع الى العزه و حميد الخصال، فلما رأى أولوا العلم الوحي عرفوا أنه يحق ذلك الطموح.

ص: ٤٢٤

و يبدو أنّ الآيات الثلاث تبين ثلاثه نماذج من الناس: المسلمون أولاً ثم الكفار ثم الصديقون.

ص: ٤٢٥

اشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتُرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَنَ نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ الْأَنْعَامَ لَهَّ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ إِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ إِعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوْحُهَا شَهْرٌ وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَرِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ (١٣)

اللغة

٩ [كسفا]: أى قطعاً.

١٠ [أوبى] التأويب الترجيع بالتسييح، و أوبى معه أى سبى معه.

ص: ٤٢٤

١١[سابغات]:السايف التام من اللباس.

[السرد]:سرد الحديد نظمه،و السرد هو نسج الدرع، مأخوذ من سرد فى الكلام إذا تابع بعض جملة بعضا، وقدر فى السرد أى أحكم صنعتك فى نسج الدروع،فلا تكون حلقه فى الدرع وسيعه و الأخرى ضيقه بل متشابهه و متساويه.

١٢[غدوھا]:حركة الريح فى الغدوه و هى الصبح الى نصف النهار.

[رواحها]:جريها مساء من العصر حتى الليل.

[عين القطر]:عين النحاس،و المراد بالعين معدنه حتى يتمكن من استعماله فى الظروف و الأوانى و يصنع به كيف يشاء.

[يزغ]:ينحرف و يميل.

ص:٤٢٧

١٣[محراب]: جمع محراب، و المحراب هو محل العباده و الصلاه، و لعل المراد بها المساجد، و انما سُمى محراباً لأنه محل المحاربه مع الشيطان و النفس.

[تماثيل]: جمع تمثال، و هو الشئ المصنوع من معدن أو طين أو حجر أو خشب، كتماثيل القصور و الأشجار و الأنهار و غيرها، و قال صاحب المجمع أنها تماثيل الحيوانات لأنها لم تكن محظوره فى ذلك الوقت.

[جفان كالجواب]: الجفان هى القصاع و ظروف الأكل، و الجواب جمع جاييه و هى الحوض العظيم يجبى فيه الماء.

[قدور راسيات]: جمع قدر و هو ما يطبخ فيه الطعام، و راسيات جمع راسيه بمعنى الثابته فى الأرض، الكبير الذى يراد دوام الطبخ فيه بينى فى الأرض حتى لا يزول و لا يتحرك.

ص: ٤٢٨

هدى من الآيات:

استلهاما من اسمى الحميد العزيز لربنا عز وجل، وانطلاقا من الحديث عن البعث والنشور، وبياننا لبعض الشبهات التي يبثها المشركون إنكارا للمعاد يحدثنا هذا الدرس -من بدايته- عن استنكارهم الظاهر لحقيقته النشور بعد الموت والتمزق.

إنّ الكثير من الذين ينكرون الحقائق إنّما ينكرونها لأنّها أكبر من أفقهم وتفكيرهم الضيقين، وهذه من مشاكل البشر المعقّده، إنهم يكفرون بكل ما لم يصل اليه علمهم وعقلهم، ولكنّ الله يضرب لهؤلاء فكره البعث فيقول: صحيح ان ذلك من المستحيلات بالقياس الى قدره البشريه، ولكنه ممكن عند الله الذى يجمع الزمان والأعضاء ليعيد الخلق من جديد. وحتى يكون هذا الحديث مقبولا- من الناحيه المنطقيه و الفطريه، يدعو ربنا هؤلاء الى التفكّر فى الآيات من حولهم، لأنّها من مظاهر القدره لربنا الحميد.

و لعل لهذا التأكيد المتكرر في القرآن على ضروره التفكير في آيات الله فائده مهمه هي: إرساء قاعده صلبه للبحث العلمى الرصين عند الإنسان الذى اعتاد-و من أول يوم عملت حواسه-على هذه الآيات، و ألفها حتى أصبحت لا تثير انتباهه، لكنّه لو نظر إليها و كأنها جديده و بقلب متفتح، و عقل منير، لازداد علما، و توسع أفقه، مما يجعله أقدر على استيعاب الحقائق و تفهمها.

ثم يضرب القرآن لنا مثلا من حياه داود و ابنه سليمان على نبينا و آله و عليهما السلام حيث ان قصصهما تجليات لاسمى العزيز الحميد.

فقد بلغ داود من الملك و السيطره مبلغا عظيما، حتى شملت هيمنته الطبيعه فكانت الجبال و الطيور تسبح معه، و الحديد طوع يده يصوغه كيف يشاء، اما سليمان فقد ورث ملك والده، و زاده الله عليه ملكا، و هذه القصص و الأمثال تفتح أمام البشر آفاقا، و تدعوهم الى السير فيها و الوصول الى أبعادها، فقصة داود توحى بإمكانيه تسخير الطير و الحديد لخدمه الحضاره الإنسانيه، و قصة سليمان تشير الى إمكانيه الاستفاده من الريح.

بينات من الآيات:

(٧) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ هُمْ يَسْتَهْزِءُونَ، وَ يَحَاوِلُونَ الْاِتِّتْقَاصَ مِنَ الرِّسُولِ وَ الرِّسَالَةِ.

هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزِّقٍ أَى تَفَرَّقَتْ أَعْضَاؤُكُمْ، وَ تَمَزَّقَتْ بَدَا.

إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

ص: ٤٣٠

(٨) ثم يتساءلون بحيرتهم.

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا هَلْ مَا يَدْعِيهِ افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ؟! ثم عادوا الى وجدانهم فعرفوا أنّ الرسول لا- يمكن ان يفترى على ربه الكذب، و هو الصادق الأمين، و قد بين بوضوح العقاب الذى ينتظر الذين يفترون على الله الكذب، ثم إنّه أوّل المصدقين بالبعث، و العاملين بما يستوجه هذا التصديق. ألا يرون كيف يكاد يشقى نفسه بالعباده حتى نزلت عليه الآية: طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى؟! لذلك تراهم عادوا و أكّدوا انه ليس مفتريا، ثم إنهم بكفرهم قالوا فيه قولا كبيرا، لأنهم كانوا من المعاجزين الذين يعملون بجهدهم على مقاومه القرآن، قالوا:

أَمْ بِهِ جِنَّةٌ وَ هِيَ الْجَنُونَ، و يجيب القرآن على هذه التساؤلات بأن المشكله ليست فى الحقائق التى بينها الرسول، و لا- فى أسلوبه، حتى يتهم بالكذب تاره، و بالجنون أخرى، إنّما المشكله فى الكفّار أنفسهم، و مشكلتهم هى ضيق الأفق فلا يستوعبون النشور بعد الموت، و السبب كفرهم و عدم اتباعهم المنهج السليم الذى يقودهم إلى الحقائق.

بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَ الضَّلَالِ البَعِيدِ قالوا: إنّ العذاب هنا يقابل افتراءهم على رسولهم بالكذب، بينما الضلال يقابل نسبه الجنون عليه. (١)

ص: ٤٣١

و يبدو لى أنّ السياق يؤكد على أنّ السبب فى كفر هؤلاء بالرسول يكمن فى كفرهم بالآخريه الذى يجعلهم يواجهون الحقائق دائما فيعيشون العذاب. أ رأيت كيف يعانى من يعارض حكومه قاهره، كيف يحيط به العذاب، كذلك الذين لا يؤمنون بالآخريه يضطرون مخالفه حقائق الخلقه.

و من جهه ثانيه أنهم يعيشون فى حاله من الضلال البعيد جدا عن الهدى، و آيه ذلك أنّهم ينسبون من يهديهم إلى الحقائق و الى سبيل سعادتهم إلى الجنون، فهل تترقب لمثل هؤلاء هدى؟ و نستوحى من الآيه انه لا- يضل الإنسان عن أهدافه و عن الحقائق، إلا عند ما يكون الطريق الذى يختاره خاطئا، و هؤلاء حين كفروا بالبعث وقعوا فى الانحراف الكبير.

(٩) و حتى يتسع أفقهم، و يهتدوا لصحه الحقائق، و ما يقوله الرسول، يدعوهم القرآن للنظر فى آيات الكون العظيمه و التفكير فيها، لأنها علامات و شواهد على قدره الله. كما أنه يندبرهم بأن استرسالهم فى الضلاله قد يعرضهم لعذاب شامل من نوع عذاب القرون الغابره، كان يخسف الله بهم الأرض أو يسقط عليهم من السماء شهابا.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأُ نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ وَ يبين لنا ربنا حقيقه هامه هى: إنّ الكون المحيط بنا قائم بالله، و تهيمن عليه و تدبر شؤونه قدرته القاهره، كما تشير الآيه الى بعض الحقائق العلميه، فقد جعل الله الأرض فى موقع معين، و ضمن نظام دقيق بحيث تحافظ على اتزانها، و تمكن

الخلق من العيش عليها، وأنشأ حجاباً واقياً بين الأرض و السماء، هو الغلاف الجوى الذى يمنع سقوط النيازك و الشهب من السماء على الأرض.

و لكن من الذى يكشف هذا النظام المحكم و ما وراءه من عظمه الرب؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ إِنَّ الْآيَاتِ وَحدها لا تهدى الإنسان الى الحقيقه كلها، فقد يؤمن بها و يتبعها الفرد فتأخذ بيده الى الهدف، و قد يراها و لكنه يكفر بخلفياتها و ما تشير اليه فلا- تنفعه، و القرآن يقول بأن الآيات الماثوره فى الكون تهدى الى الحقيقه، و لكن على شرط ان يكون المتفكر فيها عبدا مسلماً لله، فالعبوديه و الإنابه اذن شرطان للاستفاده من الآيات.

إن من مشاكل الإنسان انه حينما يسير فى ركاب العلم، و تنكشف له الحقائق، و تتضح أمامه الألباز المهمه فى الحياه، فإنه لا ينظر الى خلفياتها إنما ينظر إليها بذاتها، فهو حينما يكتشف مكونات الذره و هى النواه و الإلكترون و البروتون، ثم يجد أن كل عناصر الحياه الماديه و مكوناتهما، تعتمد نفس النظام و هو الذره، مع اختلاف التركيب، لا يهتدى من خلال ذلك الى حقيقه التوحيد، و ان اليد التى خلقت الذره هى التى خلقت المجره.

و فكره أخيره نستوحىها من الآيه الكريمه هى: إِنَّا عِنْدَ مَا نَتَعَمَّقُ فِي فَهْمِنَا لِلآيَةِ نَجِدُ أَنَّ الْقُرْآنَ يَرْبِطُ بَيْنَ فَهْمِ الْحَيَاةِ وَ تَرْكِيهِ النَّفْسِ، فَكَأَنَّ الَّذِينَ لَا يَتَصَفَّوْنَ بِالْإِنَابَةِ إِلَى رَبِّهِمْ لَا يَفْهَمُونَ الْحَيَاةَ فَهْمًا حَقِيقِيًّا.

(١٠) و كما أن لأسماء الله تجليات فى الطبيعه، فإن لها تجليات أخرى فى تاريخ البشر، و لعل هذه هى علاقه السياق بين الحديث عن الطبيعه و بيان جانب

من قصه داود و سليمان عليهما السلام.

و هناك صلة أخرى بين الموضوعين في السياق هي: إن الآيه السابقه تنذر الكفّار بينما تبشر هذه الآيه المؤمنين من خلال قصه داود الذي آتاه ربنا فضلا حين أناب إليه.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا وَ هَذَا الْفَضْلُ مَظْهَرٌ لِاسْمِ الْحَمْدِ الْإِلَهِيِّ، حَيْثُ خَصَّ اللَّهُ نَبِيَّهٖ دَاوُدَ بِأُمُورٍ مِنْ دُونِ الْآخِرِينَ، وَ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ أَرْكَانٍ وَ خِصَائِصِ الْحَضَارَةِ الَّتِي بَنَاهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قال تعالى:

يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرُ فَكُلَاهُمَا كَانَ خَاضِعًا لِدَاوُدَ، وَ سَخَّرَ لَهُ.

وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ وَ كَانَ لِتَسْخِيرِ الْحَدِيدِ هَدَفٌ يَشِيرُ لَهُ الْقُرْآنُ فِي الْآيَةِ الْوَالِئَةِ:

(١١) أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدَّرْ فِي السَّرْدِ لِقَدْ أَمَرَ اللَّهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِصِنَاعَةِ الدَّرُوعِ السَّابِغَةِ (أَيِ الْوَاسِعَةِ) حَتَّى يَلْبَسَهَا الْمُقَاتِلُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ، كَمَا أَمَرَهُ بِالِاتِّقَانِ فِي حَيَاكِنِهَا، حَتَّى تَكُونَ حَلَقَاتِهَا مُنْتَظِمَةً وَ مُتَسَاوِيَةً تُوَدِي كُلَّ وَاحِدَةٍ دَوْرَهَا الْمَحْدَدَ، وَ لَعَلَّ الْآيَةَ تُشِيرُ إِلَى ضَرُورَةِ الْإِتِّقَانِ فِي الْعَمَلِ، وَ لَا- سِيَمَا فِي الصِّنَاعَةِ، وَ لَكِنِ الصِّنَاعَةَ الْمُتَقَنَةَ كَأَنَّ تَقَدُّمَ حَضَارِي آخِرٍ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِهَدَفٍ حَكِيمٍ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

ص: ٤٣٤

وَاعْمَلُوا لِلصَّالِحَاتِ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَنَسْتُوحي من الآيه أن الله الذى سخر لداود كل هذه الأمور، لم يرتض منه أن تكون بديلاً عن السعى و العمل الشخصى، لأن قيمة الإنسان تكمن فى سعيه و عمله.

و فى الحديث أن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«أوحى الله عزّ و جلّ الى داود عليه السلام انك نعم العبد، لو لا انك تأكل من بيت المال، و لا تعمل بيدك شيئاً، قال: فبكى داود عليه السلام أربعين صباحاً، فأوحى الله عز و جلّ إلى الحديد أن لن لعبدى داود، فألأن الله عز و جلّ له الحديد، فكان يعمل فى كل يوم درعاً فيبيعهها بألف درهم، فعمل ثلاثمائة و ستين درعاً، فباعها بثلاثمائة و ستين الف و استغنى عن بيت المال» (١) كما نستوحى أن شكر نعم الله و حمده عليها يكون بالاستفاده منها فى سبيل الخير و الصلاح.

(١٢) ثم يضرب الله لنا مثلاً آخر من حياه نبيّه سليمان عليه السلام فيقول:

وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوْاحُهَا شَهْرٌ قَالَ عَلَى بن إبراهيم: «كانت الريح تحمل كرسى سليمان فتسير به فى الغداه مسيره شهر و بالعشى مسيره شهر» (٢) و إذا عرفنا ان مسيره الشهر تضاهى (٧٢٠) كيلومتر نعرف ان السرعه تقترب

ص: ٤٣٥

١-٢) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٣١٨).

٢-٣) المصدر / ص (٣١٨).

من سرعه الطائره اليوم خلال الساعه الواحده.

وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ يَعْنِي الرصاص و النحاس.

وَ مِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ وَ تَدَلَّنَا هَذِهِ آيَةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ:

الأول: إِنَّ الْجِنَّ لَيْسُوا كَمَا تَزْعُمُ الْأَسَاطِيرُ أَقْوَى مِنَ الْبَشَرِ، بل الإنسان قادر على تسخيرهم بإذن الله.

الثاني: إِنَّهُ يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْلُغَ مِنَ التَّطَوُّرِ وَ التَّكَامُلِ الصَّنَاعِيِّ وَ الْمَعْنَوِيِّ إِلَى دَرَجَةِ يَسْخَرُ الْأَرْوَاحَ - كَالْجِنِّ فِي صَالِحِهِ.

(١٣) و يبين لنا الله جانبا من أدوار الجن في حضاره سليمان عليه السلام إذ يقول:

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَ هِيَ أَمَاكِنُ الصَّلَاةِ الَّتِي تَتَقَدَّمُ بَيْتَ الْعِبَادَةِ.

وَ تَمَثَّلَ أَى الْمَجَسَّمَاتِ الَّتِي تَمَثَّلُ الْخَلْقَ الطَّبِيعِيَّ فِي ظَاهِرِهَا.

وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ

ص: ٤٣٦

و الجفان الأوانى التى يقدم فيها الطعام، و قد وصفها الله لعظمتها وسعتها بالحفر أو الأحواض، لأن سليمان ما كان يقدر على إطعام جيشه فى أوان صغيره لكثيرتهم. (١)

وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ وَ الرَّاسِيَهُ هِيَ الثَّابِتَةُ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِسُلَيْمَانَ قُدُورًا ثَابِتَةً، وَ أُخْرَى مُتَحَرِّكَةً كَانَتْ يَحْتَاجُهَا عِنْدَ حَرَكَتِهِ وَ تَنْقَلِهِ.

إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ إِنَّ أَمَّهُمْ عِبْرَةٌ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ هِيَ ضَرُورَةُ الشُّكْرِ الْعَمَلِيِّ، فَقَبِيلُ أَنْ يَكُونَ بِيَدِ الْإِنْسَانِ الْفَضْلُ وَ الْخَيْرُ الْإِلَهِيُّ رُبَّمَا يَكُونُ مَقْبُولًا مِنْهُ الشُّكْرُ الْقَوْلِيُّ وَحْدَهُ، أَمَّا بَعْدَهُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَحَوَّلَ هَذَا الشُّكْرُ إِلَى بَرْنَامِجٍ عَمَلِيٍّ وَ نَعْنَى بِذَلِكَ ثَلَاثَةٌ أُمُورٌ:

الاول: العمل الصالح، كما قال ربنا لنبى داود: وَ اعْمَلُوا صَالِحًا فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ يَكُونُ الشُّكْرُ الْعَمَلِيُّ لِلْمَالِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ التَّصَدَّقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَ إِقَامَةِ الْمَشَارِيعِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَ بِالتَّالِيِ اسْتِخْدَامَ هَذِهِ النِّعْمَةِ فِي أَهْدَافِهَا الْمَحْدَدَةِ.

الثانى: الإبقاء و المحافظه على العوامل التى سببت الفضل و النعمه، فالعالم إنما أصبح عالما بسبب المدراسه و القراءه و التفكير و العمل، فشكر العلم هو المحافظه على هذه العوامل، لأنها تحفظ العلم و تزيده.

الثالث: الوصول بالنعمه الى غايتها و هدفها، و هدف كل شىء فى الحياه

ص: ٤٣٧

(١-٤) راجع المجمع فى تفسير الآيه.

وسيله لهدف أكبر حتى يتصل الإنسان بهدفه الأعظم و هو الطاعه و التسليم لله، فالمجاهد يقرأ حتى يتكلم، و يتكلم مع الناس لكي يهديهم، و يهديهم حتى نتكون مجموعه رساليه، و تتكون هذه المجموعه من أجل العمل السياسى و العسكرى و الثقافى الشامل، و ذلك يهدف إسقاط النظام الطاغوتى الفاسد، لكي يقوم بدله حكم الله، الذى يدافع عن المستضعفين، و من ثم يقيم حضاره إسلاميه متكامله، و هكذا.. فالشكر العملى إذن أن ترقى من هدف لآخر أسمى منه.

إشارة

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّهٗ الْأَرْضُ ۖ تَأْكُلُ مِمَّن سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۖ الْغَيْبِ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَيِّئَةٍ فِي مَسْئَلِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۚ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ ۖ يَدُلُّنَاهُمْ وَبِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِنِ الْأُكُلِ ۖ خَمْطٍ وَأَثَلٍ ۚ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ۚ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۚ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ۚ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ۚ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۚ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي ۚ وَ أَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِد بَيْنَ أَسْفَارِنَا ۚ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا هُمْ أَحَادِيثَ ۚ وَمَزَقْنَا هُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

اللغة

١٤ [داباه الأرض]: الدابه عموم ما يدب على الأرض، و المقصود بها هنا هي الأرضه.

[منسأته]: و المنسأه العصا الكبيره التي يسوق بها الراعى غنمه، و لعل المقصود بها هنا الصولجان باعتبار سليمان ملكا.

١٦ [سيل العرم]: السيل العظيم الشديد، و قيل العرم اسم للجرذ الذى ثقب السكر، كما قيل أنه المطر الشديد.

[خمط]: كل شجر له شوكة، و المراد مَرَّ بشع.

[أثل]: الأثل الشجر الذى لا ثمر يؤكل له كالسمر.

هدى من الآيات:

يبدو أنّ سوره سبأ تتمحور حول علاقته الإنسان بالحضاره، حيث تعرض آياتها نموذجين منها، يتمثل الأول في قصه آل داود الذين اتخذوا الملك وسيله لعماره الأرض، وإصلاح الناس، وشكر الله، ويتمثل الثاني في قصه سبأ وقرى أخرى، حيث لم تنفعهم الحضاره الزراعيه التي أنعم الله بها عليهم، إنما ازدادوا كفرا بدل الشكر، وتوغلا في الجاهليه.

و من اختلاف هاتين القصتين نعرف: أنّ السلطه-كما القوه-ليست شيئا مكروها أو ممدوحا بذاتها عند الإسلام، أو في نظر العقل، إنما موقف الإنسان منها هو الذى يضىف عليها صفة الخير أو الشر، فإذا اتخذها طريقا للخير كانت خيرا و الا فشر.

كما نستفيد من واقع القصتين أن هناك أجلين لحياه الإنسان و لما يعطيه ربه من

النعم:

الاول: هو الأجل المسمى المحدد عند الله، وهو العمر الطبيعي للإنسان.

الثانى: الأجل المعلق و الذى يستنزله الإنسان بعمله، فيطول إذا كان العمل خيرا كالصدقه و الإحسان، و يقصر إذا كان شرا كقطيعه الرحم.

فبالنسبه للحضارات لا تبقى للأبد لأن هناك سنه الهيه عليا تقضى بفناء الإنسان، و بوار ملكه بعد ان ينقضى أجله المسمى، قال ربنا سبحانه: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّأُولُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ قَالَ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ .

و هكذا نجد ان الحضارات تسير ضمن دوره معينه، فعاده ما يعقب نموها و ازدهارها التدهور و الانحطاط، و الذى يمكننا ان نسميه بالأجل الطبيعي للحضاره.

و لكن الناس كثيرا ما يستعجلون هذه السنه بعصيانهم و كفرهم، الأمر الذى يسبب موت كثير من الحضارات فى ريعان شبابها، فقد كان من المتوقع لألمانيا قبل الحرب العالميه ان تصير سيده أوروبا صناعيا و حضاريا، و لكنها ماتت فى أيام شبابها بسبب طيش هتلر، و مبادئ الحزب النازى، و بسبب الثقافه العنصريه التى انتشرت عند الشعب الألمانى فاستجاب لتلك القيادة الرعناء. فعمر الحضارات اذن طويل لو لا أخطاء أصحابها.

ان قصه سليمان و والده عليه السلام صوره للحضاره التى امتدت فتره من الزمن، ثم انتهت بصوره طبيعیه، بينما قصه سبأ الذى انتهت حضارتهم بسبب العرم صوره مناقضه تجسد النهايه غير الطبيعیه. فداود و سليمان عليه السلام ضربا مثلا للحضاره البشريه النموذجيه، و لما تم المثل انتهت حضارتهم، فهى بدأت من نشأتها حتى صارت شبابا ثم هرمت و ماتت، لكن حضاره سبأ ماتت فى شبابها.

ص: ٤٤٢

بينات من الآيات:

(١٤) أبقى الله نبيه سليمان عليه السلام منتصباً على عصاه بعد الموت، وذلك بهدف فضيحه الجن الذين كانوا يدعون بأنهم يعلمون الغيب، ولإبطال الاعتقاد السائد لدى قسم من الناس بأنهم كذلك، والذي تحول إلى نمط من الثقافه الجاهليه بل عباده، ولعل لهذه الحادته أثرها الكبير فى القضاء على الجانب الأكبر من عباده الجن الشائعه فى التاريخ.

فَلَمَّا فَضَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ۖ وَ لَعَلَّ الْقَضَاءَ هُنَا هُوَ اجراء القدر الأول.

مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ۚ وَ هِيَ الْأَرْضُ.

تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ أَي الْعَصَا الَّتِي يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، وَالاعتماد على العصا ليس دليلاً على العاهه أو المرض، لان موسى عليه السلام المعروف ببطشه و قوته كان يتوكأ عليها أيضاً: قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأْتُ عَلَيْهَا وَ أَهْشُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَ لِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَىٰ (١) و حينما أكلت الأرضه العصا التي يعتمد عليها سليمان خر إلى الأرض.

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ

ص: ٤٤٣

و لهذه الآيه تفسيران:

الأول: أن معناها بعد ان خر جسد سليمان عليه السلام الى الأرض عرفت الجن بموته الذى مضى عليه عام واحد، فتمنوا علم الغيب، إذ لو أوتوا ذلك لما بقوا يعملون هذه المده، ويشير هذا الأمر الى ان الجن كانوا مسخرين بالقوه، و ما كانوا يقدرون على التمرد ضد سليمان فى حياته.

الثانى: انه لما خر جسد سليمان إلى الأرض، و كان الجن قد عملوا له سنه كامله، دون علم بموته، افتضح أمرهم عند الناس، و انكشف للجميع أنهم لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا كذلك لما بقوا يعملون شيئاً لا يريدونه، و لعلنا نستفيد من آخر الآيه: **مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ان خضوع الإنسان الى حاكم لا يرتضيه سواء كان الحاكم صالحا كسليمان، أو طالحا كفرعون، أو حتى قيام الإنسان بعمل لا يقتنع به، من أشد الأمور ايلاما و عذابا له، أو ربما كان هؤلاء الجن من العصاه فأراد سليمان عذابهم بالأعمال الشاقه.**

قال الامام الباقر عليه السلام:

«ان سليمان بن داود-عليهما السلام-قال ذات يوم لأصحابه: ان الله تعالى وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى، سخر لى الريح، و الانس، و الجن، و الطير، و الوحوش، و علمنى منطق الطير، و أتانى من كل شىء، و مع جميع ما أوتيت من الملك ما تم لى سرور يوم الى الليل، و قد أحببت أن أدخل قصرى فى غد، فأصعد أعلاه و أنظر الى ممالكى، و لا تأذنوا لأحد على ما ينغص على يومى، قالوا: نعم، فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده، و صعد إلى أعلى موضع من قصره، و وقف متكئا على عصاه ينظر الى ممالكه سرورا بما أعطى، إذ نظر الى شاب حسن الوجه و اللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره، فلما بصر به

ص: ٤٤٤

سليمان عليه السلام قال له: من أدخلك الى هذا القصر، وقد أردت أن أخلو فيه اليوم فيأذن من دخلت؟! قال الشاب: ادخلني هذا القصر ربه، و ياذنه دخلت، قال: ربه أحق به منى فمن أنت؟ قال: انا ملك الموت، قال: و فيما جئت؟ قال: جئت لا قبض روحك، قال: امض لما أمرت به، فهذا يوم سرورى، و أبى الله عز و جل ان يكون لى سرور دون لقائه، فقبض ملك الموت روحه و هو متكئ على عصاه، فبقى سليمان متكئا على عصاه و هو ميت ما شاء الله، و الناس ينظرون اليه و هم يقدرون انه حى، فافتنوا فيه، و اختلفوا، فمنهم من قال: ان سليمان قد بقى متكئا على عصاه هذه الأيام الكثيره و لم يتعب و لم ينم، و لم يأكل، و لم يشرب، انه لربنا الذى يجب علينا ان نعبده، و قال قوم: ان سليمان ساحر، و انه يرينا انه وقف متكئ على عصاه، يسحر أعيننا و ليس كذلك، فقال المؤمنون: ان سليمان هو عبد الله و نبيه، يدبر الله أمره بما يشاء، فلما اختلفوا بعث الله عز و جل دابه الأرض، فدبت فى عصاه، فلما أكلت جوفها انكسرت العصا، و خر سليمان من قصره على وجهه، فشكرت الجن للأرضه صنيعها، فلأجل ذلك لا توجد الارضه فى مكان الا- و عندها ماء و طين، و ذلك قول الله عز و جل: **فَلَمَّا أَقَضْنَا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** « (١) (١٥) ثم يضرب القرآن مثلا آخر و ذلك من تاريخ اليمن، كشاهد على الحضاره التى تموت فجأه و قبل أجلها الطبيعى، و سبأ التى تذكّرنا بها القرآن قبيله عاشت على الطرف الجنوبى لشبه الجزيره العربيه، و كانت تتقلب فى نعماء الله حتى بطرت معيشتها، فتكبرت عن الشكر له، و لم ترع العوامل المسببه للخير، فدمر الله سدّها الذى تقوم عليه حضارتها الزراعيه، فانهارت و بادت، و تبددت القبيله حتى انقرض كيانها، فضرب بها المثل العربى: (تفرقوا أيادى سبأ).

ص: ٤٤٥

لَقَدْ كَانَ لِسَيِّبٍ فِي مَسْـِِٔكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَ شِمَالٍ و كان ينبغي لهؤلاء ان لا يقفوا عند الآيه،انما يستدلوا بها على الحقيقه التى تهدى إليها،و هى كما تبين آخر الآيه معرفه رب النعم و هو الله،و من ثم شكره لتزداد النعمه و تدوم، و الملاحظ ان الله استخدم للتعبير عما فيه سبأ من النعيم كلمه «مساكن»و لم يقل بيوت،و لعل المسكن هو البيت الذى يأوى اليه الإنسان مطمئنا مرتاحا ساكنا،بينما البيت هو محل المبيت،و ربما أتاه الإنسان قلقا حزينا.

و قوله عز و جل: جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَ شِمَالٍ يكشف عن الطبيعه الجغرافيه، ذلك لأنه يفهم من هذا التعبير وجود نهر يقسم البلاد الى شطرين،و لعل هذا النهر يتصل بالسد حيث تفرغ المياه فيه ليحملها الى الجنان التى على جانبيه.

و كان من المفروض ان تستفيد سبأ مما تنتجه الأرض،عارفين بأنه من عند الله،ثم يشكرونه.

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ و قد أمر الله آل داود بذلك،فلما استجابوا و شكروا استمرت حضارتهم،حتى وافاها أجلها الطبيعى بموت سليمان،أما هؤلاء فلم يشكروه،مما أدى الى اندحار حضارتهم.

و المجتمع حينما تكون مسيرته العامه الشكر لله مباشره،أو الشكر للعباد قربه له،فانه يصبح مجتمعا فاضلا خيرا،أو كما يعبر القرآن:

بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ لَّأَنَّهُ يَسِيرُ فِي رِكَابِ الْحَقِّ،اما بالنسبه للذنوب و الأخطاء الجانيه فانها لا تقضى

على الحضارات، بالذات إذا لم يكن مصدرها التحدى و العناد، انما يصلحها الله و يغفرها.

وَ رَبُّ غَفُورٌ (١٦) كانت هذه دعوه الله لهم و لا تزال تشمل البشريه جيلا بعد جيل، لكنهم رفضوها.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ الْعَرِمِ و الفاء تفيد العطف و التعقيب بلا فاصل، فالآيه اذن تشير الى سرعه التكذيب، كما تشير الى سرعه الجزاء، و هذا يدل على ان حضارتهم لم تبق كثيرا، و ربما دلّت على ان حضارتهم مهما طالت فإن الله يختصر المسافه بين التكذيب و الجزاء، فمهما عاشوا فهو قليل عند الله حقير.

يقول على بن إبراهيم: «و كانت لهم عن يمين و شمال، عن مسيره عشره أيام فيها لا- يقع عليه الشمس من التفافها، فلما عملوا المعاصي، و عتوا عن أمر ربهم، و نهاهم الصالحون فلم ينتهوا، بعث الله- عز و جل- على ذلك السد الجرذ، و هى الفأره الكبيره، و كانت تقلع الصخره التى لا يستقلها الرجال، و ترمى بها، فلما رأى ذلك قوم منهم هربوا و تركوا البلاد، فما زال الجرذ تقلع الحجر حتى خرب ذلك السد، فلم يشعروا حتى غشيهم السيل، و خرب بلادهم، و قلع أشجارهم» (١) وَ بَدَّلْنَا لَهُم بَجَنَّتِيهِمْ جَنَّتِينَ ذَوَاتِنِ أَكُلِ خَمْطٍ وَ أَثَلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ

ص: ٤٤٧

وقد اختلف المفسرون فى معنى الخمط و الأثل،الا- أنهما كما يبدو شجرتان برّيتان شوكتيتان،قد تكون إحداهما الأراك و الأخرى السمر،و كذلك السدر من الأشجار التى تقاوم الجفاف.

(١٧)و يبين الله السبب الرئيسى الذى يقف خلف هذه النهايه المدمره الا و هو الكفران بالنعمة.

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِأَنعَمَهُ.

وَ هَيْلٌ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ و من هذا المقطع نستفيد فكرتين:فمن جانب هناك إشاره الى أن الجزاء يشمل كل كفور،دون ان يختص بهذه الجماعه التى يذكرها القرآن،و من جانب آخر يوضح تعبير «كفور» بأن الرب يعطى فرصه للعباد عند الخطيئه،المره بعد الأخرى رحمه بهم،فهو لا يأخذهم بالعذاب فى بادئ الأمر،انما بعد الإصرار على الذنب، و صيغه المبالغه «كفور» تدل على تكرار الكفر بالنعمة.

هكذا بادت الحضاره الزراعيه التى انتشرت ربوعها على أطراف شبه الجزيره، التى لم يكن الرجل يحتاج و هو يمشى بين أغصانها المتدليه بأصناف الثمر لكى يقطف منها ما يشاء،الا للقليل من الجهد،و حلت محلها حياه متخلفه.

(١٨)ثم ينتقل بنا السياق الى تجربه حضاريه ثالته،من واقع القرى التى امتدت من اليمن حتى مكه و المدينه،و التى تميزت بالظهور و هو الارتفاع أو القوه أو الشهره،و بالنظام و الامتداد،و أخيرا بالأمن الذى يعتبر من أعظم نعم الله على

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ آيَ بَيْنِ أَهْلِ سَبَأَ الَّذِينَ مَرَّ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ فِي آيَاتِ السَّابِقَةِ.

وَيَبِينُ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَهِيَ مَكَّةُ وَ مَا حَوْلَهَا.

قُرَى ظَاهِرَةٌ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ وَ لَعَلَّ هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى النَّظَامِ، حَيْثُ جَعَلَ اللَّهُ السَّيْرَ فِيهَا مَقْدُورًا، وَيَعْتَبَرُ ذَلِكَ مِيزَةً لِحَضَارَتِهِ هَذِهِ الْقُرَى، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعِيشُ فِي مَنَاطِقِهِ جَبَلِيَّةٍ يَصْعَبُ السَّيْرُ فِيهَا، وَ رُبَّمَا كَانَتْ جِبَالَهَا وَ وُدْيَانَهَا تَبْتَلَعُ الْقَوَافِلَ الضَّائِعَةَ.

سَيَّرُوا فِيهَا لِيَالِيَّ وَ أَيَّامًا آمِنِينَ وَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ تُوْحِي لَنَا بِمَعْنِيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: سَعَةُ الْحَضَارَةِ، إِذْ يَسِيرُ فِيهَا الْإِنْسَانُ أَيَّامًا وَ لِيَالِيَّ، فَهِيَ إِذَنْ مُمْتَدَّةٌ شَاسِعَةٌ الْمَسَاحَةِ، وَ ثَانِيَهُمَا: الْأَمْنُ الَّذِي كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ هَذِهِ الْقُرَى، وَ الْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْأَمْنَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَ فِي هَذِهِ الْمَنَاطِقِ الَّتِي يَحْدُثُنَا عَنْهَا الْقُرْآنُ بِالذَّاتِ كَانَ أَمْرًا نَادِرًا بِسَبَبِ عَصَابَاتِ قَطَّاعِ الطَّرِيقِ، وَ الْوَحُوشِ.

(١٩) لَكِنْ هُوَ لَئِنْ رَفَضُوا هَذِهِ الْخَيْرَاتِ وَ الْمَعْطِيَّاتِ، الَّتِي تَمَخَّضَتْ عَنْهَا الْحَضَارَةُ الْجَدِيدَةُ، وَ بَدَأُوا يَحْنُونُ إِلَى الْمَاضِي، حَيْثُ الْقَبْلِيَّةِ وَ التَّفَرُّقَةِ الْحَاكِمَةِ، وَ حَيْثُ الرُّوحُ الْفَرْدِيَّةُ الْمُسْتَبَدَّةُ.

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا

و لعلهم فى هذا الجانب و بهذه الروح يشبهون بنى إسرائيل، حيث تقدمت بهم الحضاره حتى صار أكلهم يتنزل عليهم من السماء منا و سلوى، لكنهم رفضوه، و أخذهم الحنين الى القديم من البقل و العدس و الفوم، فذمهم الله على هذه النفسيه السليه المتخلفه و قال: **أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَ الْمَسِيكَنَةُ وَ بَأْسٌ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ (١)** و يصف الله هذه الروحيه بأنها صورته للظلم الذى يعود على صاحبه بالضرر و الفساد.

وَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَجْرًا دَيْثًا وَ مَضْرِبًا لِّلْمَثَلِ فِي خَاتِمَةِ السَّوْءِ، وَ تَهْدِينَا الْآيَةِ إِلَىٰ نِهَائِهِ هَؤُلَاءِ، حيث تحولوا من الواقع المتحضر القائم على الأرض، الى مجرد احدثه على ألسنه الناس، و القرآن الكريم يشير الى ان حضارتهم انما تبددت بسبب الروح الفرديه التى نخرت كيانها فيقول:

وَ مَرَفَاتُهُمْ كَمَلِّ مُمَرِّقٍ حَيْثُ تَحُولتُ النَّزْعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَىٰ وَاقِعِهَا الْمَرَّةُ، وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْحَضَارَةَ تُولَدُ بِالْجُهُودِ الْجَمَاعِيَّةِ الْمُنظَّمَةِ، حيث تتركز الجهود، و حين تنعدم الروح الجماعيه، و التفكير المشترك، و السعى الموحد، تؤول الى الدمار.

و فى تفسير الآيه عن الامام الصادق عليه السلام قال:

«هؤلاء قوم كانت لهم قرى متّصله، ينظر بعضهم الى بعض، و أنهار جاريه، و أموال ظاهره، فكفروا بنعم الله عز و جل، و غيروا ما بأنفسهم، ففرق قراهم، و خرب ديارهم، و اذهب بأموالهم» (٢)

ص: ٤٥٠

١- (٤) البقره/(٦١).

٢- (٥) نور الثقلين /ج(٤) /ص(٣٢٩).

و قصص هذه الحضارات الأربع تنطوى على كثير من الدروس و العبر التي تنفع البشريه فى مسيرتها الحضاريه الصاعده، و البشريه أحوج ما تكون و هى تنشء الرقى ان تدرس تجارب الحضارات الأخرى، و بالذات الماضيه منها، لأنها مرّت بدوره حضاريّه كامله.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ انها ليست قصصا للتسلية و اللهو، بل تحمل مشاهدتها الدروس و العبر، و حتى يستوعب الإنسان الفرد أو الامه ذلك عقليا و أهم منه عمليا لا بد ان تتوفر فيه صفات معينه: أبرزها الصبر الدائم، و الشكر الكثير، لأن الصبر آيه سكينه النفس، و حصافه العقل، و بعد النظر، و معرفه عواقب الأمور، و كل تلك الصفات ضروريه لوعى الحقائق، و معرفه غيب الاحداث، و ما ورائيات الظواهر التاريخيه.

أما الشكر فانه دليل العلم، فالجاهل لا يرى أسبابا للنعم، و لا يفهم ان لكل ظاهره حادثه عوامل، أو جدت بها، و تستمر معها، و بالتالى لا يبلغ الى معرفه من أنعم عليه فلا يشكره، هكذا تتصل صفة الشكر و الصبر بعالم المعرفه، و هكذا تزيد المعرفه بالشكر و الصبر.

هذا من جهه، و من جهه أخرى: ان عبره هذه القصص هى الشكر و الصبر.

فالقصص الأربع من حضارتي داود و سليمان، و حضارتي سبأ و القرى التي امتدت منها الى مكه المكرمه، تلهمنا درس الصبر و الشكر، فسلیمان و داود عليه السلام انما تقدمت حضارتهما، و استقامت الى أجلها الطبيعي حينما صبرا و جدًا فى تأسيسها، و شكرا لله حافظا لها من الزوال، اما الحضارتان الأخريان فدمرتا بنهايه غير طبيعيه، لانعدام صفتي الصبر الذى يعبر عن الجد و الاستقامه، و الشكر الذى يجسد

الاتصال الحقيقي بحبل الله، والمحافظة على أسباب الرقى، واللذان يعتبران روحاً لأية حضاره.

و كلمه أخيره: هل ان شبه الجزيره التي استضافت الحضارات، و التي انبعثت فيها آبار النفط بالخير و البركه، سوف يستفيد أهلها و حكامها من قصص آباءهم، فتكون حضارتا داود و سليمان عليه السلام مثلاً لهم، أم لن يعتبروا بتاريخهم، و لا يصبروا على دين الله و لا يشكروا له، فتكون الحضارتان الأخيرتان أمثوله لهم؟!

ص: ٤٥٢

وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِئْتِسَانُهُ فَاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلِ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

٢٦]يفتح]:يحكم حكما حقا،و كان الأمر مسدودا بين الخصمين و الحاكم يفتح بينهما حين يعطى لكل حصته،لثلا يبقى الأمر بينهما مختلطا متصلا.

ص:٤٥٤

هدى من الآيات:

كثيره هي الآيات القرآنيه التي تنسف الأفكار التبريريه و غيرها،مما يحول بين الإنسان و السعى،فالحق و بالذات في كلياته العامه واضح كالشمس إلا- أن الهوى يحجبه عن عقل الإنسان،و لكي تبرر النفس البشريه ثقافتها عن تطبيق الحق و انحرافها عنه فانها تلجأ الى الأفكار الباطله،و لا بد لمن يريد العوده الى الرشاد من نسف هذه الأفكار،و رفع تلك الحجب،لكي يتصل عقله اتصالا مباشرا بالحق، و هذا من أهم أهداف الآيات القرآنيه،إذ نجدها تبطل الأفكار التبريريه الواحده تلو الأخرى،فاذا بها تجابه فكره شفاعه الأنداد ببيان حقيقه التوحيد،و تنسف فكره الاطمئنان الى الدنيا بان الدنيا مرحله بسيطه في حياه البشر،و تبطل الجبر بتأكيد اراده الإنسان و مسئوليته.

و أول ما يعالجه هذا الدرس-الذي جاء لينقض جانبا من الثقافه السلبيه- هو فكره الحتميه،فالكثير من الناس يسعون لتبرير واقعهم المنحرف(السياسى)

كخضوعهم للسلطات الجائره و مؤسساتها، أو (الاجتماعى) كاستجابتهم لضغوط الاباء و المجتمع أو (الاقتصادى) كاستجابتهم للنظم الاقتصاديه الفاسده و ما أشبه بفكره الجبر و الإكراه، و إذا أراد البشر تحدى حتميه اتباع إبليس، و من يجسده فى الدنيا، فعليه ان يتسلح بالإيمان بالآخره، لأنه يعلو به على الحتميات، فلو هدده الطاغوت بالقتل إذا لم يتحول الى عميل له، و عبد يسعى فى خدمته و أهدافه، و لقال: **إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ** و إذا توعدده بالسجن قال: **السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** و هذا المنطق هو الذى جعل السحره يستقيمون أمام جيروت فرعون و ظلّمه.

بينات من الآيات:

(٢٠) حينما أمر الله الملائكه بالسجود لآدم أبى إبليس-الذى جمع معهم لعبادته-السجود تكبرا، فطرده الله بعد ان حذر البشر منه، فقال: **إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** لكن إبليس اكتشف نقاط الضعف فى الإنسان من حبّ للمال و السلطان، فظن فى نفسه أنه قادر على اغوائه و قال **لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١)** و الله يؤكد ان إبليس وجد لظنونه مصداقا بين الناس.

وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِيلِسُ ظَنَّهُ و لعلنا نستفيد من هذا التعبير أن إبليس ظن أنه سوف يتخذ من أبناء آدم نصيبا مفروضا، ثم سعى حتى جعل ذلك الظن الذى ظنه صادقا و ذلك ياغواء الناس.

بلى. ان إبليس عدوّ خطير لأنه قد خطط سلفا للإيقاع بالبشر، و سعى جاهدا لتنفيذ تلك الخطط.

ص: ٤٥٦

و هكذا اتبعه الناس أجمعون، الا مجموعه من الناس هم الفريق المؤمن بالله و اليوم الآخر.

فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ و لا يدل هذا الاستثناء، على ان الفريق الآخر من المؤمنين اتبعوا إبليس، إذ معنى «من» هنا التفسير و البيان، أى اتبعه الا فريقا و هم المؤمنون.

و من أهم مصاديق صرف الشيطان للإنسان عن الحق هو إضلاله عن اتباع القيادة الصادقه، و هذا ما يفسر الروايات التى جاءت مؤوله الآيه الكريمة بأنها تعنى القيادة الرساليه. (١)

(٢١) و لكن هل جبر الانصياع الى أمر إبليس، حتى يبرر الإنسان انحرافه بأن لا- حول له و لا- طول تجاه ضغوطه و اساليبه الماكره؟ بالطبع كلا.. و الله ينفى هذه الحتميه بعد الاشاره الى عدمها، من خلال تقسيم الناس الى مطيعين لإبليس و مخالفين له، إذ لو كانت حتميه تقضى بالخضوع له لما تمرد عليه فريق المؤمنين، فالناس إذن هم الذين يقررون طاعه الرب أو اتباع إبليس.

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ يَقهرهم به، بلى. ان وسائل الشيطان و الطغاه كثيره و ماكره، و لكن الإنسان قادر على مواجهتها ببصيره الإيمان، و سلاح التوكل، و لو تسلح بهما لما أضعفت نفسيته و لما ضلته وسائل الاعلام و التوجيه المنحرفه و غيرها.

و الله يؤكد ان الهدف فى خلق إبليس ليس إضلال الناس، فحاشا لله ان يريد

ص: ٤٥٧

١-٢) راجع نور الثقلين /ج (٤) /ص (٣٣٣-٣٣٤).

إضلال عباده و قد خلقهم ليرحمهم، و ان أراد ذلك لما بقى أحد مؤمنا، و انما خلقه ليمتحن الناس من خلاله.

□
إِلَّا لِنُعَلِّمَ عِلْمًا وَاقِعِيًّا.

مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ و الا فان الله بكل شىء عليم، يعلم بمعرفته و خبرته المطلقة المؤمن من الكافر.

و الآيه تؤكد على الايمان بالآخرة هو حجر الزاوية فى مسيره الإنسان و تحديد مصيره، بل و فى ايمانه، و بالتالى فان شكه فيها يبعثه على الشك العام فى سائر الحقائق.

و رَبُّكَ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ حَفِيظٌ يسجل للإنسان أو عليه كل عمل و حركه، و يحفظها فى كتابه الذى يلقاه يوم القيامة منشورا.

و نستوحى من الآيه ان ثمة سلطانا محدودا لإبليس على بنى آدم، لا يبلغ درجه الحتم بل يقف عند حدود الضغط، و ان الحكمة من إعطاء إبليس هذا السلطان المحدود ابتلاء البشر ليعرف مدى ايمانهم بالآخرة، فمن كان ايمانه بها ثابتا فانه يثبت امام إرهاب إبليس و من يتبعه و يمثله من اولى القوه و الثروه و التضليل، الا ترى كيف صمد السحره بعد ايمانهم برب موسى و هارون عليه السلام امام تهديد فرعون لأنهم كانوا واثقين من اليوم الآخر، فلم يفلح إبليس و خليفته فرعون من النيل من صلابتهم شيئا. تعال نقرأ القرآن:

□ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ لَمَّا قَطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأَصِيبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَّقِلُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا
خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (١) وهكذا كل من تعرض لضغط أولياء الشيطان عليه ان يتذكر الآخرة ليصمد امامهم.

(٢٢) والفكره التبريريه الاخرى التى يعالجها هذا الدرس،هى فكره الشفاعة،التى تعنى الاعتماد على قوى أخرى تنقذ الإنسان من نار جهنم كالأصنام،وقد أقحمت هذه الأفكار فى المسيحيه تحت عنوان الفداء،إذ كانوا فى القرون الوسطى والى اليوم يذهبون للكنائس من أجل الحصول على صك الغفران.

و لا شك ان الاعتقاد بوجود منقذ غير الله يفرض على الله شفاعته صورته أخرى للشرك.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ الشُّرَكَاءِ، وَ خَضَعْتَهُمْ لَهُمْ، وَ هُمْ كَمَا يَبْدُو ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٍ مِنَ الشُّرَكَاءِ:

الأول: أصحاب الثروه،الذين يظن الناس أنهم يرزقونهم،و أنهم لما يظهر لهم من ثروتهم و ملكهم يشاركون الله فى ملكه للحياه،و القرآن ينفى ملكيتهم و لو بمقدار الذره المتناهيه فى الصغر.

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ الثَّانِي: أصحاب السلطه،و الزعم بأن شخصا أو نظاما يشارك الرب فى إداره

ص: ٤٥٩

١-٣) الشعراء/ (٤٩-٥١).

الخليقه، و تدبير شؤون السموات و الأرض، و ينفى السياق ذلك بقوه.

وَ مَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ الثَّالِثُ: و سائط القوه و الثروه، من الجنود و الخدم و الوزراء، و القرآن ينفى ان يكون للأنداد شرك حتى بهذا القدر.

وَ مَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٣) و انما كانت تعبد هذه الأصنام طمعا فى شفاعتها، و ينقض القرآن هذا الاعتقاد فيقول:

وَ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الشَّفَاعَةُ هِيَ الدَّعَاءُ و ما يترتب عليه، و الله ليس مجبورا ان يستجيب لأحد دعاءه فى حق نفسه أو فى حق الآخرين مهما كان هذا مقربا عند الله، و يبين القرآن هذا المعنى فى قول الله الى حبيبه محمد صلى الله عليه و آله: إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (١) اذن لا مجال لفكره الفداء فى الرساله الالهيه، بلى. ان الله شفيح للإنسان، و يقبل شفاعه الآخرين فيه حينما تكون عنده مؤهلاتها، حيث يقول ربنا سبحانه: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٢) فمعنى الشفاعه الحقيقى اذن هو ما تقدمت الاشاره اليه و هو ما تؤكد هذه الآيه الكريمه. بان يشعر الإنسان نفسه بالذنب، و بضروره التوبه

ص: ٤٦٠

١- (٤) التوبه/(٨٠).

٢- (٥) النساء/(٦٤).

لله منه، وما يستلزم ذلك من انكسار القلب، وعقد العزم على عدم العود اليه، ثم المجيء للقياده الرساليه أو من يجسدها و الاستغفار عنده.

و بكلمه: هناك فكره للشفاعه يتخذها الإنسان غطاء لجرائمه، و تهر به عن مسؤولياته، و هى الشفاعه الشركيه المرفوضه التى يزعم صاحبها أن أصنام السلطه و الثروه و جنودهما قادرين على إنقاذه من غضب الرب لأنهم يشاركون الله فى سلطانه تعالى الله عما يشركون.

و هناك شفاعه مسئوله تبعث الإنسان نحو المزيد من المسؤليه و الطاعه و هى التى يبينها القرآن فى أكثر من مناسبه، و التى تعنى دعاء الرسول و الأئمه و الصالحين بالمغفره لمن اذن الله له بذلك، و هم المسلمون المطيعون لله و للرسول و الأئمه بصفه عامه.

و انما تبعث هذه الفكره نحو المزيد من العمل لأنها تقاوم اليأس، و تزيد من طاعه القياده الالهيه.

يدخل على الامام الباقر عليه السلام أبو أيمن - هو مولى لامرأه على بن الحسين عليه السلام - فيقول له: يا أبا جعفر تغرون الناس و تقولون: شفاعه محمد، شفاعه محمد، فغضب أبو جعفر حتى تربد وجهه (1) ثم قال:

«ويحك يا أبا أيمن، اغرّك ان عف بطنك و فرجك؟! اما لو قد رأيت افزاع القيامه لقد احتجت الى شفاعه رسول الله - صلى الله عليه و آله - و يلك و هل يشفع الا لمن وجبت له»

ص: ٤٦١

١-٦) تغيير لونه.

ثم قال:

«ما من أحد من الأولين و الآخريين الا و هو محتاج الى شفاعه رسول الله-صلى الله عليه و آله-يوم القيامة» ثم قال:

«ان لرسول الله الشفاعه فى أمته، و لنا الشفاعه فى شيعتنا، و لشيعتنا شفاعه فى أهاليهم» ثم قال:

«و ان المؤمن ليشفع فى مثل ربيعه و مضر» (1) و عند ما تغشاهم افزاع القيامة تطير ألبابهم، و تزيغ أبصارهم، و لا يعودون الى رشدهم الا بعد ان يفرغ الله قلوبهم من الفزع، و هنالك يتساءلون: ماذا قال الرب؟ و يجاوبون: لقد قال الحق.

حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَ حُرْفٌ «حتى» يدل على ان الفزع يستمر معهم الى ان يفرجه الله عنهم، مما يدل على ان الشركاء لا يغنون عنهم شيئاً.

و كلمه «فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» تشبه قول العرب (قرذ البعير) إذا أخذ منه القراد، و يسمونه السلب، و معناه سلب عنهم الفزع.

قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ

ص: ٤٦٢

لعل السائل و المجيب هم نفس الفريق، فسأل البعض و أجاب الآخرون، و يحتمل ان يكون السائل الملائكه و أهل الشفاعه، و المجيب هم المشفوع لهم من المذنبين، و الكلام يكون خاصا بالذين يؤذن لهم بالشفاعه، حيث ينزع عنهم الفزع حينما يؤذن لهم بالشفاعه، بينما يبقى الآخرون فى فزع عظيم.

وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَلَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَ لَا أَمْنَهُ إِلَّا مِنْهُ، وَ لَا نَجَاةَ إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ.

و فى الآيه تفسيرات عديده، بيد أن ما ذكرنا أنسب الى السياق من غيره فيما يبدو لى.

(٢٤) ثم يمضى السياق قدما فى تنفيذ الأفكار التبريريه و منها الزعم بأن غير الله يرزق شيئا، و سواء كان السلطان أو المترف أو غيرهما فان ربنا ينفى ان يكون الرازق حقا غير الله.

قُلْ مِمَّنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ مَنْ يَرْسِلُ السَّحَابَ، وَ يَبْعَثُ بِأَشْعَةِ الشَّمْسِ، وَ يَهْدِي الْإِنْسَانَ إِلَى طَرِيقِ الزَّرْعِ وَ الصَّنَاعَةِ، وَ يَرْزُقُهُ الْقَوَهَ؟ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ يَسْتَفِيدُ مِنْ أَسْلُوبِ التَّشْكِيكِ الْمُنْهَجِيِّ لِإِيصَالِ الْإِنْسَانَ إِلَى الْحَقِيقَةِ.

وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَ هَذَا الْأَسْلُوبُ يَجْعَلُ الْكَافِرَ يَشْكُكَ فِي طَرِيقِهِ شَكًّا مُنْهَجِيًّا، كَمَا يَشْكُكَ عَلَىٰ

الأقل - فى صدق الرساله، مما يجره للبحث و التعرف، و هذا بالطبع سيقوده الى الحق، مرحله فمرحله، و انما يبقى فى الضلال الذى لا يشكك نفسه، بل يعتقد جازما انه على الصواب.

و كما ان جزم الإنسان بأن طريقه هو الأصح من دون بحث و تدقيق خطأ، فان اعتقاده بصحة كل اعتقاد كما يدعى ذلك البعض هو الآخر خطأ.

(٢٥) و الفكره التبريريه الرابعه التى ينسفها القرآن: هى الاعتقاد بأن عمل الإنسان يمكن ان يلقى على عاتق غيره، و إذا كان هذا ممكنا فى الدنيا، حيث يلقى بالمسؤوليه على الآخرين، فانه مستحيل فى الآخره.

قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ فكل إنسان يلزم طائره فى عنقه.

(٢٦) و لكى نتخلص من هذه الفكره التبريريه يجب ان نتطلع الى الآخره، حيث نقف جميعا امام الله ليحكم بيننا و هناك يتحدد المصير الأبدى.

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ فلا بد ان نعتقد بيوم يتميز به الحق عن الباطل و ان أهلهما بحكم الله، و ضروره هذا الاعتقاد ان الإنسان ربما يعتمد على نفسه فى التمييز بينهما، فاذا بالضغط و الإغراءات تؤثر فيه و تضع منه المقاييس.

و على سبيل المثال: لو لم تكن فى العالم مقاييس و موازين محدوده للباعه لاجتهد كل واحد فى تحديد مكيال خاص به، و هذا أمر خطير ينهى الى التلاعب بالاقتصاد، لكن إيجاد مقياس محدد يفرض على الجميع (البائع و المشتري) تكييف

أنفسهم مع هذا المقياس، فيكون حاكما بينهم، كذلك العلم بوجود مقياس ثابت عند الله لا بد ان تنتهى اليه جميعا يقف دون العمل بالأهواء.

(٢٧) و فى نهايه هذا الدرس يذكرنا القرآن بأن الشركاء ليس فقط لا يملكون شيئا، بل هم أنفسهم ليسوا بشيء إذا فكر الإنسان فيهم.

قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ۚ وَادْعِيْتُمْ انهم يتصرفون فى الحياه معه، أو يؤثرون عليه، أو يعينونه.

كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَعِينٍ لِأَنَّهُ قَوِيٌّ وَقَادِرٌ بِذَاتِهِ.

الْحَكِيمُ الَّذِي يَحِيطُ بِالْأُمُورِ عُلَمَاءُ، وَ يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِدَقَّةٍ، فَلَا يَخْطَأُ حَتَّىٰ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَنْ يَسُدُّهُ أَوْ يَصْحَحُ حُكْمَهُ عِزٌّ وَ جَلٌّ.

ص: ٤٦٥

إشارة

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نُوْتَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أُسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا جُفُوا أَمْ نَحْنُ صِدْدٌ نَاكِمٌ عَنِ الْهُدَىٰ بَعِيدٌ إِذْ جَاءَكُمْ بَلٌ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ أُسْتُضِعُوا جُفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

هدى من الآيات:

بعد ان نسف السياق التبريرات التى يحتمى بها المجرمون هربا من المسؤولية، أبلغهم ان الرسول صلى الله عليه و آله جاء مبشرا و منذرا لهم جميعا، فالناس أمام مسئولياتهم شرع سواء، و ان وعد الله بالجزاءات، و ان لكل أمه أجلاهم بالغوه، و لن يؤخر عنهم إذا جاءهم لحظه واحده، كما لا يتقدم أجلهم باستعجالهم.

و حين تحدى الكفار رساله، و قالوا: لن نؤمن بها و لا بالذى سبقها من الكتب، انذرهم الرب أنهم سوف يندمون يوم الجزاء الأ-كبر، حين يرون العذاب، و توضع الأغلال فى أعناق الذين كفروا جزاء بما كانوا يعملون، و هنالك لا ينفعهم التبرير الذى يتوسلون به اليوم حين يلقى المستضعفون (التابعون) المسئوليه على المستكبرين (المتبوعين).

و يبين السياق فساد هذا التبرير عند ما يصور الحوار الساخن بينهما، حين يرجع

بعضهم الى بعض القول فيقول المستضعفون: أنتم كنتم السبب في ضلالتنا، فيتبرأ من ذلك المستكبرون، و يقولون: انكم كنتم مجرمين بأنفسكم، و لا يسع المستضعفون آئذ إلا إلقاء اللوم على الزمن فيقولون: بل مكر الليل و النهار، إذ يأمرونا بالكفر.

بينات من الآيات:

(٢٨) ان ما يميز الرسول صلى الله عليه و آله عن سائر الأنبياء انه بعث لعامه الناس، إذ لم تختص دعوته بجماعه دون أخرى، و لا يقوم دون آخر، و هذا بذاته دليل على صدق رسالته، ذلك أن الإنسان مهما حاول التجرد فانه يبقى ابن بيئته التي تعكس عليه آثاره في واقع الثقافه، كما تعكس عليه الآثار الطبيعیه. من هنا حين يأتي الرسول برسالة تتجاوز القوميه، و العنصريه، و الاقليميّه، نظرياً و عملياً، فان ذلك يكون دليلاً على ان رسالته الهيه.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا و يلاحظ هنا تقديم البشاره على الإنذار، بينما نجد العكس في بعض الآيات، و لعل الحكمة أنه إذا كان الحديث عن هدايه الإنسان استلزم تقديم الإنذار لأنه الأقوى أثراً في البشر، بينما إذا جرى الحديث عن شخص الرسول تقدمت البشاره للدلاله على انه بعث رحمه للعالمين.

و السؤال: من الذى تسوقه البشاره الى العمل الصالح، و يمنعه الإنذار عن الذنب؟ انه العالم. أو ليس العلم يجعل الإنسان يؤمن بالحقائق؟! لهذا جاءت آيات كثيره تؤكد على علاقه العلم بالايمان، و تكميل أحدهما للآخر، و من أبرزها قوله

تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (١) و إنما لا يستجيب غالبه الناس للرسول بشارتهم و إنذارهم لجهلهم، فاذا رأيت أغلب الناس كفاراً فلا تستوحش من ذلك، و لا تظنّ بان ذلك دليل على ضعف أدله الرساله، بل على ان الايمان-كما العلم-درجه رفيعه لا يبلغها إلا الصفوه من الناس.

وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ فَهَم لَا يُؤْمِنُونَ.

(٢٩) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَ يتشبث الإنسان بتبرير فاسد آخر حين يتساءل: إذن أين الجزاء؟! لماذا يتأخر عن المجرمين؟! إذا كنتم صادقين فى ان لكل عمل صالح جزاء حسنا يبشر به الرسول، و لكل جريمه عقابا ينذر به.

(٣٠) و يبطل السياق هذا التبرير أيضا بان الجزاءات، و ان تأخيره لأجل محدود، و انه حين يحين ميعاده لا يتأخر ساعه و لا يتقدم.

قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَشِئْتُمْ أَنْ تُسَأَلُوا عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَشِئْتُمْ أَنْ تُسَأَلُوا عَنْهُ سَاعَةً وَ قد أخفى الله أجل الإنسان، فهو لا يدري متى يوفيه الموت و الجزاء، و لعل اى لحظه يمر بها تحمل فى طياتها أجله، مما يدعو الى التسارع و المبادرة لعمل الخير، و الاستقامه عليه.

يقول الرسول صلى الله عليه و آله لابي ذر(رض):

«يا أبا ذر! اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، و صحتك قبل

ص: ٤٧٠

سقمك، و غناك قبل فقرك، و فراغك قبل شغلك، و حياتك قبل موتك» (١) ذلك ان الحكمه من إخفاء الأجل هي بعث روح المبادره فى الإنسان، هكذا

يقول الامام الصادق عليه السلام :

«ثم [لو] عرف ذلك-يعنى أجله-وثق بالبقاء، و انهمك فى اللذات و المعاصى، و عمل على انه يبلغ من ذلك شهوته، ثم يتوب فى آخر عمره، و هذا مذهب لا يرضاه الله من عباده و لا يقبله، الى ان يقول عليه السلام: فكان خير الأشياء للإنسان ان يستر عنه مبلغ عمره، فيكون-طول عمره-يتربح الموت فيترك المعاصى، و يؤثر العمل الصالح» (٢) و الساعه التى تعنيها الآيه الكريمة ليست كما هي عندنا، انما هي فى عرف القرآن اللحظه و أقل منها، و

فى الخبر يسأل الامام الصادق عليه السلام عن الناس يموتون بين فاتح لعينه و آخر مغمضها؟ يجيب: ان ملك الموت حينما يأتى على الرجل ليقبض روحه و هو مغمض العين، يستأذنه و يقول: ائذن لى افتحها، و الآخر على خلافه، فلا- يأذن لهما اذن لماذا نستهن بالزمن! و لماذا نقتل المسافه التى تفصلنا عن أجلنا باللهو و اللعب و المعصيه، و نحن لا نعرف متى ينتهى هذا الزمان! (٣١) ان من عقبات الايمان بالرساله حاله العناد التى يعالجها الذكر بيان نتائج السيئه، فيحدثنا السياق عن كلمه الكفار: بأنهم لا يؤمنون بالقرآن، و لا بالكتب التى سبقته، و كأنهم قد عقدوا العزم على هذا الرفض القاطع لرسالات ربهم.

ص: ٤٧١

١- ٢) بح ج / (٧٧) / ص (٧٥).

٢- ٣) بح ج / (٢) / ص (٨٤).

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ اللَّهُ يعالج مشكله العناد هذه عن طريق تصوير مشاهد رهيبه من يوم الآخره.

و من بين تلك المشاهد التي تتعرض لها آيات هذا الدرس وقوف الظالمين أمام ربهم، يلوم بعضهم بعضا، و لعل هذه المعالجه القرآنيه تدل على أن الإنسان يعتمد أولا على قوه ارضيه يزعم انها تمنعه من ربه، و تخلصه من جزاء كفره، ثم يستكبر على ربه، و يتحدى رسالاته، لذلك يبين السياق بطلان ذلك، و يصور لنا مشهد الحوار بين الكفار و من كانوا يعتمدون عليهم في الدنيا في كفرهم بالرساله، فيقول:

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَلْقَىٰ بَعْضُهُم الْمَسْئُولِيهِ عَلَى الْبَعْضِ الْآخِر، طمعا في النجاه من الذل و العذاب.

يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ متصورين انهم يقدرون على ذلك، كما هو الحال في الدنيا، و يتشبت بعضهم و هم المستضعفون بحجه اتباع المستكبرين.

يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ و لكن هل خلق الله الناس مستكبرا و مستضعفا حتى يكون لبعضهم على بعض سلطان مبین؟! كلا.. بل خلقهم أحرارا، و لكن خضع بعضهم للبعض الآخر بحريته، فشجعه على الاستعلاء في الأرض.

و لو عرف الإنسان مدى ضلاله الاعتماد على اولى القوه و الثروه و ادعاء العلم

و الذين ممن ينصبون أنفسهم سادة على الناس، و يأمرونهم باتباعهم، لما تورط كثير من الناس فى الجرائم، أتباعا للسلطين و المترفين و مؤيديهم من ادعاء العلم و الدين.

و لكن الإنسان يزعم ان هؤلاء المستكبرين ينقذونه من عذاب ربه يوم القيامة، كما انهم يوفرون له بعض الحماية فى الدنيا، و لا يعلم انهم مجرد ابتلاء له فى الدنيا، و انهم لا يغنون عنه من عذاب ربه شيئاً.

(٣٢) اما المستكبرون فإنهم من جانبهم يدفعون عن أنفسهم التهمة بأن الإنسان حرّ و مختار، لا يمكن لأحد إجباره على نمط معين من الحياة، و إذا ترك الحق للباطل فيما ينطوى عليه قلبه من النزوع الى الجريمة.

□ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا وَ هُمْ يَحَاوِلُوْنَ اِلْقَاءَ الْمَسْئُوْلِيَةِ عَنْ كَاهِلِهِمْ.

أ نَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ اِذْ جَاءَكُمْ بَلَى. قد يتوسل المستكبرون بالمكر و الاساليب المضله، و لكن يبقى الإنسان صاحب القرار، و إذا انحرف فلا يعدو إضلال المستكبرين له دور التشجيع.

بَيْلُكُمْ مُّجْرِمِينَ وَ هَذَا ضَرْبٌ مِنَ الشَّمَاتَةِ عَلَى الْاِنْسَانِ مِنْ قَبْلِ مَنْ كَانَ يَزْعَمُ اَنَّهُ يَخْلُصُهُ وَ يَنْجِيهِ، وَ لَعَلَّ ذَلِكَ مِنْ اَشَدِّ اَنْوَاعِ الْعَذَابِ الَّذِى يَلْقَاهُ اَصْحَابُ النَّارِ.

و لو عقل الناس هذه الحقيقه لانهارت أسس الظلم فى المجتمعات، حين يعلن

المستكبرون فيها، و يعيشون فساداً، و يتبعهم المستضعفون زاعمين أن ذلك يلقي المسؤوليه عن كاهلهم، و يجعلهم مبرئين من الجرائم التى يرتكبونها بحق بعضهم، و يقولون:المأمور معذور، و كأن الله أمرهم باتباعهم، أو انه خلقهم مستضعفين و جعل أولئك مستعلين عليهم.

(٣٣) و من صور الفكر التبريرى الذى يعتمدہ الإنسان:اعتقاده بأن الزمان هو الذى يفرض عليه نوعاً من السلوك، فيلقى عليه اللوم! وَ قَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا مَا كَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً و الكفر بالله ليس بالضرورة نفى وجوده بقدر ما هو تحدى رسالته، و اتباع الأهواء، أو الأشخاص، أو القوانين الوضعيه، و هذا ما يبعث على الإنسان بالندامه يوم الحساب، حيث يتبرأ منه الأنداد المزيفون، و يكتشف أنهم لا ينفعون بل يضررونه، و ان الكلمه الفصل هناك لله الحق.

وَ اسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَ لَاتِ حِينَ مَنَدِم.

وَ جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ حَتَّى يَقَاومَ الْإِنْسَانَ فَكْرَهُ إِقْيَاءَ الْمَسْئُولِيهِ عَلَى الْآخِرِينَ، يؤكد القرآن مره أخرى بان ما يلاقيه الإنسان فى الآخره من ألوان العذاب و صنوفه هو جزاء أعماله فى الدنيا، و أساساً فى الرساله الإلهيه-الجزء من جنس العمل، فالصلاه التى يقيمها المؤمن فى الدنيا تتحول حوريه فى الآخره، و على العكس فان الغيبه تصبح

زقوما يؤذى صاحبه، وربما تحولت الى حيات و عقارب و التي ورد في الحديث ان حجمها بحجم البغل، و لعل الأغلال التي يجعلها الله في أعناق الكفار هي ذات القيود التي يغل بها الناس أنفسهم باتباعهم في الدنيا للأهواء و الأشخاص و القوانين، و لعل خاتمه الآية تشير الى ذلك حين تقول:

هَيْلٌ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ و لم يؤكد القرآن الكلام بحرف الباء فيقول: بما كانوا يعملون، للاشارة إلى أن الأغلال هي ذات الأعمال التي عملوها في الدنيا و الله العالم.

اشاره

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۳۴) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمَعْبُدِينَ
 (۳۵) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۳۶) وَمِمَّا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ
 عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (۳۷) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي
 آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (۳۸) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ
 فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۳۹) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (۴۰) قَالُوا سُبْحَانَكَ
 أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ يَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ
 لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (۴۲)

اللغه

۳۷ [زلفی]: مصدر زلف بمعنى قرب و هو منصوب على المصدریه أى تقرّبکم تقرّباً.

هدى من الآيات:

فى سياق تفنيد التبريرات التى يتشبث بها الإنسان للتهرب من مسؤولياته تبين الآيات ضلاله الاعتماد على المال و الثروه، فما من قريه أرسل الله فيها منذرين الأ و ادعى مترفوها بأنهم الأولى بالقيادة، لأنهم يملكون الثروه، فهم فى زعمهم مرضيون عند ربهم، و لا يمسه العذاب.

و ينسف القرآن هذه الفكره مرتين:

مره حينما يذكرنا بأن ثروه هؤلاء ليست من أنفسهم، بل هى من عند الله، و مره أخرى عند ما يبين لنا بان مقياس رضى الرب عن الإنسان ليس ما يملك من الثروه، فرب غنى بغيض عند ربه، و رب فقير مرضى عنده، انما الثروه كما السلطه و القوه و سائر النعم الالهيه وسائل لابتلاء الإنسان و اختباره فى الدنيا.

ص: ٤٧٨

ثم يوجهنا السياق لاتخاذ الثروه سييلا- لمرضاه الخالق باستخدامها الصحيح، و إنفاقها في سبيله، كما يؤكد ذلك بأن ما يعطيه الإنسان في سبيل الله يخلف له زياده الخير في الدنيا، و بالجنان في الآخرة، ثم بأن ما يملكه الناس انما هو من الله و ليس من عند أنفسهم.

ثم تعالج الآيات فكره عباده الأولياء- كالملائكه، و الجن، و الصالحين- من دون الله، و ذلك عبر حوار بين الله و ملائكته، إذ يسألهم: هل كان هؤلاء يعبدونكم؟ فتنفى الملائكه ذلك، و تستغفر الله خوفا و رهبه مما يدعيه الناس عنهم اما عن هدف هذه العباده فهو التهرب من المسؤوليه، و الزعم بان الملائكه سوف ينقذونهم من نار جهنم ان هم عبدوهم.

بينات من الآيات:

(٣٤) يبدو أن أغلب المترفين- و هم الذين نعمهم الله فأسرفوا- معاندون، و يكفرون بالرسالات، بل و يحملون لواء الحرب ضدها. و ما أرسلنا في قريه من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون و لعل القرآن عبر في هذه الآيه بكلمه «قريه» عن المدينه، بل عن الحضاره بأجمعها، استصغارا لها، و لأن من لا- يعبدون الله، و لا- يتبعون رسالا-ته في حياتهم و حضارتهم أقلية و ان كثرت أعدادهم، ذلك أن القيمه الحقيقيه للإنسان كما المجتمع بقربه من الحق أو بعده عنه، لا بما يملك من تقدم مادي بحت.

(٣٥) اما لماذا يكفر هذا الفريق فذلك- كما يصرحون أنفسهم- للأسباب التاليه:

الاول: كثره الأموال و الأولاد، و لعل التعبير كما الأموال لا يختص بظاهر الكلمتين انما تشمل كلمه الأموال كل أنواع الثروه، كما تنطوى كلمه الأولاد أيضا على الأتباع و المطيعين.

وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا إِذْ أَنْ أَوْلَ أُهُدَافِ الرِّسْلِ هُوَ تَغْيِيرُ الْقُوَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَاكِمَةَ عَلَى النَّاسِ، وَ لَكِنِ الْمَتْرَفِينَ يَعَارِضُونَ ذَلِكَ مَبْرَرِينَ رَفْضَهُمْ بِأَنَّ السُّلْطَةَ لَا تَكُونُ لِصَاحِبِ الْحَقِّ وَ الْعِلْمِ، إِنَّمَا لِلْمَتْرَفِ بِمَا يَمْلِكُ مِنَ الْمَالِ وَ الْإِتْبَاعِ.

الثانى: الاعتقاد بأن من يملك المال و الرجال لا يلحقه الأذى، و لا يشمل العذاب الالهى، حتى و لو فعل الفواحش.

وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ وَ لَعَلَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ تَكُونُ سَبَبًا لِتَوَغُّلِهِمْ فِي الْجَرَائِمِ، لِأَنَّ اعْتِمَادَ الْإِنْسَانَ عَلَى مَا يَمْلِكُ مِنَ الْمَالِ وَ مُؤَيِّدِينَ، بَعِيدًا عَنِ هُدَى اللَّهِ وَ الْعَقْلِ يَقْحَمُهُ فِي الْمَهَالِكِ، وَ هَذَا مَا دَفَعَ امْرِيكَ لِلدَّخُولِ فِي حَرْبِ فَيْتِنَامِ، فَتَمَرَّغَ أَنْفَهُمَا، وَ سَقَطَتْ هَيْبَتُهَا الْمَزِيْفَةُ، كَمَا سَقَطَتْ رُوسِيَا بِاحْتِلَالِهَا أَفْغَانِسْتَانَ الْإِسْلَامِيَّةَ غُرُورًا وَ اسْتِكْبَارًا، فَتَعَرَّضَتْ لِهَزَائِمٍ مَنكَرَةٍ عَلَى يَدِ ابْطَالِ الْإِسْلَامِ هُنَالِكَ.

و ما يدريك لعل الغرور يكون سببا لانتهاج الجاهليه الحديثه؟

فقد قال الامام على عليه السلام يصف بعض الأقسام:

«زرعوا الفجور و سقوه الغرور، و حصدوا الثبور» (١)

ص: ٤٨٠

و قال عليه السلام :

«طوبى لمن لم تقتله قاتلات الغرور» (1) (36) و يعالج ربنا هذا الانحراف النفسى حينما يذكر بأن ما فى أيدى الناس من مال انما هو من عند الله لا من عند أنفسهم حتى يغتروا بها.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ فَتَارَهُ يَزِيدُ اللَّهُ الرِّزْقَ لِلْعَبْدِ حَتَّى يَكْفِيَهُ وَ أَكْثَرَ، وَ تَارَهُ يَضِيقُ عَلَيْهِ فِيهِ، فَالْغَنَى وَ الْفَقْرُ اذْنٌ بِيَدِهِ عَزَّ وَ جَلَّ، وَ لَعَلَّ غَنَى الْيَوْمِ يَكُونُ فَقِيرًا غَدًا أَوْ الْعَكْسُ، اَلَا أَنَّ الْغَالِبِيَةَ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْقِلُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ اَلَا ظَاهِرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَيَعْتَقِدُونَ مِثْلًا أَنَّ سَعِيهِمْ فَقَطْ يَدْرُ الرِّزْقَ، وَ لَوْ تَعَمَّقُوا فِي الْحَيَاةِ قَلِيلًا لَعَرَفُوا أَنَّ ذَلِكَ وَسِيلُهُ فَقَطْ أَمَّا السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ فَهُوَ رَحْمَةُ اللَّهِ.

وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَ لَعَلَّ مِنْ مَشَاكِلِ الْبَشَرِ الْعَقْلِيَّةِ وَ النَّفْسِيَّةِ أَنَّهُمْ لَا يَتَدَرَّجُونَ فِي تَعْلِيلِ ظَوَاهِرِ الْحَيَاةِ لِمَعْرِفَةِ الْعِلَّةِ الْأَسْمَى وَ الْأَرْفَعِ، اِنَّمَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الْمُبَاشِرَةِ.

(37) ثم لنفترض بأن المترفين يملكون الأموال و الأولاد، فهل ذلك يقربهم الى ربهم. كلا..

وَ مِمَّا أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ بَلَىٰ. مِنَ الْمُمْكِنِ اِنْ يَكُونُ الْمَالُ وَ الْاِتِّبَاعُ وَسِيلَهُ لِرِضَى الرَّبِّ، وَ ذَلِكَ إِذَا بَعَثَ

ص: ٤٨١

(٢-١) غرر الحكم.

الايمان فى القلب، و تحول الى أعمال الخير و الصلاح، فعمر بالمال الحرث و النسل، و استخدمت القوى البشرى للدفاع عن المستضعفين و احقاق الحق، و متى صار أصحاب المال و الاتباع بهذا المستوى عظم شأنهم عند ربهم بزيادة الخير لهم فى الدنيا، و أعطاهم الجنان و الأمن فى الآخرة.

إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الضُّعْفِ لايمانهم من جهه، و لعلمهم من جهه أخرى، و هذا ما يشير اليه

الحديث الشريف:

«شكر الغنى خير من صبر الفقير»

و فى تفسير القمى قال: ذكر رجل عند أبى عبد الله عليه السلام الأغنياء و وقع فيهم، فقال ابو عبد الله عليه السلام:

«اسكت! فان الغنى إذا كان وصولاً - لرحمه، باراً بإخوانه، أضعف الله له الأجر ضعفين لان الله يقول: و ذكر الآيه» (1) أما جزاء الآخرة فهو الأمن من فزع يومئذ.

وَ هُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٨) كان هذا جزاء الغنى حينما يستخدم قدراته الماديه و البشرى فى سبيل إعلاء كلمه ربه، اما إذا كان الغنى طريقاً للجحود، و لحرب الرسالات الإلهيه، فليس جزاؤه سوى العذاب الشديد.

ص: ٤٨٢

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا وَ هِيَ الْقُرْآنُ، وَ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْحَقَائِقِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَ الْمَادِيَّةِ كَالْقِيَادَاتِ وَ آيَاتِ الطَّبِيعَةِ.

مُعَاجِزِينَ أَيْ يَجْعَلُونَهَا عَاجِزَةً عَنِ بَيَانِ الْحَقِيقَةِ، عِبْرَ إِثَارَةِ الشَّبَهَاتِ الزَّائِفَةِ حَوْلَهَا، أَوْ تَفْسِيرِهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا.

أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرُونَ أَرَادُوا ذَلِكَ أَوْ رَفَضُوهُ.

و تَتَضَمَّنُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ مَعْنِيْن:

المعنى الاول: ان المعاند الذى قرر الكفر بالله، و السعى من أجل تحريف آياته ذاتها، أو تأويل دلالاتها، فانه حتى لو قرأ القرآن أو بحث عن الحقائق فليس للايمان بها و انما للبحث عن وسيله لردها و معارضتها.

المعنى الثانى: أن المنحرف يستخدم كل قوه يملكها فى غير أهدافها المشروعه، فاذا بالمال الذى هدفه تقويم النظام الاجتماعى، و تحريك الفاعليه الاقتصاديه، يصبح وسيله لدمار المجتمع، و إفساد الإقتصاد، و إذا بالسلطه التى هدفها اقامه العدل، و بناء الحياه الفاضله، تصير أداه لفساد الأرض، و هلاك الحرث و النسل و إذا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (١)

ص: ٤٨٣

و إذا بالآيات التى هى وسيله الهدايه تضحى عندهم محورا للمعاجزه و للجدال العقيم، فتزيدهم كفرا و طغيانا.

و حينما نقرأ اليوم عن اقتصاد العالم نرى كيف صارت الثروه أداه لهدم الحضاره، فميزانيات التسلح فى هذا العصر تبتلع انتاج الحضاره البشريه، و كل التقدم العلمى و التكنولوجى لديها، فاذا بالمترفين و حفاظا على مصالحهم، يلقون بالقنابل المدمره على مدينه بنتها القوى و الفاعليات البشريه خلال عشرات السنين، فتدمرها فى بضع دقائق، كما فعلت القنبله الذريه فى هيروشيما و نكزاكى، أو كما فعلت قنابل الحلفاء فى المدن الالمانيه.

(٣٩) اذن فما هو الموقف السليم من الآيات و الأفكار السليمه، و من الثروه و القوه و هما من آيات الله؟ الجواب أولا: معرفه المنعم مقدمه لشكره النظرى و العملى.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ فَالذِي يَرَىٰ اَنْ رَبه هُو الذى أعطاه ما يملك لا يكفر به، و لا يحارب رسالاته، و عباده الصالحين، و لا يخشى من الإنفاق فى سبيله، بل يسعى لذلك إحساسا منه بالمسؤوليه. أو ليس القدرات و الإمكانيات كما النفس امانه من عند الله؟! فلما ذا لا يردّها حين يطلبها منه. بلى. سوف يعطيها راضيا مطمئنا لرزق ربه.

وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ ذَلِكُمْ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ:

الناحيه الغيبيه:

قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

ص: ٤٨٤

«و من يبسط يده بالمعروف إذا وجده يخلف الله له ما أنفق في دنياه، و يضاعف له في آخرته» (١)

و قال ابو عبد الله عليه السلام :

«أن الرب-تبارك و تعالى-ينزل أمره كل ليله جمعه الى السماء الدنيا من أول الليل، و في كل ليله في الثلث الأخير، و أمامه ملك ينادى: هل من تائب يتاب عليه؟ هل من مستغفر يغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤاله؟ اللهم أعط كل منفق خلفاً، و كل ممسك تلفاً، الى أن يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر عاد أمر الرب-تبارك و تعالى-الى عرشه، فيقسم أرزاق العباد» (٢) و لعل الناحية الغيبية في خلف الرزق و مضاعفه تكمن في البركة الإلهية التي يسبغها على عبده، و في التوفيق الى القرارات الصائبة، و التصرفات الماليه النافعه.

الناحية الطبيعيه: ان ما يدفع الإنسان للبحث عن حوائجه و من بينها المال هو الشعور بالحاجه، و لا شك أن المنفق سوف يسعى بقواه العقليه و الماديه من أجل التعويض عما أنفقه، عبر تحريك المال من خلال المشاريع و الأعمال المختلفه.

و حتى ينفق الإنسان في سبيل الله، لا-بد ان يتعرف على كرم ربه عز و جل، لهذا لم يكتف القرآن بذكر ما تقدم-من أن الله يخلف على من أنفق-انما أضاف.

وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

ص: ٤٨٥

١-٥) نور الثقلين/ج(٤)/ص(٣٤٠).

٢-٦) المصدر/ص(٣٣٩).

و الأحاديث تؤكد هذه الحقيقة،

قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«من صدق بالخلف، جاد بالعطية» (١)

و قال صلى الله عليه وآله :

«من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة» (٢) و هل يصدق بالخلف و يوقن به الا إذا عرف أن ربه خير الرازقين.

ثم لماذا لا ينفق الإنسان ماله فى سبيل الله و هو ان بقى لم ينتفع به، و ان أنفقه كان فى سبيل الحق،

قال الامام الباقر عليه السلام للحسين ابن أيمن:

«يا حسين! أنفق و أيقن بالخلف من الله، فانه لم يبخل عبد و لا أمه بنفقه فيما يرضى الله عز و جل الا أنفق أضعافها فيما يسخط الله» (٣) (٤٠) هروبا من ثقل المسؤليه يتشبه البشر بأى تبرير، و لا بد من إبطال كل تبريراته، ليتحمل أمانته بصدق، و ما عبادتهم للأصنام أو الملائكة أو الجن إلا صورته لهذه الحقيقة، و يفند السياق هذه العباده عبر ذكر الحوار الذى يجرى بين الرب و بين عباده المكرمين من الملائكة، حيث يجمعهم هم و الذين زعموا أنهم يعبدونهم من المشركين، ثم يخاطب الملائكة بما يوحى: كيف رضيتم بعباده المشركين لكم؟! فيجيبون: أولا: نحن لا نتخذ من دونك وليا، و بالتالى لا نرضى بعباده أحد

ص: ٤٨٤

١- (٧) المصدر/ص (٢٣٩).

٢- (٨) المصدر/ص (٣٤٠).

٣- (٩) المصدر/ص (٢٤٠).

لنا، ثانياً: إذا كانت العبادة حقاً هي الطاعة فإنهم كانوا مطيعين للجن و ليس لنا نحن الملائكة.

وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعاً الْمَشْرُكُونَ و من عبدوهم.

ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ و لعل تقديم المفعول الذى يدل على الحصر يوحى بأن طبيعه العباده لا تتجزأ، فلو كانوا يعبدون الملائكة حقا فلا بد انهم كانوا يخلصون العباده لهم.

(٤١) هنالك انكشف زيف ادعاء المشركين عبادتهم للملائكة إذ...

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا يَمُكِنُ أَنْ نَرْضَى بِشْرِيكَ لَكَ، فَأَنْتَ الرَّبُّ الْقُدُّوسُ، الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ.

أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ و يبدو ان معنى «الولى» هو القريب، فيكون مراد الملائكة: أنت الذى نتقرب إليك، و لسنا نرضى بقرب هؤلاء الذين لا يسوى ولاؤهم لنا شيئا، فما قيمه عباده همج رعاع، لا يضررون و لا ينفعون؟! و نستوحى من هذه الإجابة: ان علينا ألا نرضى بطاعه الناس لنا إذا كانت تسخط الرب، فان طاعتهم لا تغنى شيئا عن عذاب الرب، و ما قيمه طاعتهم إذا أسخطت ربنا الذى بيده نفعنا و ضرنا و هو بكل شىء قدير؟! ثم أشارت الملائكة إلى أن عباده المشركين هي للجن فى الواقع.

ص: ٤٨٧

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ فَالْعِبَادَةُ هِيَ الطَّاعَةُ، وَبِالطَّاعَةِ تَعَكُّسُ تَوَجُّهَاتِ الْمَعْبُودِ عَلَى سُلُوكِ الْعَابِدِ، وَبِمَا إِنْ سَلُوكَ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْحَرِفَ يَعْكَسُ تَوَجُّهَاتِ الْجِنِّ فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الْوَاقِعِ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ الَّتِي هِيَ الْمَوْجُودَاتُ الْغَيْبِيَّةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مُنْحَرِفَةً، وَلِذَلِكَ أَمَرْنَا اللَّهَ أَنْ نَسْتَعِيدَ بِهِ مِنْهُمْ فِي سُورَةِ النَّاسِ فَقَالَ: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ .

ثم إن العبادة تعكس عاده صله العابد بالمعبود، واصله هؤلاء كانت مع الجن دون الملائكة، إذ أن الجن كانت توسوس في صدورهم، وتدعوهم إلى الضلالة.

أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ فَالْجَاهِلِيُّونَ كَانُوا يَنْسُبُونَ الْخَوَارِقَ لِلْجِنِّ، وَيَقْدَسُونَهَا، وَلَعَلَّ تَغْيِيرَ الصِّيغَةِ مِنَ الْعَمُومِ إِلَى الْإِكْثَرِيَّةِ جَاءَ بِسَبَبِ أَنْ الْعِبَادَةَ أَشْمَلَتْ مِنَ الْإِيمَانِ إِذَا فَسَّرْنَاهَا بِالتَّسْلِيمِ وَالطَّاعَةِ الْمَطْلُوقَةِ، فَكَثِيرٌ أَوْلَتْكَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ السُّلْطَانِينَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِمْ، وَ مِنْ أَبْرَزِ مَظَاهِرِ الْعِبَادَةِ بِلَا إِيمَانٍ طَاعَةُ الْبَسْطَاءِ لِلْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ، وَ اتَّخَاذُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، دُونَ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُمْ، أَوْ يُؤْمِنُوا بِأَنَّهُمْ خَالِقُوهُمْ وَ رَازِقُوهُمْ.

(٤٢) وَ يَنْسِفُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَسَاسَ الشِّرْكِ، وَ عِبَادَةَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْجِنِّ بِأَنَّ الْخَلَائِقَ لَا تَمْلِكُ نَفْعًا، وَ لَا تَدْفَعُ ضَرًّا مِنْ دُونِ أَمْرِ اللَّهِ وَ إِذْنِهِ.

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا وَ يُؤَكِّدُ رَبُّنَا مَسْئُولِيَةَ الْإِنْسَانِ عَنْ أَعْمَالِهِ دُونَ أَنْ يَقْدِرَ الشَّرْكَاءُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ

من دون الله نجاته من النار.

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ

ص: ٤٨٩

اشاره

وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (۴۳) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (۴۴) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (۴۵) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْيِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَنَّتِي وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (۴۶) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۴۷) قُلْ إِنْ رَبِّي يَفْقِذُ بِالْحَقِّ عَلامَ الْغُيُوبِ (۴۸) قُلْ لَجَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ (۴۹) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (۵۰) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ فَرَعُوا فَلَا قَوَّةَ وَ أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (۵۱) وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (۵۲) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (۵۴)

٥٢]التناوش[:بمعنى التناول، أى لا يتمكنون من تناول الإيمان المفيد لحالهم.

ص: ٤٩١

و ما يبدأ الباطل و ما يعيد

هدى من الآيات:

فى سياق معالجه أمراض الفؤاد، و التبريرات التى يتشبث بها الكفار يداوى الذكر هنا مرض التقليد الأعمى، الذى يدعو الى تكذيب الرسول، و يسوق الحجج على صدق الرسالات:

أولاً: بان القوم جاهليون، و لا رساله إلهيه لهم من قبل حتى يفتخروا بها، و لا رسول نذير.

ثانياً: ان الله أهلك القرون الغابره بتكذيبهم، و قد كانوا أشد منهم قوه، و ما بلغ هؤلاء معشار ما بلغه أولئك.

ثالثاً: ليقوموا لله مثنى و فرادى، ثم يعودوا الى ضمائرهم و يتساءلوا فى أنفسهم: هل صحيح ما يتهمون به رسولهم من الجنون، أ فلا يعرفون ان صفاته صفات من يندرهم بعذاب شديد و ليس صفات مجنون حاشاه؟!!

رابعاً: ان ما نسبوه اليه من الكذب ينفيه شده إخلاصه لرسالته، و انه لا يطالبهم بأجر، بل كل ما يتغيه هو خير لهم، و ان يشهد ربه على أفعاله.

خامساً: انه يذكر أبداً بالحق، و ان الحق باق، و يقذفه الله على الباطل فيدمغه، و انه إذا جاء الحق زهق الباطل، و هذا أكبر شهاده على صدق رسالات الله، حيث انها حق، و أن الله ينصرها.

و تشير الآيات الى ان الهدى من الله، و ان الرسول يهتدى بهدى الله، و ان عاقبه الضلاله تعود الى صاحبها.

سادساً: يحذرهم عذاب الله الذى أعده للكافرين برسالاته حين يؤخذون فزعين، لا يفوت أحد منهم هرباً، بل يؤخذون من مكان قريب.

و حينذاك قالوا: آمنا، و لكن كيف يؤمنون هنالك و لا ينفعهم الايمان الا فى الدنيا؟! و يكون مثلهم مثل من يريد التناوش من مكان بعيد. أو ليسوا قد كفروا به من قبل يوم كانت الفرصه متاحه؟! و هكذا لا يبلغون منا هم كما لم يبلغ الأولون أمانهم لأنهم كانوا فى شكّ مريب.

بينات من الآيات:

(٤٣) يخلط أعداء الرساله أمرها عاده و أمر صاحبها، فاذا بهم يتركون الحديث عنها و عن الآيات الواضحه التى تتلى عليهم و يحاولون النيل من رسولهم (مبلغها إليهم).

وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ

يُضِدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ فَهَمَّ يَرِيدُونَ أَوْلَا إِسْقَاطَ شَخْصِيهِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي الْمَجْتَمَعِ، حَتَّى يَتَسَنَّى لَهُمْ رَفْضَ أَفْكَارِهِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ إِثَارَةِ الْعَصِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَفْلَحُوا فِي ذَلِكَ لَأَوْجَدُوا هَدْفَهُمْ وَهُوَ الْعَدَاءُ بَيْنَ الْمَجْتَمَعِ وَبَيْنَ الرَّسُولِ، بِحَيْثُ يَتَّخِذُ الْمَجْتَمَعُ مَوْقِفًا مَسْتَبَقًا تَجَاهَ كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنَ الْأَفْكَارِ، وَكَانَ هَذَا وَرَاءَ كُفْرِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ بَرَّوْا كُفْرَهُمْ بِأَنِ اتَّهَمُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

قَالُوا مَلَأَ هَذَا إِلَّا- إِفْكَكَ مُفْتَرَى حَتَّى لَا يَسْلَمَ النَّاسُ مَبَاشِرَةً لِلرَّسَالَةِ، ثُمَّ يَقُومُوا بِإِعْطَاءِ الْمَقَايِيسِ الْخَاطِئَةَ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى نَتِيجَةٍ مِنْ جَنْسِهَا، وَهَذَا أَسْمَا الرَّسَالَةِ بِالْإِفْكَكَ الْمَفْتَرَى وَهُوَ الْكُذْبُ الْمَجْبُوكُ، وَلَمَّا اكْتَشَفُوا أَنَّ الْكُذْبَ هُوَ مَا يَخَالِفُ الْحَقِيقَةَ، وَ أَنَّ الَّذِي يَقُولُهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَيْنَ الْحَقِيقَةِ، فَكَّرُوا فِي تَغْيِيرِ مَوْقِفِهِمْ بِالْبَحْثِ عَنْ تَسْمِيَةِ أَكْثَرِ مَنَاسِبِهِ مِنَ الْكُذْبِ، فِيهَا شَبَاهَةٌ بِالْوَقَائِعِ وَ لَوْ ظَاهِرًا، حَتَّى يَقْنَعُوا الْمَجْتَمَعُ بِأَنَّ مَا يَرَاهُ لَيْسَ هُوَ الْحَقُّ، فَلَمْ يَجِدُوا فِي نَظَرِهِمْ أَفْضَلَ مِنْ تَهْمَةِ السِّحْرِ.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا- سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٤) وَ يَبِينُ اللَّهُ الدَّافِعَ الْحَقِيقِيَّ لَهُؤُلَاءِ نَحْوَ تَكْذِيبِ الرَّسَالَةِ وَ مَعَارَضَتِهَا إِلَّا وَ هُوَ الْجَهْلُ، وَ

فِي الْحَدِيثِ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«الناس أعداء ما جهلوا» (١) و جهل المجتمع الذي جاءه الرسول صلى الله عليه و آله يتجسد في انعدام الخلفيه الفكرية

ص: ٤٩٤

وَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا اى لم تصلهم اصدقاء الرسالات الأخرى فيستتروا بها.

وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ فتكون ثمه بقايا لحركته الرساليه فيهم، ليقيسوا بينك و بينه فيعرفون الحقيقه، فإنكار هؤلاء نابع من غرور الجهل لا- من أسس علميه، و لعل فى الآيه اشاره الى ان هؤلاء الذين يتغنون بامجاد أجدادهم، و يخشون عليها من الرساله، لا يوجد فى ماضيهم نور المعرفة أو ضياء الرساله، فلا ينبغى لهم ان يقلدوا آباءهم البعيدين عن العلم و الرساله.

(٤٥) ثم ينسف الله قاعده أخرى لكفرهم و هى غرورهم بقوتهم، و يندرهم بان القوه الظاهريه لا- تمنع عنهم جزاء كفرهم و ظلمهم، و ان الذين كفروا بالرسالات من قبلهم كانوا أشد منهم قوه، و أكثر جمعا، و لكن الله دمرهم فهل يقدرّون على تجنب هذا المصير.

وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ.

فَكَذَّبُوا رُسُلِي غرورا بما يملكون من طاقات و امكانات و جهلا بهما، و لكن هل منعت قوتهم عنهم العذاب؟! كلا.. انما تعرضوا لنعمات الله الجبار، و القرآن يوجّهنا لدراسه

تاريخ تلك الأمم و مصائرهم للاعتبار بها فيقول:

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ وَالنَّكِيرُ:السوء الذى ينكره الإنسان و لا يريد،اشاره الى فظاعه الخطب و الدمار اللاحق بهم.

و بعد ان نسف القرآن قواعد الكفر،و أبطل أعذار رفض الرساله من اتباع الآباء،أو الغرور بالقوه،دعاهم الى التفكير.و هذا هو المنهج السليم فى الدعوه:ان ترفع فى البدء الحجب التى تمنع الرؤيه،ثم تخاطب الوجدان،و تستشير العقل بالدعوه الى التفكير.

قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفَرَادَى بِصُورِهِ جَمَاعِيهِ-اثنان اثنان و أكثر-أو بصوره فرديه.

و يجب ان يكون هذا القيام بهدف التفكير لمعرفة الحقيقه التى تخالف أراجيف الكبراء و المترفين حول الرسول صلى الله عليه و آله .

ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ و أول ما يذكرهم به بعد استشاره عقولهم هو ان صاحبهم الذى عرفوه طوال أربعين سنه ليس بمجنون،و كيف يكون به جنه و الحكمه تتفجر من جوانبه،و تشهد مواقفه على كمال عقله،و فصل منطقته؟! فهو انما يتحدث لكم عن حقيقه لو تركتموها أصابتكم نقمه،و هذا أدعى الى

التفكر، وأقوى في آثاره العقل.

و إذا كان الله قد رفع عن أمه النبي محمد صلى الله عليه و آله العذاب المادى كالصواعق و الريح كرامه له، فان سنته في تعذيب الجاحدين جاريه في صور أخرى كالتخلف و التبعية و الحروب، فما تعيشه الامه الاسلاميه الى اليوم انما بسبب الأفكار و العادات المتخلفه التي تعارض رساله الله.

و لعل هذه الآيه تنسحب الى كل الدعوات الاصلاحيه، و في كل عصر، فليس من الصحيح ان يرفض المجتمع أو يقبل ايه دعوه بصوره ارتجاليه سريعه، فلعل ما يرفضه يكون صحيحا، و لعل ما يقبله يكون خطأ، انما يجب عليه التفكير الشامل عميقا، في ظروف مناسبه، و عبر منهج حكيم، و بهدف شريف هو التوصل الى الحقيقه، و لهذا أكد القرآن أن يكون القيام لله و ليس بهدف آخر، إذ من الممكن ان يطلب العلم من أجل المصالح الشهوانيه الماديه كالشهره و المال فلا يبلغ الحقيقه، بينما إذا أخلص الإنسان نيته لله عند بحثه عن الحق هداه الله اليه، لان من شروط التفكير السليم الهدف السليم منه، و لعل هذا هو سبب تقديم النيه المخلصه (القيام لله) على التفكير.

بعد ان نسف السياق قواعد الجحود و رفع عن الأبصار غشاوات العناد و المعاجزه ثم أمرهم بالتفكر بنيه صادقه، ذكّرهم بشواهد صدق الرسول صلى الله عليه و آله و من أبرزها:

إخلاصه في دعوته، حيث لا- يطمع في أجر، اللهم إلا- اجرا يعود إليهم نفعه، أو ليس الكاذب أو الساحر يقترب جريمه التضليل بهدف مادى؟! و ها هو الرسول لا يبحث عن أجر مادى فهو إذا صادق.

(٤٧) و لان التفكير السليم سوف يقود الإنسان للايمان بالله، و الالتزام بالدين، الأمر الذي يكلف شيئا من التضحيه كضريه لتحمل الرساله، يؤكد القرآن أن هذه

التضحيات تخرج من يد الناس لتعود إليهم بالنفع في الدنيا والآخرة.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ و ليس للرسول، لأنه يعمل لله و ليس للمصلحه، و هذا من الدلائل على صدق الأنبياء في دعوتهم.

إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ يلحظ كل جهد و حركه في سبيله، ليضيف ذلك الى رصيد الرساليين، و يشيهم على عملهم بالتوفيق و النصر في الدنيا، و بالجنه و الرضوان في الآخرة.

(٤٨) ثم تهدينا الآيات الى احدى خصائص الأنبياء في صراعهم مع أنصار الباطل و هي شهادة الله على صدق رسالاتهم، لأنها حق، و الله يؤيد الحق، و لمعرفه الرسل بهذه الحقيقه فإنهم يتوكلون على ربهم، و يخوضون غمار التحديات دون ان يخشوا أحدا أو يخافوا فشلا.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ كِيَانِ الْبَاطِلِ فِيهِدَمُهُ، و الله..

عَلَامُ الْغُيُوبِ و لان الرسول يوحى اليه من لدن علام الغيوب، فهو يبصر ما لا يراه الآخرون، و يتدرج من نصر الى نصر حتى يفتح الله على يديه البلاد، و هذا أقوى شاهد على صدقه، و انه يدعوا الى الله الذي هو على كل شيء شهيد، و لعل خاتمه الآيه السابقه كانت تمهيدا لبيان هذه الحقيقه و هي شهادة الله على صدق رسالته.

(٤٩) وحين يأتي الحق يزهق الباطل، و ربّ أمه تبقى سادره فى الغيّ و الضلال مئآت السنين، لكنها تهتدى للحق إذا جاءها مصلح يحمل رايه الحق.

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ فَهُوَ مَسْلُوبُ الْإِرَادَةِ أَمَامَ الْحَقِّ، وَ هَذَا يَعْنِي أَنَّ مَا نَرَاهُ مِنْ غَلْبِهِ ظَاهِرِيهِ لِأَنْصَارِ الْبَاطِلِ عَلَى أَنْصَارِ الْحَقِّ، لَيْسَ لِقُوَّةِ فِيهِمْ بَلْ لضعف فى الطرف المقابل، فهؤلاء تدعمهم إرادته الله، و سنن الحياه و منطق الحق، و كان أحرى بهم، أن يربحوا المعركة لو لا انفصام العلاقة بينهم و بين عوامل النصر.

و لعل معنى وَ مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ: أنه لم يكن -منذ البدء- شيئاً، فهو زهوق بذاته.

و فسروا الآيه تفسيرات شتى، و ربما الأقرب ما ذكرناه آنفاً، و يحتمل أيضاً أن يكون المعنى: أن الباطل لا يبتدأ فى كيان جديد و لا يتجدد كيانه السابق.

(٥٠) ثم أن الضلاله نابعه من نفس الإنسان، بما تنطوى عليه من الضعف و العجز و الجهل و..و..، بينما الهدى نعمه من الله له، و إذا ضل الإنسان فإن المردود السلبي للضلاله سيعود عليه.

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ وَ فى الآيه تذكره بالرساله، و انها مبعث الهدى، و أن الضلاله تعود على صاحبها بالخسار العظيم.

و لعل خاتمه الآيه تشمل على طلب بالهدايه، فى أرقى صيغ الدعاء، بما تشمل

عليه العبارات من تنزيه لله، و اعتراف بالضعف أمامه، و الحاجه اليه، و انه مصدر الخير الذى ذروته الهدايه للحق، و انه السميع لدعاء عبده برحمته، و القريب فى الاجابه بكرمه وجوده.

(٥١) و فى نهايه السوره يعود السياق للتذكير بالآخره، لأنها أعظم فكره تعطى التوازن لروح الإنسان و عقله، و لهذا نجد الذكر الحكيم يؤكد على الايمان بالآخره عند حديثه عن مختلف حقول المعرفه.

و انما يجحد البشر الحق اتباعا لشهواته، و بحثا عن مصالحه فى زعمه، فإذا عرف ان الجحود ينتهى به الى نار جهنم فأيه مصالحه له فيه؟ وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ فَرَغُوا فَلَآ فَوَتْ فِهِمْ يَرْهَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، و لكنهم لا يستطيعون الفرار من العداله الالهيه حينئذ.

وَ أُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ لَّأَن قَدَرَهُ اللَّهُ وَ حَكُومَتُهُ تَشْمَلُ الْكُونَ بِأَكْمَلِهِ، فأينما كانوا فهم قريبون من أخذ الله،

و جاء فى روايه أبى حمزه الثمالى قال سمعت على بن الحسين و الحسن بن على يقولان:

«هو جيش البيداء يؤخذون من تحت اقدامهم» (١) و هو اشاره الى يوم ظهور القائم من آل محمد-صلى الله عليه و آله-حيث يبيد الله جيش الكفر فى منطقه بين مكه و المدينه تسمى بالبيداء.

ص: ٥٠٠

(٥٢) و في اللحظة التي ينزل فيها عذاب الله يرى الكفار عين الحقيقة، و انه لا- خيار سوى الايمان، و كان ينبغي لهم ان يؤمنوا بذلك، في يوم الحريه و الاختيار التي يكون عليها الثواب و العقاب، لأنها تلتقى و حكمه الله من خلق الدنيا.

وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ أَوْ نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ، و لكن هيهات فالإيمان بعيد عنهم، لأنه قمه ساميه لا يصلها الإنسان الا بالنيه الصادقه و العمل الصالح، بل و السعى الحثيث و الجهاد الدؤوب.

وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ فليس الايمان كلمه يقولها الواحد في اللحظة الأخيره من عمره، و كيف يعيد الإنسان دوره الزمن الى الوراء، فيشتغل الى أيام حريته التي قصر فيها، كلاً.. إنه يشبه التناوش من مكان بعيد، كمن يقف على الأرض و يريد أن يتناول بيده ما على الذرى السامقه.

و في الحديث قال ابو حمزه الثمالي سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله عز و جل: وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ قال:

«انهم طلبوا الهدى من حيث لا ينال و قد كان لهم مبدولاً من حيث ينال» (١) (٥٣) لقد كفروا بالوحى فى الدنيا و فاتت فرصتهم.

ص: ٥٠١

١- ٢) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٣٤٥).

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ فَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ عَلَىٰ غَيْرِ بَصِيرَةٍ، وبعيدا عن الواقع، و من دون هدف، بينما يقذف الله بالحق و هو يعلم بتفاصيل كل شىء، و هذا ما يجعل الوحي صادقا لا نقص فيه، بينما كلامهم باطل فى باطل.

(٥٤) و من الشواهد على ان الباطل سراب لا ينتهى الى شىء، ان من اتبعه كان يبحث من ورائه عن الملذات و الشهوات، و لكن الموت أو نصر المؤمنين، الذى يقضى به الله عليهم يحول بينهم و بين الوصول إليها.

وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ وَ هذه سنه جرت على الأجيال الماضيه من أمثالهم، لكنهم لم يستفيدوا ممن سبقهم فحلت بهم الندامه، و لفهم الأسف.

كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ وَ يبين الله السبب المباشر لهذه النتيجة السيئه، الا و هو الشك فى رساله، التى لو آمنوا بها لحصلوا على مصالحهم أيضا، ذلك انها الطريق للسعاده، و قد حذرتهم سابقا من هذه العاقبه فلم يستجيبوا لها.

إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ

ص: ٥٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

